النص الكامل

أغاثا كريستي

فِي النِّهايَةِ يَأتي المَوْت









Agatha Christie



Death Comes as the End

في النهاية يأتي الموت

إنها مصر قبل أربعة آلاف عام... حيث الموت يعطي المعنى للحياة.

تعود رينيسب إلى بيت أبيها على ضفاف النيل بعد وفاة زوجها، ولكن... تحت السطح الهادئ لتلك الحياة الأسرية الموسرة يكمن الجشع وتمتلئ النفوس بالطمع والكراهية.

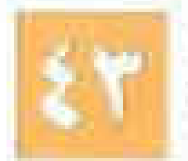
وبعد وصول نوفريت، جارية الأب الجديدة المتكبرة، تتفجر المشاعر بالحقد ويبدأ القتل...

ما الذي سيأتي في النهاية؟

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفي مليون نسخة!







رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصري بالطبعة العربية في جميع أنحاء العالم





US $ 4.00

ملاحظة المؤلفة

تجري أحداث هذه الرواية على الضفة الغربية لنهر النيل قرب مدينة طيبة في مصر قبل نحو أربعة آلاف عام. ولكن الزمان والمكان كليهما ثانويان بالنسبة للقصة؛ إذ كان يمكن لأي مكان آخر وأي زمان أن يصلحا خلفية لها. وقد تم استيحاء شخصيات القصة وعقدتها من ثلاث رسائل مصرية تعود إلى السلالة الحادية عشرة، تم اكتشافها قبل نحو عشرين عاماً على يد البعثة المصرية التي أوفدها متحف الفنون في نيويورك، وقد عُثر على هذه الرسائل في ضريح صخري مقابل الأقصر وترجمها البروفسور باتيسكون غان في «مجلة المتحف».

وربما كان مفيداً أن نوضح للقارئ أن الأوقاف التي كانت تُمنح لطقوس «كا» الدينية (وهي ممارسة يومية في الحضارة المصرية القديمة) تشبه - في جوهرها - الأموال التي كانت توقف بوصية في العصور الوسطى؛ إذ كان يوصى بممتلكات المرء لكاهن «كا» الذي يقوم - مقابل ذلك - برعاية ضريح صاحب الوصية وصيانته وتقديم القرابين في أعياد معينة خلال السنة من أجل راحة روح الفقيد.

وتعني مفردتا «الأخ» و«الأخت» في النصوص المصرية عادة كلمتَي «حبيب» و«حبيبة»، وتتبادلان المعنى -غالباً- مع كلمتَي «الزوج» و«الزوجة»، وقد استُعملتا بهذا الشكل في هذا الكتاب.

ويشكّل التقويمُ الزراعي لمصر القديمة (المؤلَّف من ثلاثة فصول لكلٍ منها أربعة أشهر ولكل شهر ثلاثون يوماً)، يشكل هذا التقويم خلفيةَ الحياة الفلاحية، وبإضافة خمسة أيام في نهاية العام كان التقويم الرسمي المعتمَد يتألف من سنة ذات ٣٦٥ يوماً. وكانت بداية هذا العام -في أول الأمر- تتطابق مع وصول مياه فيضان نهر النيل إلى مصر في الأسبوع الثالث من شهر تموز (يوليو) حسب تقويمنا، ولكن غياب «السنة الكبيسة» سبّب تراجع هذه البداية عبر القرون بحيث صار يوم رأس السنة الرسمي في وقت قصتنا هذه يحل قبل نحو ستة أشهر من بدء السنة الزراعية؛ أي في كانون الثاني (يناير) بدلاً من تموز (يوليو). ولكي نعفي القارئ من مهمة العودة لاحتساب هذه الأشهر الستة في كل مرة فقد وُضعت التواريخ الموجودة في بداية كل فصل حسب مرجعيتها بالنسبة إلى السنة الزراعية؛ وهكذا يمتد فصل الفيضان من نهاية تموز (يوليو) وحتى نهاية تشرين الثاني (نوفمبر)، ويمتد فصل الشتاء من نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) إلى نهاية آذار (مارس)، ويمتد فصل الصيف من نهاية آذار (مارس) وحتى نهاية تموز (يوليو).

* * *

الفصل الأول

الشهر الثاني من فصل الفيضان

اليوم العشرون

وقفت رينيسنب تنظر إلى النيل، وسمعت من بعيد صوت أخويها يحموس وسوبك يتناقشان حول السدود وحاجتها إلى تدعيم وتثبيت في بعض الأماكن.

كان صوت سوبك عالياً وواثقاً كالمعتاد، وكان من عادته تأكيد وجهات نظره بثقة بسيطة. أما صوت يحموس فكان خافتاً مدمدماً في نبرته، ينم عن الشك والقلق. وقد كان يحموس في حالة قلق دائم تجاه هذا الأمر أو ذاك. كان الابن الأكبر في العائلة، وأثناء غياب والده في الولايات الشمالية كانت أمور المزارع في يده، لكنه كان بطيئاً في سلوكه، طويل الأناة والتدبير، ميّالاً لتخيل الصعوبات حيث لا توجد صعوبات. وكان ضخم الجثة بطيء الحركة ولا يملك مرح سوبك وثقته.

وتذكرت أنها اعتادت على سماع أخويها هذين يتجادلان بالطريقة ذاتها منذ طفولتها المبكرة، وجعلها هذا تشعر فجأة بالأمان

لأنها في بيتها من جديد. أجل، لقد عادت إلى بيتها.

ومع ذلك فقد عادت مشاعر الثورة والألم إلى الجيشان في صدرها وهي تنظر ثانية إلى النهر الشاحب اللامع؛ فقد مات زوجها الشاب خاي ذو الوجه الضاحك والكتفين القويين. إنه الآن مع أوزيريس في مملكة الموتى بينما تُركت هي، زوجته المحبة المخلصة، وحيدة. لقد أمضيا معاً ثمانية أعوام بعدما تزوجته وهي لما تزل طفلة، وها هي الآن تعود أرملة مع ابنته تيتي إلى بيت والدها.

وشعرت في تلك اللحظة وكأنها لم تخرج أبداً من هذا البيت، ورحبت بتلك الفكرة! سوف تنسى تلك الأعوام الثمانية المليئة بالسعادة اللاهية التي مزقها ودمرها الألم وفقدان الأحبة. نعم؛ ستنساها وتخرجها من عقلها، لتعود مرة أخرى رينيسنب ابنة إمحوتب الكاهن التي لا تفكر ولا تهتم.

إن زوجها الآن محنط ملفوف باللفائف ومحاط بالتعاويذ. لن يكون خاي في هذا العالم بعد اليوم كي تبحر معه في النيل وهو يصطاد السمك ويضحك للشمس، بينما تستلقي هي في القارب تداعب ابنته تيتي الصغيرة في حضنها وتستمتع بحديث زوجها وضحكاته.

ثم عاودت رينيسنب حديثها الأول: [illegible] أفكر في هذا... لقد انتهى. إنني الآن في المنزل، وكل شيء على ما كان عليه من قبل، وإنني أيضاً سأكون كما كنت سابقاً. [illegible] نسي الأمر، وها هي ذي تلعب مع الأطفال الآخرين وتضحك.

وضحكت [illegible]

المحملة والمتجهة إلى النهر، ومرت بمخازن الحنطة وبيوت العمال وعبرت الباب الرئيسي إلى فناء البيت. وجدته جميلاً كما تركته؛ البحيرة الصناعية تحيط بها أزهار الدفلى والياسمين وتظللها شجرة الجميز، والأطفال يملؤون المكان ضجة وحركة وحيوية.

ولاحظت رينيسنب أن تيتي تلعب بأسد خشبي يفتح فمه ويغلقه بجرة خيط... إنها اللعبة التي أحبتها هي عندما كانت صغيرة.

وتفكرت مرة أخرى بامتنان: لقد عادت إلى المنزل ولم يتغير شيء، باستثناء أن تيتي هي الطفلة الآن بينما هي إحدى الأمهات الكثيرات بين جدران هذا البيت. إذن لم يزل الإطار ثابتاً لم يتغير، وهو جوهر الأشياء.

وتدحرجت كرة يلعب بها الأطفال إلى أسفل قدميها، فتناولتها وأعطتها إليهم وهي تضحك. ومضت إلى الشرفة بأعمدتها الملونة الزاهية، ثم دخلت إلى المنزل ومرت بالغرفة الرئيسية وعلى جنباتها الخس والخشخاش، ثم أوت إلى أجنحة النساء.

وتناهت إلى مسامعها الأصوات القديمة المألوفة: أصوات ساتيبي وكيت تتجادلان كعادتهما. ساتيبي زوجة يحموس مستبدة وقاسية، طويلة ونشيطة وجميلة، حادة اللسان تُرعب الخدم والصبية وتتكلم بثقة وتسلّط وتجد في كل شيء عيباً، ويخافها الجميع ويحذرون لسانها السليط. كان يحموس معجباً بزوجته الحازمة مع أنه كان يسمح لها بالسيطرة عليه بطريقة تثير غضب رينيسنب. وعندما كان يتوقف صوت ساتيبي المرتفع كان يُسمع صوت كيت، زوجة سوبك الوسيم المرح، وكان صوتاً هادئاً وعنيداً... وهي تهرب من

حدثت ساتيبي بجملة بسيطة عادية تكررها بعناد وإصرار دون غضب أو انفعال.

وكانت كيت بسيطة عادية المظهر محدودة الأفق، تكرس حياتها لأطفالها ولا تكاد تفكر في شيء آخر. وكان سوبك يحب زوجته ويتحدث إليها بحرية عن أموره كافة، وهو متأكد أنها تستمع إليه وتصرح بموافقتها أو اعتراضها ولا تتذكر أياً من الأمور المزعجة، فإن عقلها يفكر طول الوقت في مشكلة تتعلق بالأطفال.

صرخت ساتيبي: هذا فظيع! لو أن يحموس يمتلك بعض الشجاعة لما قبل هذا. من المسؤول هنا في غياب إمحوتب؟ يحموس! وبما أنني زوجة يحموس فأنا التي يجب أن أختار الفرشات والوسائد أولاً. ينبغي لهذه الخادمة...

وقاطعها صوت كيت العميق: لا، لا يا صغيرتي، لا تأكلي شعر اللعبة. هاك شيئاً أفضل... حلوى، آه! كم هو لطيف.

- أما أنت يا كيت فلا تتمتعين بأي قدر من اللباقة ولا تستمعين لما أقول ولا تجيبينني... إن تصرفاتك مشينة.

- الوسادة الزرقاء كانت دائماً لي... آه، انظري إلى أنخ الصغيرة، إنها تحاول المشي.

- أنت غبية كأطفالك يا كيت، ولكنك لن تفلتي بهذه السهولة. سوف أحصل على حقوقي، وسوف ترين.

وجفلت رينيسنب عندما أحست بوقع أقدام خفيفة خلفها، وراودها ذلك الشعور القديم بالكره لدى رؤيتها لحينيت تقف

خلفها. والفرح وجه حينيت النحيل عن ابتسامة متملقة وقالت: لعلك تفكرين بأن الأمور لم تتغير كثيراً يا رينيسنب. لا أعلم كيف نحتمل جميعاً لسان ساتيبي... كيت تستطيع أن ترد عليها ولكننا لسنا جميعاً محظوظين مثلها. إنني أعمل وأقدم العون هنا وهناك ولا أجد شكراً ولا تقديراً من أحد سوى والدك الذي قدم لي المأوى والطعام والثياب. لم يعد أحد يحترمني بعد أمك... وحدها كانت تقدرني وتحترمني في هذا البيت. كانت امرأة جميلة، وقد أوصتني وهي تُحتضر بأن أعتني بكم. وقد وفيتُ بوعدي وأديت واجبي فخدمتكم جميعاً، ولم أكن أريد الشكر على ذلك.

وانسلّت كالسمكة من تحت ذراع رينيسنب ودخلت الغرفة الداخلية، حيث تدخلت في حوار الكنتين قائلة: بشأن تلك الوسائد يجب أن تعذريني يا ساتيبي، ولكنني سمعت سوبك يقول...

وابتعدت رينيسنب، وجاشت كراهيتها القديمة لحينيت. عجيب كيف يكره الجميع هذه المرأة! كان ذلك بسبب صوتها النائح واستدرارها المستمر للشفقة على نفسها والمتعة اللئيمة التي تجدها أحياناً في تسعير أوار المهاترات.

وفكرت رينيسنب قائلة لنفسها: حسناً، ولم لا؟ إنها طريقة حينيت بالتسرية عن نفسها، إذ لا بد أن حياتها قاحلة كئيبة، وكان صحيحاً أنها كانت تعمل بلا كلل ولا ملل وأن أحداً لم يكن ليبدي لها أي امتنان. ليس بوسع المرء أن يكون ممتناً لحينيت، فهي تجذب الانتباه إلى مزاياها الخاصة بطريقة فيها من الإصرار والإلحاح ما يثبط استجابة كريمة يمكن أن يحس بها المرء تجاهها.

وفكرت رينيسنب أن حينيت كانت واحدة من أولئك الناس الذين كُتب عليهم أن يتعلقوا بالآخرين ويخلصوا لهم دون أن يكون لديهم من يتعلق بهم أو يخلص لهم!

لم تكن حينيت جذابة فينظر المرء إليها، وقد كانت غبية أيضاً، لكنها تعرف دائماً ما يدور من أمور مهما تكن خفية؛ فطريقة مشيتها التي لا تسمع وأذناها الحادتان وعيناها المتلصصتان السريعتان... هذه كلها تجعل أي سر من الأسرار أمام فضولها هيناً. وكانت تحتفظ بما عرفته لنفسها في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كانت تنقل بما عرفته من شخص لآخر، تهمس تقف لتراقب من بعيد. لا بد أنها تحيا حياة رهيبة مروعة.

لم يبق أحد في المنزل إلا وتوسّل إلى إمحوتب في وقت من الأوقات كي يتخلص من حينيت، لكنه رفض بإصرار. كان هو الشخص الوحيد الذي يحبها ويقف إلى جانبها، وكانت هي ترد إحسانه هذا بإخلاص يثير اشمئزاز أفراد العائلة جميعاً.

ووقفت رينيسنب وهي مترددة تستمع إلى الجلبة المتزايدة التي تثيرها زوجة أخيها التي ازدادت حدتها بسبب تدخل حينيت، ثم مشت ببطء نحو الغرفة الصغيرة مقر جدتها إيزا. كانت إيزا وحدها تتحدث مع جاريتين تقومان بخدمتها، وكانت مشغولة بأثواب من الكتان تعرضها عليها الجاريتان وهي توبخهما بطريقة محببة لطيفة.

أجل؛ إن الأمور كما هي. ووقفت رينيسنب تستمع دون أن ينتبه إليها أحد. لقد تضاءل جسم إيزا العجوز قليلاً، لكن صوتها كما

هو والأشياء التي تقولها هي هي، كلمة كلمة، كما تركتها رينيسنب قبل أن تغادر قبل ثماني سنوات.

ومن غير أن تلحظها العجوز أو الجاريتان تسللت رينيسنب -مرة أخرى- إلى المطبخ المفتوح حيث رائحة البط المشوي والحديث والضحك والتوبيخ وكومة من الخضار تنتظر الإعداد. ووقفت رينيسنب وعيناها مغمضتان، كانت تستطيع من حيث تقف أن تسمع كل ما كان يدور في آن واحد: الأصوات العالية في المطبخ، ونبرة صوت إيزا العجوز العالية، وصوت ساتيبي الحاد، ونغمة كيت الهادئة العميقة والملحة... خليط من الأصوات النسائية تثرثر، وتضحك، وتتذمر، وتوبخ، وتهتف...

وفجأة شعرت رينيسنب أنها تختنق في هذا الصخب النسوي المتواصل. نساء مزعجات وصاخبات، وأي منزل مليء بالنساء لا يكون أبداً هادئاً أو آمناً، دائماً يتحدثن ويهتفن، ويقلن أشياء ويكتفين بالأقوال دون الأفعال!

أين خاي الصامت الذي يجلس مراقباً في قاربه وعقلُه ساهم وينتظر مع رمحه السمكة بصبر بعيداً عن كل هذه الثرثرة والقيل والقال؟

وخرجت بسرعة من المنزل مرة أخرى إلى الفناء الهادئ، فرأت سوبك عائداً من الحقل ورأت يحموس من بعيد يصعد إلى الضريح، فدارت مبتعدة وسارت في الطريق المؤدي إلى المنحدر الصخري حيث ضريح ميريبتاح العظيم الذي يعمل أبوها كاهناً فيه يحرسه ويعتني به. وكانت كل العقارات والأرض جزءاً من وقف

الضريح، وعندما يغيب والدها فإن واجبات الكاهن كافة تلقى على كاهل أخيها يحموس.

وعندما وصلت رينيسنب وهي تصعد المنحدر الحاد ببطء كان يحموس يتشاور مع حوري، مساعد والدها، في الغرفة الصخرية الصغيرة بجوار غرفة قرابين الضريح.

كان حوري يبسُط على ركبتيه لفافة بردي ينظر فيها مع يحموس، وابتسم يحموس وحوري لرينيسنب عندما وصلت وجلست بالقرب منهما في الظل. كانت تحب أخاها يحموس الرقيق العطوف المعتدل. وحوري - أيضاً - كان دائماً لطيفاً مع رينيسنب الصغيرة وكان يصلح لها ألعابها أحياناً. ووجدته كما تركته: شاباً وقوراً صامتاً يتقن أعمال الكتابة والحساب. لعله كبر قليلاً.

كان يحموس وحوري يتهامسان: ثلاثة وسبعون قنطاراً من الشعير، وأبيي الأصغر...

- المجموع - إذن - مئتان وثلاثون من الحنطة ومئة وعشرون من الشعير.

- أجل، لكن يبقى ثمن الخشب والمحصول الذي دفع بدلاً للزيت في بيرحا.

وتابعا حديثهما، وجلست رينيسنب وقد غلبها النعاس وهي راضية بصوت الرجلين الهامسين، ثم نهض يحموس فذهب وقد سلم ورقة البردي إلى حوري. وجلست رينيسنب بصمت فأمسكت ورقة البردي وسألت حوري: هذه من أبي؟ ماذا يقول؟

وفضّت الورقة وحدقت إلى تلك العلامات التي لم تكن تفقه معناها، فابتسم حوري وانحنى وأخذ يتبع أصابعه وهو يقرأ. كانت الأحرف مصفوفة بطريقة منمقة تدل على أسلوب كاتب الرسائل المحترف في هيرا كليوبوليس.

- يقول الكاهن إمحوتب خادم ضريح النيل العظيم: أضرع إلى الله أن تكون حالكم كحال أولئك الذين يعيشون ملايين المرات. وليساعدكم هيرشاف إله هيرا كليبوليس وجميع الآلهة، وليسعد الإله بتاح قلوبكم. ويدعو لوالدته إيزا بالأمن والصحة والعافية ولأهل البيت جميعاً. ثم يتابع: إلى ولدي يحموس: كيف هي أحوالك؟ أهي آمنة مليئة بالصحة والعافية؟ اعمل بهمة وكدّ قدرَ استطاعتك. ابذل أقصى جهدك واحفر الأرض بجد كي أدعو الآلهة أن تساعدك.

ضحكت رينيسنب وقالت: مسكين يحموس! إنه يعمل بجد، أنا واثقة من ذلك.

نصائح أبيها جعلته يتراءى أمام عينيها، بأسلوبه البهيج المزعج قليلاً وبتحذيراته وتعليماته المستمرة. وأكمل حوري: اعتنِ جيداً بابني آيبي، لقد سمعت أنه ليس راضياً. وتأكد أيضاً أن ساتيبي تعامل حينيت معاملة حسنة. واكتب لي عن الكتان والزيت، واحرس محصول القمح، احرس كل شيء، فإن أهملت فسأحمّلك المسؤولية، وإن أغرقت أرضي فويلٌ لك ولسويك!

فرحت رينيسنب وقالت: أبي لا يزال كما هو؛ يظن أنه إذا كان غائباً فإن أي شيء لن يُنفَّذ بالطريقة الصحيحة.

وأفلتت لفافة البردي فعادت تلتف على بعضها كالأسطوانة. وقالت بلطف: كل شيء لا يزال على حاله.

لم يجبها حوري، والتقط ورقة البردي وبدأ يكتب. وراقبته رينيسنب صامتة راضية، ثم قالت كأنها تحلم: جميلة هي الكتابة على ورق البردي! لماذا لا يتعلم الجميع؟

- ليس هذا ضرورياً.

- ربما، ولكن الكتابة شيء جميل.

- أتظنين ذلك يا رينيسنب؟ ماذا عسى أن تحقق لك الكتابة؟

فكرت رينيسنب لحظات ثم قالت ببطء: لا أعرف.

قال حوري: في الوقت الحاضر تحتاج المقاطعة الواسعة عدداً قليلاً من الكتاب، لكنني أتخيل أن يوماً سيأتي يكون فيه جيش من الكتبة في مصر.

- سوف يكون ذلك أمراً جيداً.

- لست واثقاً من ذلك.

- لماذا؟

- سهل جداً أن يدوّن الإنسان مكاييل الحنطة والشعير وعدد قطعان الماشية والأغنام، ويظن الناس أن كتابة الشيء مثل حيازته، وهكذا يحتقر الكاتب الفلاح الذي يحرث الحقول ويحصد الشعير ويرعى القطيع... ولكن كل تلك الحقول والمواشي هي حقيقية لا علامات ورموز تدوّن على البردي فقط، وعندما تتلف السجلات وورق البردي وتتبعثر المخطوطات فإن الرجال الذين يكدحون ويحصدون سوف يستمرون في عملهم لتبقى مصر.

نظرت إليه رينيسنب بانتباه وقالت ببطء: نعم، أدرك ماذا تعني؛ الأشياء التي تستطيع أن تراها وتلمسها وتأكلها هي الأشياء الحقيقية، أما أن تكتب: "لدي مئتان وأربعون صاعاً من الشعير" فلا يعني شيئاً ما لم تكن تملك الشعير حقاً... ربما يسجل المرء الأكاذيب والأوهام.

ابتسم حوري لمنظر وجهها الجاد، وقالت هي فجأة: لقد أصلحت الأسد الخشبي الذي كنت ألعب به قبل مدة طويلة. أتذكر؟

- نعم يا رينيسنب، أذكر.

- تيتي تلعب به الآن. عندما ذهب خاتي إلى أوزيريس حزنت كثيراً، ولكنني عدت الآن إلى المنزل حيث كل شيء لا يزال كما هو، وسأكون سعيدة بذلك

- أتظنين ذلك حقاً؟

نظرت إليه رينيسنب بحدة: ماذا تعني يا حوري؟

- أعني أن هناك دائماً تغييراً، فثمانية أعوام هي ثمانية أعوام.

قالت رينيسنب بثقة: لا شيء يتغير هنا.

- بل يجب أن يتغير كل شيء، هكذا هي الحياة.

- أريد أن يبقى كل شيء على حاله.

- لكنك أنت لست رينيسنب التي ذهبتْ مع خاي.

- بل إنني هي نفسها، وإن لم أكن كذلك فسوف أكون كذلك بسرعة.

هز حوري رأسه: لا يمكنك العودة يا رينيسنب، فالحياة مثل حساباتي هنا: آخذ النصف وأضيف إليه ربعاً ثم عشراً، فيتغير المحصول باستمرار.

- ولكنني أنا رينيسنب لا المحصول!

- هناك أمور أضيفت إلى رينيسنب طوال الوقت، وهكذا فإن رينيسنب صارت مختلفة بمرور الوقت.

- لا، لا. أنت حوري القديم نفسه.

- ربما تظنين ذلك، ولكنه ليس صحيحاً.

- بلى، بلى. ويحموس لا يزال كما هو؛ قلق دائماً ومتلهف وتسيطر ساتيبي عليه كما كانت من قبل، وهي تتشاجر مع كيت كالمعتاد حول الفرشات والأسرّة، وعندما أعود سأجدهما تتضاحكان معاً كأفضل صديقتين! وحينيت لا تزال تتسلل وتستمع وتتذمر وتتحدث عن إخلاصها وتفانيها، ولا تزال جدتي تثير الجلبة مع خادمتها بشأن ملابس الكتان. كل شيء لا زال كما كان في السابق، وسيرجع والدي إلى المنزل وتكون جلبة كبيرة، وسوف يقول: "لِمَ لم تفعلوا ذلك؟" و"كان يجب أن تفعلوا ذلك"... ويحموس سيبدو

قلقاً، أما سوبك فسوف يضحك ويكون وقحاً، وسوف يدلّل أبي آيبي الذي يبلغ الآن السادسة عشرة كما كان يفعل وهو في الثامنة... ولن يختلف شيء!

وسكتت رينيسنب وقد تقطّعت أنفاسها، فتنهد حوري وقال بلطف: أنت لا تفهمينني يا رينيسنب. هناك أنواع من الشر تأتي من الخارج وتهاجم بشكل عاصف يراه العالم كله، ولكن هناك نوعاً آخر من التعفن الذي ينمو في الداخل دون أن يُبدي أية علامة خارجية. ينمو ببطء يوماً بعد يوم، حتى تصبح الثمرة كلها متعفنة في النهاية وقد أتى عليها المرض تماماً.

حدقت رينيسنب إليه. كان يتحدث وهو شارد كأنه غائب عن الدنيا، كأنه لم يكن يتحدث إليها بل إلى نفسه. صرخت: ماذا تعني يا حوري؟ أنت تخيفني.

- وأنا خائف بالفعل.

- ماذا تعني؟ ما الشر الذي تقصده؟

نظر إليها وابتسم فجأة قائلاً: انسي ما قلته يا رينيسنب. كنت أفكر في الأمراض التي تهاجم المحاصيل.

فتنهدت رينيسنب وقالت بارتياح: أنا سعيدة. لقد ظننت... لا أعلم ماذا ظننت.

* * *

الفصل الثاني

الشهر الثالث من فصل الفيضان

اليوم الرابع

-١-

كانت ساتيي تتحدث مع يحموس وصوتها مرتفع كشأنها دائماً: يجب أن تفرض على الآخرين احترام حقوقك؛ فلن يحترموك إلا إذا فعلت ذلك. والدك يقول: "اعمل كذا ولا تعمل كذا ولِمَ لم تعمل كذا؟"... وأنت تسمع خانعاً ثم تقول: نعم. وأنت تعلم والآلهة تعلم أنه يطلب المستحيل. إنه يعاملك كطفل في عمر آيبي وكأنك لست أهلاً للمسؤولية!

أجابها يحموس بهدوء: أبي لا يعاملني أبداً كما يعامل آيبي.

- إنه غبي في تعامله مع آيبي. ذلك الطفل المدلل لا يحسن شيئاً سوى أن يمشي متباهياً لأنه يعلم أن والده منحاز إليه. يجب أن تضع أنت وسوبك حداً لذلك.

هز يحموس كتفيه وقال: وما الفائدة؟

فتصرخ هي: سوف يصيبني خنوعك هذا بالجنون! أنت جبان مثل امرأة، توافق والدك على كل ما يقوله؟

- أنا أحب والدي حباً عظيماً.

- نعم، وهو يستغل ذلك. يجب أن تتصرف مثل سويك؛ إنه لا يخاف أحداً ولا يعتذر عن أخطاء ليست أخطاءه.

- لكن والدي يثق بي أكثر من سويك ويَكِلُ إليّ جميع المسؤوليات لا إلى سويك.

- ولذلك يجب أن تكون شريكاً لأبيك بصورة قانونية، فأنت تمثله في غيابه في المعبد والحقول وجميع الأعمال، ومع ذلك فأنت لا تملك سلطة معترفاً بها. ينبغي الوصول إلى تسوية مناسبة؛ فأنت الآن رجل في منتصف عمرك وليس معقولاً أن تعامَل كأنك طفل مراهق.

- أبي يحب أن تكون السلطة كلها بيده.

- يسعده أن يكون الجميع عالة عليه ليتفضل عليهم. عندما يأتي هذه المرة يجب أن تحدثه بصراحة وتطلب تفويضاً موثقاً ويكون لك شأن معروف.

- لن يستمع إليّ.

- يجب أن تجعله يستمع. آه لو كنت رجلاً! لو كنت مكانك لعرفت ماذا أفعل. أشعر أحياناً أنني متزوجة حشرة ضعيفة.

احمرّ وجهه بخصوص وقال: سأرى ما أستطيع أن أفعل. ربما، نعم؛ ربما أتحدث معه وأطلب...

- لا تطلب، بل طالب! لا أحد سواك يمكنه أن يعتمد عليه، يجب أن يدرك هذا. سويك متهور، وأبيي صغير.

- ربما يعتمد على حورِي.

- لكنه ليس من العائلة. إنني أفهم كيف تسير الأمور، لكنك متردد وذليل ليس في عروقك دم، هل تفكر في أطفالنا؟ إذا لم تفكر في زوجتك فلن تحصل على مركز مناسب قبل وفاة والدك.

- سأتكلم مع أبي عندما يعود، هذا وعد.

- وكيف ستتكلم؟ كرجل أم كفأر؟

-٢-

كانت كيت تلاعب طفلتها الصغيرة التي تحاول أن تمشي وتشجعها بكلام ضاحك وتمد لها ذراعيها وتحاول أن تعرض هذا الإنجاز أمام زوجها، لكنها أدركت فجأة أنه شارد يفكر وجبينه الوسيمة متجعدة بعبوس وتجهم، فهتفت به: سويك، أنت لا تنظر إلى آنخ وهي تمشي؟ اضربي والدك يا آنخ، أخبريه أنه سيء.

ردّ سويك غاضباً: لديّ أشياء أخرى أكثر أهمية أفكر فيها.

قالت كيت وهي تحاول أن تخلص شعرها من يد آنخ: ماذا يقلقك؟

كانت تتحدث دون اهتمام كبير. وكان السؤال بطريقة آلية لا نفكر فيها.

- أبي لا يثق بي، يصرّ على أن يفرض أوامره ولا يقبل شيئاً يخالف فكرته، ويحموس شخصيته ضعيفة لا يقف جانبي، وهو ينفذ تعليمات أبي بدقة وجبن.

كانت كيت تهز رأسها بين فترة وأخرى بينما تداعب ابنتها وتقول: نعم، هذا صحيح؛ أنت محق.

ويستمر سوبك بعد كل لحظة استراحة تؤكد فيها كيت على رأيه وتوافقه تماماً: يجب أن يدرك أنني شاب شجاع فيعتمد عليّ ويفوضني. سوف أخبره عندما يعود بأنني اعتمدت على تقديري في اختيار الكتان بدلاً من الزيت كثمن للخشب.

- نعم، إنك شجاع وذكي يا سوبك.

- فإن أصرّ على رأيه هذا فسوف أترك البيت وأذهب بعيداً. إنني متأكد من أنه سيصرخ غضباً: "لقد أخبرتك أن تبادل بالزيت لا بالكتان؛ أنت صبي غبي لا تفقه شيئاً"! كم يظن عمري؟ ألا يدرك أنني رجل في عنفوان الشباب وأنه كبر وهرم ويجب أن يتقاعد؟ يجب أن يدرك أن العمل يحتاج إلى مغامرة وشجاعة، فالثراء لا يتحقق بلا مخاطرة.

قالت كيت باهتمام هذه المرة: لا يا سوبك، لا تفعل ذلك.

- ماذا تعنين يا كيت؟

سألها باهتمام وقد لاحظ تغيراً في نبرة صوتها جعله يحس أنها حاضرة تفكر لا كما كان قد تعودها مسايرة حتى أنه كثيراً ما ينساها.

- لا تكن غبياً. كل الأراضي والحقول والقطعان لوالدك، وحين يموت ستكون لنا، وستستقل بحصتك، ولكن إذا تركته الآن فربما يجوع أطفالك.

نظر إليها سوبك وضحك بدهشة قائلاً: المرأة دائماً مفاجئة. إنك قوية جداً؛ لم أعرف من قبل أنك تضمرين كل هذه الأفكار!

- لا تخاصم أباك، أرجوك؛ كن حكيماً واصبر!

- ربما تكونين محقة، هل تحبين أبي يا كيت؟

لم تُجب كيت، بل انحنت إلى الطفلة التي تحاول أن تمشي وقالت: تعالي يا حبيبتي، خذي لعبتك هذه... تعالي.

-٣-

وقف أبيي، الولد المراهق، أمام جدته مستاءاً ضَجِراً. كانت توبّخه بحدة وترميه بنظرات قاسية من عينيها اللاذعتين رغم أنهما لا يريان إلا قليلاً: ما هذا الذي أسمعه؟ تريد أن تفعل ولا تريد أن تفعل، وتريد أن تعتني بالثيران ولا تريد أن تذهب مع يحموس؟ لا يجوز أن يختار طفل مثلك ما يريد أن يفعله وما لا يريد.

- أنا لست طفلاً ويجب أن أعامَل كرجل؛ لا أحب أن أسمع أوامر من أحد ولا أقبل ذلك.

- ولكن أخاك يحموس هو المسؤول.

- من يظن يحموس نفسه؟ إنه غبي بليد، وسوبك غبي أيضاً وإن كان يتفاخر دائماً بذكائه. أنا أذكى منهما، وأبي قال في رسالته بأن أختار العمل الذي أريده.

- وأنت لا تختار شيئاً.

- وأنه يجب أن أنال مزيداً من الطعام والشراب، وأنه إذا عرف أنني غضبت فلن يقبل ذلك.

- أنت ولد سيء، وسأخبر إمحوتب بذلك.

ابتسم آيبي بمكر وقال: لا يا جدتي، لن تفعلي ذلك. واقترب منها يلاطفها قائلاً: أنا وأنت - يا جدتي - وحدنا لدينا عقل في هذه العائلة.

- هذه وقاحة.

- أبي يعتمد على رأيك؛ إنه يعرف أنك حكيمة.

- لست بحاجة لأن تخبرني بهذا.

ضحك آيبي وقال: يحسن بك أن تكوني إلى جانبي يا جدتي.

- ما هذا الحديث الذي أسمعه عن **الجوانب**؟

- إن أخوي غير راضيين، أنت تعرفين دون شك؛ فحينيت تخبرك بكل شيء. إن ساتيبي تلقي بخطبها على يحموس صباح مساء وحيثما أمسكت به، كما أن سوبك جعل نفسه أضحوكة في صفقة الأخشاب التي باعها، وهو خائف من غضب أبي عندما يكتشف ذلك. هل تدركين ذلك يا جدتي؟ بعد عام أو عامين سأكون أنا الذي أرافق والدي وأشاركه عمله، وسيفعل عندها كل ما أطلبه منه.

- أنت؟ أصغر فتيان الأسرة؟!

- وما علاقة العمر بذلك؟ إن أبي هو الذي يمتلك السلطة وأنا الوحيد الذي يعرف كيف يتدبر أمر والده!

- هذا كلام شرير.

- أنت لست غبية يا جدتي؛ فأنت تعلمين أن أبي ضعيف وإن كان لسانه سليطاً.

سكت عن الحديث عندما لاحظ أن جدته تحولت بنظرها إلى مكان آخر، وحين نظر رأى حينيت واقفة. قالت: إذن فإمحوتب ضعيف! لن يكون سعيداً حين يعرف أنك تزعم هذا.

ضحك آيبي بسرعة مرتبكاً وقال: ولكنك لن تخبريه يا حينيت، عزيزتي حينيت! هل تعديني؟

رفعت صوتها المنتحب: بالطبع لن أقول شيئاً؛ لا أريد أن أكون سبباً في مشكلة، لقد كرست حياتي لكم جميعاً، أنا لا أنقل كلاماً...

- كنت أمازح جدتي، هذا كل ما في الأمر. وسأخبر والدي بما قلته ولن يصدق أنني قلته جاداً.

خرج من الغرفة مسرعاً، ونظرت جنيت إليه وقالت لإيزا: ولد وسيم وجذاب، ويتكلم بجرأة رائعة!

- إنه يتكلم بأشياء خطيرة، وأنا لا أرتاح لأفكاره. يبدو أن ابني يدلله كثيراً... إنني قلقة يا جنيت.

- ما الذي يقلقك يا سيدتي؟ سيعود السيد قريباً وتكون الأمور كلها على ما يرام.

- وهل تكون كذلك حقاً؟

وصمتت قليلاً ثم أضافت تقول: هل حفيدي يحموس في المنزل؟

- رأيته قادماً قبل لحظات.

- أخبريه أنني أريد محادثته.

غادرت جنيت فوجدت يحموس عند الشرفة الباردة المنعشة ذات الأعمدة الجميلة، فأبلغته رسالة إيزا. وأطاع يحموس أمر جدته فوراً.

قالت إيزا بسرعة: يحموس، سوف يكون إمحوتب هنا قريباً.

أشرق وجه يحموس وقال: سيكون ذلك حدثاً ساراً.

- هل هيأت له كل شيء؟ هل ازدهرت الأعمال؟

- لقد نفذت أوامر والدي كما فهمتها.

- ماذا بشأن آيبي؟

- تنهد يحموس وقال: إن والدي يدلله كثيراً، وهذا لا يناسب الفتى.

- يجب أن توضح ذلك لإمحوتب.

تردد يحموس فقالت إيزا بحزم: سوف أؤيدك وأدعمك.

- سيكون كل شيء على ما يرام عندما يعود والدي، ويمكنه أن يصنع ما يراه. لا أستطيع أن أتصرف كما أريد في أثناء غيابه، فأنا مجرد مندوب ولا أملك السلطة.

- أنت ابن جيد ومخلص وعطوف، وزوج جيد؛ أحببت زوجتك وقدمت لها المنزل والطعام واللباس والزينة، ولكن عليك أن تمنعها من السيطرة.

نظر يحموس إليها واحمرّ وجهه ثم دار مبتعداً.

* * *

الفصل الثالث

الشهر الثالث من فصل الفيضان

اليوم الرابع عشر

-١-

جرت استعدادات كبيرة لاستقبال إمحوتب. تم طبخ المئات من أرغفة الخبز في المطبخ، وشُوي البط، وانتشرت رائحة الشومر والثوم وتوابل مختلفة. كانت النساء يصرخن ويعطين الأوامر والخدم من الرجال كانوا يتحركون ذهاباً وإياباً، وفي كل مكان نشاط واستعداد وانتشرت همسات: "السيد، السيد قادم".

كانت رينيسنب تنسج إكليلاً من أزهار اللوتس والخشخاش لتهديه أباها العائد من الشمال، وقلبها يخفق سعيداً بانفعال. لقد بدأت في الأسابيع الأخيرة تعود بالتدريج إلى حياتها القديمة واختفى ذلك الشعور بعدم الألفة وبالغرابة الذي فرضته عليها - كما تظن - كلمات حوري، وعادت رينيسنب القديمة ويحموس وسوبك وساتيبي وكيت كما هم في السابق.

ووصل خبر يقول إن إمحوتب سيصل قبل الليل. ووُضع أحد الخدم عند ضفة النهر ليخبرهم بقدوم السيد، وفجأة ارتفع صوته عالياً وواضحاً بالإشارة المتفق عليها.

أسقطت رينيسنب الأزهار وركضت مع الآخرين، وأسرعوا جميعاً إلى ضفة النهر. كان يحموس وسوبك هناك مع جماعة صغيرة من القرويين الصيادين وعمال المزارع، وكلهم يصرخون بانفعال ويشيرون. أجل، كان ثمة مركب شراعي كبير قادم بسرعة عبر النهر والرياح الشمالية تدفع الشراع، ويتبعه الزورق المطبخ المزدحم بالرجال والنساء.

واستطاعت رينيسنب أن تميز والدها جالساً يحمل زهرة لوتس ومعه شخص ظنته مغنياً. وازدادت الصيحات على ضفة النهر "مرحباً بالسيد"، والدعوات للآلهة والشكر لعودته سالماً.

وبعد لحظات وصل إمحوتب إلى الشاطئ يلوح بيده ويحيي عائلته ويجيب التحيات العالية بما تقتضيه آداب السلوك. وتقدمت رينيسنب إلى الأمام ثملة بفرحة اللقاء وطوقت عنق أبيها بإكليلها من الزهور، وراودها الشعور القديم عندما كانت طفلة. لكن ظنها خاب بعدما رأت والدها؛ فلم يكن أباها الذي في مخيلتها... إنه اليوم كهل ضئيل!

جفلت رينيسنب من هذه الأفكار التي تسللت إليها وحلّ فيها شعور بعدم الرضا. هل تقلص والدها أم خانتها ذاكرتها؟ كانت تظنه مخلوقاً رائعاً مستبداً، يحب إثارة الجلبة وينصح للجميع وشخصيته بارزة. لكن هذا الرجل العجوز السمين يبدو مغروراً ومعتزاً بنفسه

لا يؤثر في الناس! ماذا حل بها؟ ما هذه الأفكار غير المخلصة التي تراودها؟

وصل إمحوتب - بعدما انتهت الكلمات الرنانة والرسمية - إلى مرحلة التحيات الشخصية؛ فعانق ولديه والتفّ أفراد العائلة حوله.

- آه يا عزيزي يحموس، مبتسم دائماً! لقد كنت مجتهداً في أثناء غيابي، أنا واثق من ذلك. سوبك، ابني الجميل، ما زلت هانئ البال كما أرى. وها هو آيبي... آيبي الأعز، دعني أنظر إليك، ابتعد قليلاً... هكذا. لقد كبرت وأصبحت رجلاً، كم يفرح قلبي أن أمسك بك هكذا مرة أخرى! رينيسنب، ابنتي العزيزة مرة أخرى في المنزل. ساتيبي، كيت، ابنتاي اللتان لهما مكانة في قلبي مثل يحموس وسوبك... وحينيت، حينيت المخلصة!

جاءت حينيت واحتضنت سيدها وهي تمسح دمع الفرح عن عينيها لتجلب الانتباه.

- كم هو جميل أن أراك يا حينيت! ألنت بخير؟ ألنت سعيدة؟ أنت كشأنك دائماً، مخلصة تكرسين حياتك للناس. وحوري القدير... رجل الحسابات والكتابة الذكي، هل ازدهرت الأمور؟ أنا واثق من ذلك.

وانتهت التحيات وطقوس اللقاء وخفتت الأصوات، فرفع إمحوتب يده مشيراً إليهم بالصمت وتحدث بصوت مرتفع: أبنائي وبناتي، أصدقائي... إن لدي بعض الأخبار لكم. كما تعلمون، فقد كنت رجلاً وحيداً سنوات عدة. زوجتاي: أم يحموس وأم آيبي ذهبتا إلى أوزيريس منذ سنوات، واليوم أقدم لكم جاريتي نوفريت، ستكون

أختاً لكما يا سانيبي ويا كيت، وستقيم معكم في المنزل، وستحبونها لأجلي. لقد جاءت معي من ممفيس وستقيم هنا معكم.

وأمسك إمحوتب بيد امرأة تقدمت لتقف بجانبه ورأسها مرتد إلى الخلف، عيناها ضيقتان، شابة مغرورة وجميلة.

قالت رينيسنب في نفسها بدهشة: "لكنها صغيرة جداً، ولعلها أصغر مني!". ووقفت نوفريت بهدوء تعلو شفتيها ابتسامة بسيطة ساخرة. كان حاجباها أسودين مستقيمين وجلدها نحاسياً ورموشها طويلة وكثيفة تكاد تغطي عينيها.

حدقت الأسرة التي أخذتها المفاجأة وقد أطبق على أفرادها الصمت، فقال إمحوتب بصوت يكاد يلوح فيه بعض الانفعال: هيا يا أولادا! رحبوا بنوفريت. ألا تعرفون كيف ترحبون بجارية أبيكم عندما يحضرها إلى بيته؟

انطلقت كلمات الترحيب متلعثمة مترددة، وهتف إمحوتب بمرح يخفي وراءه بعض القلق: نوفريت، سوف تصحبك سانيبي وكيت ورينيسنب إلى منازل النساء. أين أمتعتك؟ هل أحضرت الأمتعة إلى الشاطئ؟

كانت الأمتعة تُحمل من السفينة، وقال إمحوتب لنوفريت: جواهرك وملابسك وصلت بأمان، اذهبي وتأكدي منها.

وبعد أن ابتعدت النساء التفت إمحوتب إلى أبنائه قائلاً: كيف حال العزبة؟ هل كل شيء على ما يرام؟

وبدأ يحموس بالشرح: الأراضي المنخفضة التي استأجرها ناخت...

قاطعه أبوه: لا أريد تفاصيل الآن يا يحموس، يمكننا أن ننتظر إلى الغد ونقضي ليلة مرحة، وغداً سوف أبدأ أنا وأنت وحوري بالعمل. هيا يا آيبي يا ولدي، هيا نمشي إلى المنزل... هيه، لقد أصبحتَ أطول مني!

مشى سوبك متجهماً خلف والده وآيبي وهمس في أذن يحموس: الجواهر والثياب... هل سمعت؟ هذا ما ذهبت إليه أرباح عزباتنا الشمالية، أرباحنا!

- صه! سوف يسمعك والدنا.

- ماذا لو سمع؟ أنا لا أخشاه مثلك.

وما أن وصلوا المنزل حتى صعدت جينيت مبتسمة إلى غرفة إمحوتب لكي تعد الحمام. وتخلى إمحوتب قليلاً عن حماسته الدفاعية وقال: ما رأيك باختياري يا جينيت؟

رغم أن إمحوتب كان عازماً على معالجة الأمور بالقوة والسلطة، إلا أنه كان يعلم جيداً أن مجيء نوفريت سيثير عاصفة لدى النساء خاصة في هذا المنزل، لكن جينيت امرأة مختلفة. إنها مخلوقة فريدة في إخلاصها، ولم تخيب أمله.

- إنها جميلة، جميلة جداً، وهي تليق بسيدنا إمحوتب. ماذا أقول أكثر من ذلك؟ ستكون زوجتك التي ماتت سعيدة لأنك اخترت مثل هذه الرفيقة كي تسعدك.

- أتظنين ذلك يا جينيت؟

- أنا واثقة من ذلك يا سيدي. لقد بقيت في الحداد سنوات طويلة وحان الوقت كي تستمتع بالحياة مرة أخرى.

- أنت كنت تعرفينها جيداً... أنا - أيضاً - شعرت أن الوقت قد حان لكي أعيش كما يجب للرجل أن يعيش، ولكن زوجات أبنائي وابنتي ربما يسوؤهن الأمر!

- ولماذا يغضبون وهم عالة عليك؟

- صحيح.

- أنت تطعمهم وتكسوهم، وأنت وراء كل مصالحهم.

تنهد إمحوتب وقال: أجل، إنني أكد وأعمل من أجلهم. أشك أحياناً أنهم يدركون ذلك.

أومأت جينيت برأسها وقالت: يجب أن تذكّرهم بذلك؛ فأنا خادمتك المخلصة جينيت لم أنسَ أبداً فضلك، ولكن أبناءك يبدون أحياناً طائشين وأنانيين ويظنون أنهم مهمون، ولا يدركون أنهم ينفذون التعليمات التي تعطيها أنت.

- هذا صحيح. لقد عرفت دائماً أنك مخلوقة ذكية.

- لو أن الآخرين يظنون ذلك أيضاً!

- ما هذا؟ هل عاملك أحدهم بسوء؟

- لا، لا، أعني... إنهم لا يصدقون ذلك، إنهم يأخذون عملي بلا توقف كأنه أمر مفروغ منه. وأنا سعيدة بعملي، ولكن كلمة محبة وتقدير تترك أثراً جميلاً.

- ستجدين مني ذلك دائماً، وتذكري أن هذا منزلك.

- أنت عطوف جداً يا سيدي. سيدي، إن الخدم جاهزون في الحمام مع الماء الحار، وعندما تستحم وترتدي ملابسك فإن أمك تطلب أن تذهب لرؤيتها.

- أمي؟ نعم، نعم، بالطبع.

بدا إمحوتب فجأة محرجاً قليلاً، وحاول إخفاء ارتباكه فقال سريعاً: بالطبع، كنت أنوي ذلك. أخبري إيزا أنني آتٍ.

-٢-

كانت إيزا ترتدي حلة حسنة من الكتان، ونظرت إلى ابنها قائلة بسخرية: مرحباً بك يا إمحوتب. إذن فقد عدت إلينا؟ ولم تعد وحيداً كما سمعت!

أجابها إمحوتب وهو ينهض بخجل: إذن فقد سمعت بالأمر؟

- نعم، فالمنزل يضج بالأخبار. الفتاة جميلة، هكذا يقولون، وصغيرة تماماً.

- إنها في التاسعة عشرة، وشكلها ليس سيئاً.

ضحكت إيزا ضحكة امرأة عجوز مناكدة، وقالت: ليس هناك أحمق من عجوز أحمق.

- أمي العزيزة، لا أفهم ما تقصدين.

أجابته إيزا بهدوء: كنت دوماً أحمق يا إمحوتب.

نهض إمحوتب يهمهم بغضب، فهو رغم ثقته بنفسه وأهميته فإن والدته تستطيع اختراق الدرع الذي أنشأه من احترام الذات. كان يشعر أنه يضمحل أمامها، وكانت نظرات السخرية المنبثقة من عينيها شبه المطفأتين قادرة على إرباكه دوماً.

لم يكن لينكر أن والدته لم تبالغ يوماً في حساب ما يتمتع به من إمكانيات، ومع أنه يعلم تماماً أن تقييمه لنفسه هو التقييم الصحيح وأن تقييم والدته لم يكن سوى خاصية لا أهمية لها من خواص الأمومة، مع ذلك كان موقفها قادراً دوماً على إفساد إعجابه السعيد بنفسه.

- هل من غير المألوف أن يُحضر الرجل جارية إلى بيته؟

- بل إنه مألوف تماماً، فالرجال عادة ما يكونون حمقى.

- لا أفهم ما وجه الحماقة في الأمر.

- ستسبب زوجتك مشكلات كثيرة في البيت، وأنت تعلم ذلك. ستحقد عليها ساتيبي وكيت، وربما يغضب أبناؤك ويحقدون عليها.

- وما شأن أولادي بي، ماذا يريدون مني؟ أليسوا عالة عليّ؟ ما الذي يعطيهم الحق في التدخل والاعتراض؟

- لا شيء.

بدأ إمحوتب بالتحرك جيئة وذهاباً وهو غاضب، ثم قال: أليسوا مدينين لي بالخبز الذي يأكلونه؟ ألا يعرفون ذلك؟

- أنت تحب أن تقول ذلك كثيراً يا إمحوتب.

- هذه هي الحقيقة، إنهم جميعاً يعتمدون عليّ، كلهم.

- أأنت متأكد أن هذا مناسب؟

- أتعنين أنه ليس مناسباً أن يعيل الرجل عائلته؟

تنهدت إيزا وقالت: تذكّر أنهم يعملون معك بجد وإخلاص.

- وتريدين مني تشجيعهم على الكسل والبطالة؟ من الطبيعي أن يعملوا!

- إنهم رجال ناضجون، يحموس وسوبك على الأقل.

- سوبك لا يستطيع الحكم والتقدير. إنه يفعل كل شيء بطريقة خاطئة، وهو وقح دائماً، وهذا ما لا أحتمله... لكن يحموس فتى مطيع طيب.

- إنه لم يعد فتى منذ وقت طويل.

- ولكنني أضطر أحياناً إلى تكرار الأمر مرتين أو ثلاثاً قبل أن

ينفذه ويفهمه! يجب أن أفكر في كل شيء وأتابع جميع الأعمال، وطوال فترة غيابي أملي على الورق وأكتب تعليمات كاملة لأبنائي لكي يستطيعوا تنفيذها... لا أستريح ولا أنام إلاّ قليلاً. وحين قررت أن أعود إلى المنزل وأنال بعض الراحة برزت لي مشكلة جديدة! حتى أنت يا أمي تنكرين عليّ حقي بالحصول على جارية مثل باقي الرجال وغضبت لأني فعلت ذلك.

- لست غاضبة، بل إن ذلك سيسليني! فسوف أتمتع كثيراً بمراقبة ما سيحدث من طرائف. ولكنني أقول إنه من الأفضل عندما تذهب إلى الشمال مرة أخرى أن تأخذ الفتاة معك.

- إن مكانها هنا، في منزلي، والويل لمن يجرؤ على إساءة معاملتها!

- المسألة ليست سوء معاملة، ولكن تذكّر أن من السهل إشعال النار في الأعشاب الجافة. لقد قيل عن النساء: «إن المكان الذي يضمهن ليس مكاناً جيداً»!

صمتت إيزا قليلاً ثم قالت بتأنٍّ: إن نوفريت جميلة، ولكن تذكّر ما يلي: إن أوصال النساء الجميلة تجعل من الرجال حمقى، وعجباً كيف يتحولون في طرفة عين إلى أحجار عقيق فقدت لونها.

ثم أصبح صوتها أكثر عمقاً وهي تقتبس: **في النهاية يأتي الموت، كهيئة الحلم، قليلاً، تافهاً!**

* * *

الفصل الرابع

الشهر الثالث من فصل الفيضان

اليوم الخامس عشر

-١-

استمع إمحوتب إلى تبرير سوبك لصفقة الخشب بصمت منذرٍ بالسوء، واحمرّ وجهه وجعلت العروق عند صدغيه تنبض بقوة. وعندما لاحظ سوبك تجهّم والده تلعثم وفقد ثقته بنفسه وتلاشت بسرعة اللامبالاة التي كان يتصف بها دائماً. وأخيراً قاطعه إمحوتب بنفاد صبر: أجل، أجل، تظن أنك تعرف أكثر مني ولم تنفذ تعليماتي؟ يجب أن أتابع كل شيء بنفسي!

وتنهد ثم قال: لا أعرف ماذا سيحل بكم بدوني أيها الأولاد.

تابع سوبك بعناد: كان ثمة فرصة لتحقيق ربح أكبر. صحيح أنني خاطرت قليلاً، ولكني لا أستطيع أن أظل دائماً حذراً تشغلني التوافه من الأمور.

- أنت متسرع يا سوبك وحكمك على الأمور خطأ دائماً.

- وهل أتيحت لي الفرصة لتجربة حكمي على الأمور؟ يجب أن أنال مثل هذه الفرصة.

- لقد فعلت ذلك هذه المرة وخالفت أوامري الواضحة.

- أوامرك؟ وهل أنا مضطر لتقبل الأوامر؟ إنني رجل ناضج.

صرخ إمحوتب وقد فقد أعصابه: من يطعمك ويكسوك؟ من يفكر في المستقبل؟ من يفكر دائماً في مصلحتك ومصلحة الجميع؟ حين كان مستوى النهر منخفضاً وكنا مهددين بالمجاعة ألم أتدبر الأمر وأرسلت الطعام إليكم في الجنوب؟ إنك محظوظ لأن لديك مثل هذا الأب. من يفكر في كل شيء؟ وماذا أطلب في المقابل؟ فقط أن تعملوا بجد، أن تبذلوا أقصى جهدكم وتطيعوا التعليمات التي أرسلها إليكم.

صرخ سوبك: أجل، يجب أن نعمل كالعبيد حتى تستطيع أن تشتري الذهب والجواهر لجاريتك!

تقدم إمحوتب نحوه صائحاً وهو يستشيط غضباً: أنت فتى وقح! كيف تجرؤ أن تتحدث مع والدك بهذه الطريقة؟ كن حذراً وإلاّ قلت بأن هذا لم يعد منزلك بعد الآن ولتذهب إلى مكان آخر.

- وإذا لم تحذر أنت فسأذهب فعلاً... إن لديّ أفكاراً حسنة تأتي إلينا بالثروة والثراء إذا لم أكن مقيداً بالحذر التافه وأُمنَع دائماً من التصرف كما أريد.

- هل انتهيت؟

كانت نبرة إمحوتب تنذر بالسوء، فهمس سوبك وقد انكمش: نعم، نعم؛ ليس لديّ ما أقوله الآن.

- إذن فاذهب للاعتناء بالقطيع، فلا مجال للكسل.

استدار سوبك وابتعد غاضباً ونوفريت تراقبه بسخرية، ثم ضحكت بصوت مسموع. وسمع سوبك ضحكتها فارتفع الدم في وجهه، وتقدم نحوها غاضباً فكفت عن الضحك وجعلت تنظر إليه باحتقار وعيناها شبه مغمضتين.

همس سوبك بشيء ما وتابع السير في اتجاهه السابق. وضحكت نوفريت مرة أخرى، ثم مشت ببطء إلى إمحوتب الذي كان يتحدث مع يحموس ويقول له: كيف تدع سوبك يتصرف بغباء؟ كان ينبغي أن تمنعه. ألا تعلم بعد مرور كل هذا الوقت أنه لا يستطيع التصرف بحكمة في البيع والشراء؟ يظن أن كل شيء سوف ينتهي كما يريد.

قال يحموس يعتذر: إنك لا تدرك الصعاب التي أواجهها يا والدي. لقد قلت لي بأن أعهد إلى سوبك ببيع الخشب، فكان من الضروري أن أدعه يقرر بنفسه.

- يقرر؟ إنه لا يستطيع الحكم والتقدير، يجب أن يفعل ما أملي عليه، وعليك أنت أن تتأكد أنه ينفذ ذلك.

احمرّ وجه يحموس خجلاً وقال: أنا؟ أية سلطة لديّ؟

- أية سلطة؟ السلطة التي أمنحك إياها.

- ولكن ليس لديّ سلطة قانونية حقاً، لو أنني كنت شريكك بشكل قانوني...

سكت حين جاءت نوفريت. كانت تتثاءب وتعبث بوشاح أحمر وقالت: ألا تأتي إلى المقصورة الصغيرة قرب البحيرة يا إمحوتب؟ الجو البارد والفاكهة تنتظرك. لا شك أنك فرغت من إملاء أوامرك الآن.

- سأحضر بعد قليل يا نوفريت، بعد قليل.

قالت نوفريت بصوت ناعم رقيق: تعال الآن... أريد أن تأتي الآن.

بدا إمحوتب سعيداً ومرتبكاً قليلاً، وتحدث يحموس بسرعة فسبق أباه: دعنا نبحث هذا الأمر أولاً؛ إنه مهم. أريد أن أسألك...

تحدثت نوفريت مباشرة إلى إمحوتب وقد أدارت ظهرها ليحموس: ألا تستطيع فعل ما تريد في منزلك؟

فقال إمحوتب ليحموس بحدة: في وقت آخر يا بني، في وقت آخر.

مضى مع نوفريت ووقف يحموس على الشرفة ينظر إليهما، وخرجت ساتيبي من المنزل فانضمت إليه وسألته بحماسة ولهفة: حسناً، هل تحدثت إليه؟ ماذا قال؟

تنهد يحموس قائلاً: لا تستعجلي يا ساتيبي، لم يكن الوقت ملائماً.

غضبت وقالت: كنت أعرف أنك ستقول هذا لأنك تقوله دائماً. الحقيقة أنك تخاف والدك! أنت جبان كالنعجة، أنت ضعيف أمامه ولن تقف في وجهه. ألا تذكر ما وعدتني؟ إنني أصلح لأن أكون رجلاً أكثر منك. ألم تقل بأنك ستتحدث مع والدك في هذا الشأن فور مجيئه؟ فما الذي حدث؟

ثم سكتت ساتيبي لتلتقط أنفاسها لا لأنها قد فرغت، لكن يحموس قاطعها قائلاً بهدوء: أنت مخطئة يا ساتيبي؛ لقد بدأت في الحديث ولكننا قوطعنا.

- قوطعتما؟ من فعل ذلك؟

- نوفريت.

- نوفريت؟ تلك المرأة! لا ينبغي لوالدك أن يدع جاريته تقاطعه عندما يتحدث في شؤون العمل مع ابنه الكبير. لا يحق للنساء أن يشغلن أنفسهن بالعمل.

تمنى يحموس أن تتقيد ساتيبي بهذه الوصية التي قالتها بعفوية، ولكن فرصة الحديث لم تتح له واندفعت زوجته تقول: كان يجب على والدك أن يوضح لها ذلك فوراً.

- والدي لم يُظهر علامات الاستياء.

- هذا مخجل ومشين. والدك يدعها تقول وتتصرف كما تريد كأنها سحرته!

تفكر يحموس وقال: إنها في غاية الجمال.

صاحت ساتيبي بحدة: آه! تبدو كذلك، لكنها سيئة السلوك والتربية، فهي لا تحترم منا أحداً.

- لعلك تعاملينها بفظاظة.

- أنا وكيت نعاملها بلباقة وأدب. آه، لن نبقي لها ما تذهب لتشكو منه لأبيك. بوسعنا انتظار فرصتنا أنا وكيت.

نظر يحموس إليها بحدة وقال: ماذا تعنين؟ تنتظرين فرصتك؟

ضحكت ساتيبي ضحكة ذات معنى وهي تبتعد: لن تفهم قصدي... لدينا نحن النساء أسلحتنا ووسائلنا الخاصة، من الأفضل لنوفريت أن تخفف من كبريائها، فما الذي تساويه حياة امرأة في النهاية؟ حياة تمضي في مؤخرة المنزل بين النساء الأخريات.

كان في نبرة كلامها مغزى خاص، وأضافت: والدك لن يبقى هنا دائماً؛ سوف يسافر ثانية إلى عزباته في الشمال، وعندها... سنرى.

- ساتيبي!

ضحكت ساتيبي ضحكة قوية عالية وعادت إلى البيت.

-٢-

كان الأطفال يركضون ويلعبون حول البحيرة: ابنا يحموس، وهما طفلان وسيمان يشبهان ساتيبي أكثر مما يشبهان والدهما، وأبناء

سوبك الثلاثة، وأصغرهم طفلة تحبو، وتيتي، ابنة رينيسنب الهادئة الوسيمة ذات الأعوام الأربعة.

ضحكوا ولعبوا وتراموا بالكرات، وبين الحين والآخر كان الشجار ينشب وتبرز صيحة طفل غاضبة عالية وحادة. وهمس إمحوتب الذي كان يأكل الفاكهة ونوفريت بجانبه: كم يحب الأطفال اللعب قريباً من الماء! لقد أحبوا دوماً كما أذكر. ولكن يا للضجة التي يصدرونها!

قالت نوفريت بسرعة: نعم، مع أن الجو هادئ جداً هنا. لِمَ لا تطلب منهم أن يذهبوا بعيداً عندما تكون هنا؟ فعندما يحضر السيد إلى المنزل يجب أن يجد الاحترام الملائم. ألا توافق؟ وعندما يستريح يجب أن يوفَّر له الجو الملائم.

تردد إمحوتب، فقد كانت الفكرة جديدة له، لكنها ممتعة. قال متلعثماً: حسناً... إنهم لا يزعجونني، لقد اعتادوا على اللعب هنا متى يشاؤون.

قالت نوفريت بسرعة: عندما تكون بعيداً، نعم، ولكنني أظن يا إمحوتب أن على أهل البيت تقديم المزيد من الاحترام الذي يكافئ أهميتك وما تبذله من أجلهم، إنك طيب رقيق.

تنهد إمحوتب بلطف وقال: هذه نقطة ضعفي دائماً... إني لا أصر على المظاهر الخارجية.

- ولذلك تستغل هاتان المرأتان، زوجتا ابنيك، عطفك. سأذهب لأخبر كيت أن تأخذ الأولاد بعيداً لتجد السلام والاطمئنان هنا.

- أنت ذكية وطيبة يا نوفريت وتحرصين على راحتي.

همست نوفريت: "سعادتك هي سعادتي"، ثم نهضت وذهبت إلى الساحة.

كانت كيت راكعة قرب الماء تلعب بلعبة على شكل سفينة، وكانت تساعد ابنها الثاني في تسييرها على الماء. قالت نوفريت بجفاء: هل يمكنك أخذ الأولاد بعيداً يا كيت؟

حدقت إليها كيت وهي تحاول أن تفهم كلامها وقالت: بعيداً؟ ماذا تعنين؟ هنا يلعبون دائماً.

- ليس الآن، فإمحوتب يريد الهدوء وأولادك مزعجون.

اندفعت الدماء إلى وجه كيت وقال: يجب أن تصلحي طريقة كلامك يا نوفريت. إمحوتب يحبّ أن يرى أحفاده يلعبون هنا، لقد قال ذلك.

- ليس اليوم، لقد أرسلني لكي أخبرك أن تأخذي أولئك الصغار المزعجين إلى المنزل حتى يستطيع الجلوس معي بهدوء.

- معك؟

سكتت كيت فجأة، لم تقل ما كانت تريده، ثم نهضت ومشت حيث كان إمحوتب مستلقياً وتبعتها نوفريت.

- تقول جاريتك إن عليّ أن آخذ أطفالي بعيداً من هنا، لماذا؟ ما الخطأ الذي ارتكبوه؟ لماذا يجب أن يبتعدوا؟

قالت لها نوفريت بلطف: أظن أن رغبة سيد المنزل تكفي.

قال إمحوتب بغضب: نعم، نعم، ولماذا يجب أن أقدم أسباباً؟ من صاحب هذا المنزل؟

- أظن أنها هي التي تريد إبعادهم.

التفتت كيت ونظرت إلى نوفريت من الأعلى إلى الأسفل. وقال إمحوتب: نوفريت تفكر في راحتي وسعادتي، لا أحد غيرها في هذا المنزل يفكر في ذلك إلاّ حينيت المسكينة.

- إذن فعلى الأطفال ألاّ يلعبوا هنا بعد الآن؟

- نعم، عندما أكون هنا للاستراحة.

اشتعلت كيت غضباً وقالت: لماذا تسمح لهذه المرأة بتحريضك ضد أبنائك؟ لماذا تتدخل في شؤون المنزل وفي عاداته؟

بدأ إمحوتب يصرخ فجأة. كان يشعر بالحاجة للدفاع عن نفسه: أنا الذي يقرر ماذا يجب فعله هنا لا أنت. إنكم تحاولون أن تفعلوا ما تريدون وترتبوا الأمور كلها كما يناسبكم، وحين آتي أنا، سيد المنزل، إلى المنزل فلا أحد يهتم بي. ولكنني السيد هنا، دعوني أخبركم بذلك. إنني أخطط وأعمل دائماً لمصلحتكم، فهل أحصل على العرفان؟ هل تُحترَم رغباتي؟ لا. أولاً: سوبك كان وقحاً ولم يحترمني، والآن أنت يا كيت تحاولين إرهابي. لماذا أنفق عليكم جميعاً؟ انتبهوا وإلاّ توقفت عن الإنفاق عليكم. سوبك يتحدث عن الرحيل، إذن فدعيه يذهب ويأخذك أنت وأطفالك معه.

وقفت كيت لحظة ساكتة. لم يكن على وجهها الرزين الصافي أي تعبير، ثم قالت بصوت لا عاطفة فيه: سوف آخذ الأطفال إلى المنزل.

ومشت بضع خطوات ثم توقفت قرب توفريت فقالت بصوت خفيض: هذا فعلك يا توفريت، ولن أنسى ذلك. نعم؛ لن أنساه.

* * *

الفصل الخامس

الشهر الخامس من فصل الفيضان

اليوم الخامس

-١-

تنهد إمحوتب برضا وارتياح بعد أن انتهى من واجباته الرسمية ككاهن للمقبرة. وقد تمّت مراعاة الطقوس حتى أدق التفاصيل؛ فقد كان إمحوتب رجلاً حي الضمير بكل معنى الكلمة، وكان قد صبّ شراب التضحية وأحرق البخور وقدم القرابين المعتادة من الطعام والشراب.

جلس في الغرفة الصخرية الباردة المجاورة مع حوري تاركاً شخصية الكاهن ليصبح إمحوتب مَلاّك الأراضي ورجل الأعمال. وبحث الرجلان معاً شؤون العمل والأسعار السائدة والأرباح الناتجة من المحاصيل والقطعان والخشب، وبعد نحو نصف ساعة أومأ إمحوتب برأسه راضياً وقال: إنك ناجح في إدارة العمل.

ابتسم الرجل الآخر وقال: يجب أن أكون كذلك يا إمحوتب؛ إنني المسؤول عن أعمالك منذ سنوات عدة.

- وأنت مخلص أيضاً. هناك أمر أريد مناقشته معك يتعلق بآيبي، فهو يتذمر لأن موقعه ثانوي.

- ولكنه ما زال صغيراً.

- إنه يظهر مقدرة عظيمة ويشعر بأن أخويه ليسا منصفَين بحقه دائماً. سوبك قاسٍ وغير محتمل على ما يبدو، وحذر يحموس وخوفه الدائمان يضايقانه. إن آيبي جريء شجاع ولا يحب تلقي الأوامر، وهو يقول إنني أنا فقط، والده، الذي له الحق في الأمر.

- هذا صحيح؛ هذا الأمر نقطة ضعف في المزرعة هنا. هل أستطيع الحديث بحرية؟

- نعم أيها العزيز حوري؛ إنك حكيم ومخلص.

- عندما تكون غائباً يجب أن يكون هنا شخص له سلطة حقيقية.

- إنني أعهد بأعمالي إليك وإلى يحموس.

- أعلم أننا نتصرف بالنيابة عنك في غيابك، ولكن هذا لا يكفي. لِمَ لا تعيّن أحد أبنائك شريكاً بصك قانوني؟

أخذ إمحوتب يروح جيئةً وذهاباً متجهماً، ثم قال: مَن تقترح من أبنائي؟ سوبك قوي ولكنه متمرد، لا أستطيع الثقة به لأنه متهور، ويحموس مطيع وثقة لكنه ضعيف، وآيبي صغير.

- يحموس ابنك الأكبر وتصرفاته موزونة، وهو مطيع محب.

- سلوكه جيد لكنه جبان، خنوع يخضع للجميع. أتمنى لو كان آيبي أكبر قليلاً!

قال حوري بسرعة: من الخطورة أن تسلم السلطة لفتى صغير.

- صحيح، صحيح. حسناً حوري، سأفكر فيما قلته. يحموس ابن جيد ومطيع بالتأكيد.

قال حوري برقة: أظن أنك سوف تكون حكيماً.

نظر إمحوتب إليه بفضول وقال: فيمَ تفكر يا حوري؟

- لقد قلت الآن إن من الخطورة تسليم القوة والسلطة للرجل عندما يكون صغيراً، ولكن من الخطر أيضاً أن تسلمه إياها متأخراً.

- أتعني أنه أصبح معتاداً على إطاعة الأوامر لا على إعطائها؟ حسناً، ربما كان في ذلك بعض الحكمة.

وتنهد إمحوتب ثم أكمل قائلاً: إنها مهمة صعبة أن تقود عائلة مثل هذه! ساتيبي قوية تصعب السيطرة عليها، وكيت كئيبة ومتجهمة. لقد طلبت منهم أن يعاملوا نوفريت معاملة جيدة، يمكنني القول...

قاطعه عبد قادم يلهث فسأله: ما الأمر؟

- سيدي، لقد وصل مركب عليه أحد الكتّاب ويدعى كاميني، وهو يحمل رسالة من ممفيس.

نهض إمحوتب بعجلة وقال: مزيد من المتاعب... أنا متأكد من

ذلك! إن لم أكن موجوداً لأهتم بكل شيء فكل شيء يسير خطأ!

مشى خارجاً عبر الممر، وجلس حوري بهدوء يتبعه بنظراته وعلى وجهه علامات الاستياء والقلق.

-٢-

كانت رينيسنب تتجول بلا هدف على ضفاف النيل عندما سمعت صراخاً وجلبة ورأت أناساً يركضون إلى المرسى، فركضت وانضمت إليهم. كان على القارب الذي سُحب إلى الشاطئ شاب، وحين رأت تقاسيم جسمه والضوء الساطع ينعكس عليه توقف قلبها عن الخفقان وخطرت لها فكرة مجنونة فقالت لنفسها: إنه خاي... لقد عاد خاي من العالم السفلي!

ثم سخرت من نفسها وخيالها، ولكنها وقعت في هذا الوهم لأن ذاكرتها كانت دوماً تفكر في خاي وهو يبحر على النيل. وهذا الشاب على هيئة خاي، جماله مريح وهادئ ووجهه وسيم!

قال الفتى إنه قادم من ممفيس في الشمال ويعمل كاتباً في أملاك إمحوتب واسمه كاميني، فأرسل أحد العبيد ليدعو والدها وأُخذ كاميني إلى المنزل حيث قُدّم له الطعام والشراب.

ثم وصل والدها ودار الكثير من التشاور والكلام، وتسرب ملخص ذلك الحديث إلى أجنحة النساء بسرعة عن طريق حينيت، وتساءلت رينيسنب: كيف تستطيع حينيت أن تعلم كل شيء؟ فبعد

فترة قصيرة من وصول كاميني كان النساء يتداولن تقريرها!

كان كاميني كاتباً شاباً يعمل في خدمة إمحوتب، وهو أحد أبناء عمومته، وقد كشف تزويراً في الحسابات. وبما أنه كان لهذا الأمر مضاعفات عديدة تتعلق بوكلاء الممتلكات فقد قرر أن من الأفضل أن يحضر شخصياً إلى الجنوب ويخبر السيد.

لم تكن رينيسنب مهتمة كثيراً، وخمنت أن من ذكاء كاميني أن يكشف ذلك كله وأن والدها سوف يكون مسروراً منه.

وكانت النتيجة المباشرة لهذه القضية أن إمحوتب أعد ترتيبات سريعة للمغادرة. ولم يكن من قبل ينوي المغادرة قبل شهرين، فتمت دعوة أفراد المنزل كافة وصدرت قائمة طويلة من التوصيات والأوامر: يجب فعل هذا وذاك... لا يجب على يحموس أن يفعل هذا الأمر أو ذاك... وعلى سوبك أن يمارس أقصى درجات السرية على أمر آخر.

كان الأمر كله مألوفاً كما رأته رينيسنب، وكان يحموس متنبهاً وسوبك متجهماً، أما حوري فكان هادئاً كفوءاً كعادته. ووُضعت مطالب آيبي وإلحاحه جانباً بحدة أكثر من المعتاد: أنت أصغر من أن يكون لك دخل خاص بك. أطع يحموس؛ إنه يعرف رغباتي وأوامري (ووضع إمحوتب يده على كتف ابنه الأكبر) إنني أثق بك يا يحموس. عندما أعود سوف نتحدث مرة أخرى في الشراكة.

احمرّ وجه يحموس بسرعة مبتهجاً وانتصب قليلاً، وأكمل إمحوتب قائلاً: تأكد أن الأمور تسير على ما يرام في غيابي، وتذكر أن جاريتي يجب أن تعامَل باحترام وتقدير. إنها تحت رعايتك، وعليك

التحكم في تصرفات النساء في المنزل. وأكد على ساتيبي أن تكبح لسانها وسوبك أن يأمر زوجته كما ينبغي، وربنيستب أيضاً، يجب أن تعامل نوفريت بلباقة. ولا أسمح بأية قسوة ضد حينيت العزيزة. أعلم أن النساء يجدنها مملة أحياناً ولكنها تعمل هنا منذ فترة طويلة وتظن أن لها الحق في قول أشياء عديدة لا ترضونها أحياناً، وأعلم أنها لا تملك الجمال أو الذكاء لكنها مخلصة. تذكروا ذلك، لن أسمح بتحقيرها وإساءة معاملتها.

قال يحموس: كل شيء سيسير حسب رغبتك، ولكن حينيت ربما تسبب المشكلات بلسانها أحياناً.

- هراء، كل النساء يفعلن كذلك، وحينيت لا تختلف عنهن. كاميني سوف يبقى هنا، فنحن نحتاج إلى كاتب آخر هنا ليساعد حوري. أما تلك الأرض التي أجرناها لتلك السيدة ياي...

وانتقل إمحوتب إلى تفصيلات أخرى غير مهمة. وعندما أعدّ كل شيء لرحيله شعر إمحوتب بالغثيان وأخذ نوفريت جانباً فقال في شك: نوفريت، هل أنت راضية بالبقاء هنا؟ ألم يكن من الأفضل أن تأتي معي؟

فهزّت نوفريت رأسها وابتسمت قائلة: أنت لن تغيب طويلاً.

- ثلاثة أشهر، ربما أربعة... من يعلم؟

- أرأيت؟ لن يكون الوقت طويلاً. سوف أكون راضية هنا.

قال إمحوتب باهتمام: لقد أمرت يحموس وكل أبنائي أن

يقدموا لك كل الرعاية والاهتمام، وسوف يعاقبون عقاباً شديداً إن تذمرت من أمر ما.

- سوف يفعلون ما تقول، أنا واثقة من ذلك يا إمحوتب.

وسكتت نوفريت ثم قالت: بمن يمكنني أن أثق تماماً؟ أريد شخصاً مخلصاً حقاً لرغبتك ومصلحتك. لا أعني أحداً من أفراد العائلة.

- حوري، حوري العزيز. إنه ساعدي الأيمن في كل شيء، وهو رجل عاقل يحسن تمييز الأمور.

قالت نوفريت ببطء: إنه ويحموس كالإخوة، وربما...

- هناك كاميني. إنه كاتب أيضاً، وسوف آمره بأن يضع نفسه تحت خدمتك، فإن كان لديك ما تتذمرين منه فسوف يكتب شكواك ويرسلها إليّ.

أومأت نوفريت برضا: هذه فكرة جيدة. لقد جاء كاميني من الشمال، وهو يعرف والدي ولن يتأثر بالاعتبارات العائلية هنا.

- وحينيت، هناك حينيت.

- أجل، حينيت. ما رأيك في الحديث إليها الآن أمامي؟

- خطة ممتازة.

دُعيت حينيت فجاءت متذللة كعادتها وأظهرت حزناً كبيراً على مغادرة سيدها، فقاطعها إمحوتب بعجلة: أجل، أجل يا عزيزتي حينيت، ولكن هذه الأمور تحدث وقلّما أخلد إلى الهدوء والراحة،

يجب أن أكدح بلا توقف من أجل عائلتي رغم أنهم أحياناً لا يقدّرون ذلك. الآن أريد التحدث إليك في أمر مهم: أنا أعلم أنك تحبينني بإخلاص، لذلك يمكنني الوثوق بك؛ احرسي نوفريت، إنها عزيزة على قلبي.

قالت حينيت بحماسة: كل عزيز عليك عزيز عليّ يا سيدي.

- جيد، إذن فسوف تكرسين جهدك في رعاية شؤون نوفريت؟

التفتت حينيت إلى نوفريت التي كانت تراقبها من وراء جفنين مغمضين وقالت: أنت جميلة جداً يا نوفريت، هذه هي المشكلة! لذلك يغار الآخرون، ولكنني سوف أعتني بك، سوف أحذرك من كل ما يقولون ويفعلون، فلتعتمدي عليّ.

وكانت لحظة صمت فيما التقت نظرة المرأتين، ثم كررت حينيت: فلتعتمدي عليّ.

فابتسمت نوفريت ابتسامة بطيئة غريبة وقالت: نعم؛ إنني أفهمك يا حينيت. أظن أنني أستطيع الاعتماد عليك.

تنحنح إمحوتب بصوت عالٍ وقال: إذن فالأمور كلها معدّة. أجل، كل شيء على ما يرام، التنظيم هو دائماً منهجي وسبب نجاحي.

وسُمعت ضحكة جافة حادة فالتفت إمحوتب فوراً ليرى أمه تقف عند مدخل الغرفة. كانت تستند على عصا وبدت أكثر جفاءً وحقداً من أي وقت مضى.

- لديّ ابن رائع!

- يجب ألاّ أتأخر، هناك بعض التعليمات لحوري.

أسرع إمحوتب خارجاً وهو يهمس ويجتنب نظرات أمه، وأومأت إيزا بتعجرف إلى حينيت فانسحبت حينيت بخضوع من الغرفة. نهضت نوفريت ووقفت هي وإيزا تنظران كل واحدة إلى الأخرى، ثم قالت إيزا: إذن فإن ابني سيدعك هنا؟ كان من الأفضل أن تذهبي معه يا نوفريت.

- إنه يريد مني البقاء هنا.

كان صوت نوفريت رقيقاً وخنوعاً، فأطلقت إيزا ضحكة حادة وقالت: أنت لا تريدين الذهاب، لماذا؟ إنني لا أفهمك. ماذا لديك هنا؟ أنت فتاة عاشت في المدن، وربما تنقلت وسافرت، فلماذا تختارين حياة رتيبة مع أولئك الذين لا يحبونك بل يكرهونك؟ وأرجو أن تقبلي صراحتي.

- إذن فأنت تكرهينني؟

هزت إيزا رأسها بالنفي قائلة: لا، أنا لا أكرهك. أنا عجوز لا أرى بوضوح، ولكنني قادرة على رؤية الجمال والاستمتاع به. إنك جميلة يا نوفريت، وبسبب جمالك هذا فإني أتمنى لك الخير. إنني أحذرك: اذهبي إلى الشمال مع ابني!

كررت نوفريت مرة أخرى: إنه يريد مني البقاء هنا.

كانت نبرة الخضوع زاخرة بالسخرية في هذه المرة، فقالت

إيزا بحدة: إن لديك هدفاً من بقائك هنا، وإني لأتساءل عن هذا الهدف... حسناً، فلتتحملي مسؤولية قرارك إذن، ولكن احذري وتصرفي بحكمة ولا تثقي بأحد.

مشت بسرعة وخرجت، ووقفت نوفريت بهدوء وصمت، وببطء تقوست شفتاها إلى الأعلى في ابتسامة واسعة مثل القطة.

* * *

الفصل السادس
الشهر الأول من فصل الشتاء
اليوم الرابع

-١-

اعتادت رينيسنب على الذهاب إلى الضريح يومياً تقريباً. كانت تجد هناك يحموس وحوري أحياناً، وأحياناً حوري بمفرده، وأحياناً لم تكن تجد أحداً. ولكنها كانت تحس دائماً بأمن وراحة غريبين، لعله شعور بالهروب.

كانت ترتاح أكثر عندما تجد حوري بمفرده، فقد كان في وقاره وفي قبوله الطبيعي لحضورها شيء ما يبعث في نفسها شعوراً بالقناعة والرضا. كانت تجلس في ظل الغرفة الحجرية رافعة إحدى ركبتيها وممسكة إياها براحتيها، متأملة في الحزام النباتي الأخضر يحيط بزرقة النيل الباهتة، ومن خلف ذلك كله أبعاد يختلط فيها الأصفر والبني والأحمر في مزيج لوني سديمي.

لقد جاءت هنا أول مرة -قبل عدة أشهر- بسبب رغبة مفاجئة

في الهروب من عالم شديد الأنثوية. كانت تريد الهدوء والرفقة، وقد عثرت عليهما هنا. الرغبة في الهروب ما زالت تلازمها، لكنها لم تعد مجرد رد فعل لضغط الحياة العائلية، بل هناك شيء أكثر تحديداً وأكثر إثارة للقلق.

قالت رينيسنب لحوري ذات يوم: إنني خائفة!

فقال وهو يتمعن فيها بجدية: ما الذي يخيفك يا رينيسنب؟

أخذت رينيسنب بضع دقائق للتفكير، ثم قالت بتأنٍّ: هل تذكر أنك أخبرتني ذات مرة بأن الشر نوعان، أحدهما يأتي من الخارج والآخر من الداخل؟

- نعم، أذكر.

- وأخبرتني لاحقاً أنك كنت تتحدث عن الأمراض التي تهاجم الفواكه والمحاصيل، لكنني كنت أفكر طول هذه الفترة أن ذلك ينطبق على الناس.

أومأ حوري ببطء موافقاً على كلامها: إذن فقد توصلتِ إلى ذلك؟ أجل، إنك على حق يا رينيسنب.

قالت رينيسنب بسرعة: إن ذلك يحدث الآن... هناك في المنزل. لقد أتى الشر من الخارج! وأنا أعلم مَن أتى به، إنه نوفريت.

- أتظنين ذلك؟

أومأت رينيسنب بحدة قائلة: نعم، نعم، إنني أعلم ما أقوله. استمع يا حوري، عندما صعدت إليك هنا وقلت بأن كل شيء كان

مثلما كان في السابق حتى شجار ساتيبي وكيت كان ذلك صحيحاً. ولكن تلك المشاجرات لم تكن مشاجرات حقيقية يا حوري... أعني أن ساتيبي وكيت كانتا تستمتعان بها، كانت تساعد في مرور الوقت ولم تشعر أي منهما بغضب حقيقي على الأخرى. لكن المسائل تختلف الآن؛ إنهما تقولان أشياء بقصد الإيذاء، وعندما تحقق أقوالهما قصدها في الإيذاء فإنهما تفرحان بذلك! إن ذلك فظيع يا حوري... فظيع! كانت ساتيبي أمس غاضبة جداً فأدخلت دبوساً ذهبياً طويلاً في يد كيت، وقبل يوم أو يومين ألقت كيت بوعاء ثقيل من النحاس مليء بالدهن المغلي على قدم ساتيبي، وهذا هو الحال في كل مكان: ساتيبي تلوم يحموس وتتشاجر معه حتى ساعة متأخرة من الليل، ونحن جميعاً نسمعها، ويحموس يبدو مريضاً متعباً ومطارَداً. وسوبك يذهب إلى القرية فيمضي الوقت هناك ثم يعود ثملاً ويصرخ ويفاخر بذكائه!

- أنا أعلم أن بعض هذه الأمور صحيح، ولكن لماذا تلومين نوفريت؟

- لأن كل ذلك من فعلها هي؛ إذ تبدأ المشكلات دائماً بتأثير الأشياء التي تقولها، أشياء صغيرة ذكية تشعل فتيل الخلاف... إنها تشبه ذلك المهماز الذي يوخَز به الثور. وهي ذكية أيضاً في معرفة ما ينبغي قوله، وأظن أحياناً أن حنيت هي التي تخبرها.

فكر حوري: ربما، نعم.

ارتجفت رينيسنب وقالت: أنا لا أحب حنيت؛ أكره تسللها وتنصتها! إنها مخلصة لنا جميعاً لكن أحداً لا يريد إخلاصها هذا.

كيف استطاعت أمي أن تحضرها إلى هنا وتحبها كثيراً؟

- ليس عندنا ما يثبت ذلك سوى ما تقوله حينيت.

- لماذا تحب حينيت نوفريت وتلاحقها دائماً وتهمس لها وتتذلل؟ آه يا حوري! أقول لك إنني خائفة... إنني أكره نوفريت وأتمنى أن تذهب هذه الجميلة القاسية السيئة بعيداً!

- يا لك من طفلة يا رينيسنب! ها هي نوفريت قادمة.

التفتت رينيسنب، وراقبا معاً نوفريت وهي تصعد الممر الحاد المؤدي إلى قمة الجرف سعيدة تترنم بلحن بصوت خافت. وعندما وصلت حيث كانا نظرت حولها وابتسمت ابتسامة تنم عن الفضول والسرور: إذن فهذا هو المكان الذي تتسلّين إليه كل يوم يا رينيسنب؟

لم تجبها رينيسنب. كان يعتريها ذلك الشعور الغاضب المحبط الذي يعتري طفلة اكتُشف مخبؤها، ونظرت نوفريت حولها مرة أخرى قائلة: وهذا هو الضريح المشهور؟

قال حوري: نعم، هذا هو.

نظرت إليه وقد التوت شفتاها التواءهما القططي وهما تفتران عن ابتسامة، ثم قالت: لا أشك أنك تجد عملك مربحاً يا حوري، فأنت رجل أعمال ناجح كما سمعت.

كانت في صوتها مسحة حقد، ولكن حوري بقي ساكناً يبتسم

ابتسامة هادئة ووقورة وقال: إنه مربح لنا جميعاً، فالموت تجارة رابحة دائماً.

ارتجفت نوفريت ونظرت حولها وعيناها تجوبان موائد القرابين ومدخل الضريح والباب الجانبي، ثم صرخت بحدة: إنني أكره الموت!

أجابها حوري بهدوء: يجب ألاّ تكرهيه لأنه مصدر الثروة هنا في مصر؛ فالجواهر التي تلبسينها وطعامك وكساؤك، كل هذه يقدمها الموت.

حدقت إليه وقالت: ماذا تعني؟

- أعني أن إمحوتب هو كاهن هذا القبر، وكل أراضيه وقطعانه وأخشابه والكتان والشعير هي أوقاف الضريح. نحن المصريين شعب غريب المعتقدات؛ لأننا نحب الحياة نخطط للموت مبكراً. هذا الذي تذهب إليه ثروة مصر: الأهرامات، والقبور، وأوقاف القبور!

هتفت نوفريت بعنف: هلاّ توقفت عن ذكر الموت يا حوري؟ إنني لا أحب ذلك.

- لأنك مصرية حقة تحبين الحياة، لأنك -أحياناً- تشعرين بظل الموت قريباً جداً...

- كفّ عن ذلك.

والتفتت إليه بعنف، ثم هزت كتفيها وولّت بعيداً وبدأت تنزل عبر الممر.

تنهدت رينيسنب بارتياح وقالت ببراءة طفولية: أنا سعيدة لأنها ذهبت، لقد أخفتها يا حوري.

- نعم، وهل أخفتك يا رينيسنب؟

- لا.

بدت رينيسنب غيرَ واثقة قليلاً، ثم قالت: إن ما قلته صحيح، ولكنني لم أفكر فيه بهذه الطريقة من قبل. إن والدي كاهن بالفعل.

قال حوري بمرارة مفاجئة: مصر كلها قد استحوذ عليها الموت، أتعلمين لماذا يا رينيسنب؟ لأننا ننظر بعيوننا لا بعقولنا وبصائرنا، لا نفكر في حياة أخرى بعد الموت. يمكننا فقط تصور استمرار ما نعرفه، ليس لدينا إيمان حقيقي بالله!

- أنت تقول أشياء غريبة! لا أستطيع فهمك.

نظرت إليه بحيرة، ثم نظرت إلى الوادي فلفت انتباهها أمر آخر، هتفت: انظر، إن نوفريت تتحدث إلى سوبك وتضحك... آه! (وشهقت فجأة) لا، لا شيء. لقد ظننته ينوي ضربها، إنها تعود إلى المنزل وهو يصعد هنا.

وصل سوبك وهو في غاية الغضب، وصرخ: أتمنى لو أن تمساحاً يلتهم هذه المرأة! لقد كان والدي غبياً حين اتخذها جارية له.

سأله حوري بفضول: ماذا قالت لك؟

- أهانتني كعادتها، سألتني إن كان والدي قد عهد إليّ ببيع

مزيد من الخشب! إن فمها يلسع كالأفعى... أودّ أن أقتلها!

ابتعد عن المنصة ورفع حجراً فرماه إلى أسفل الوادي، وكأنه يستمتع بصوت ارتطامه بالصخور. ثم رفع حجراً آخر أكبر منه، ثم قفز متراجعاً إلى الخلف إذ رأى أفعى كانت ملتفّة تحت الحجر وقد رفعت رأسها وتراجعت وهي تفح، وأدركت رينيسنب أنها أفعى كوبرا.

هاجمها سوبك بعصا غليظة التقطها وبدأ يضربها بغضب حتى أصابتها ضربة كسرت ظهرها، ولكن سوبك استمر بالضرب وعيناه تلتمعان وهو يهمهم بكلمة لم تكد رينيسنب تسمعها، ثم صاحت به: توقف يا سوبك، توقف، إنها ميتة.

توقف سوبك ثم رمى بالعصا بعيداً، وضحك قائلاً: لقد نقص العالم أفعى سامة!

وضحك مرة أخرى وقد استعاد مزاجه الرائق، ثم ذهب بعيداً فقالت رينيسنب تناجي حوري: أعتقد أن سوبك يحب قتل الأشياء.

- أجل.

لم يظهر حوري دهشة لقولها، فهو يعرف هذا من قبل. والتفتت رينيسنب إليه فقالت له وهي تتأمل جسم الكوبرا الملتوي الناعم: إن الأفاعي خطيرة، ولكن ما كان أجمل تلك الكوبرا!

ونظرت إلى الأسفل حيث جسدها الممزق، ولسبب غير معروف شعرت بغصة في قلبها. قال حوري بصوت كالحلم: أذكر

عندما كنا أطفالاً أن سوبك هاجم بحموس. كان بحموس يكبره بعام ولكن سوبك كان أضخم وأقوى، فضرب رأس بحموس بالحجر، وجاءت أمك بسرعة ففرقت بينهما. أذكر كيف وقفت تنظر إلى بحموس وكيف صرخت: "يجب ألاّ تفعل أشياء مثل هذه يا سوبك، إنها خطيرة. أقول لك إنها خطيرة".

وتوقف قليلاً ثم قال: كنت أرى أمك في طفولتي جميلة جداً... وأنت تشبهينها يا رينيسنب.

شعرت رينيسنب بالسرور وقالت: أأنا كذلك؟ قل لي: وهل أصاب بحموس سوء؟

- لا، لم يكن الأمر سيئاً كما يبدو. وقد مرض سوبك تماماً في اليوم التالي واعتقدنا أن ذلك من شيء أكله، ولكن أمك قالت إنه مرض بسبب غضبه وضربة الشمس الحارقة... كان ذلك في منتصف الصيف.

تفكرت رينيسنب ثم قالت: سوبك مزاجه سيئ!

نظرت مرة أخرى إلى الأفعى الميتة، ثم استدارت وقد ارتعش جسمها.

-٢-

عندما رجعت رينيسنب إلى المنزل كان كاميني يجلس على الشرفة الأمامية ومعه لفافة بردي يغني، فتوقفت قليلاً وأنصتت إلى كلماته:

سوف أذهب إلى ممفيس وأدعو بتاح إله الحق، وأقول له:

أعطني حبيبتي فتمضي مع الجدول وأزهار اللوتس،
أعطني حبيبتي التي يخترق الفجر جمالها،
وممفيس تفاحة حب أمام وجهها الشاحب،
غابة أزهار وبراعم ضياء.

ثم نظر إلى رينيسنب مبتسماً وقال: أتحبين أغنيتي يا رينيسنب؟ إنها أغنية حب من ممفيس.

ثم غنى بلطف وعيناه عالقتان بها:

يداها ممتلئتان بأغصان البرسي،
وشعرها مسترسل إلى الأسفل مغسول بالمراهم،
إنها مثل أميرة سيد الأرضين.

تصاعدت الدماء إلى وجه رينيسنب فدخلت بسرعة إلى المنزل، وكادت ترتطم بنوفريت التي هتفت: لماذا العجلة يا رينيسنب؟

كانت في صوت نوفريت حدة ماضية، فنظرت إليها رينيسنب بدهشة. لم تكن نوفريت تبتسم بل كان وجهها متجهماً وقلقاً، ولاحظت رينيسنب أن يديها كانتا مطبقتين على خصرها.

- أنا آسفة يا نوفريت، لم أرك. المكان مظلم هنا عندما تأتين من ضوء النهار في الخارج.

- فعلاً، المكان مظلم هنا... ستكون الحال ألطف في الخارج،

على الشرفة مع غناء كاميني. إن صوته جميل، أليس كذلك؟

- بلى، بلى؛ إن صوته جميل بالفعل.

- ومع ذلك لم تبقي لتستمعي له؟ سيشعر كاميني بخيبة الأمل.

شعرت رينيسنب بحرارة خديها، فقد أزعجتها نظرة رينيسنب الباردة الساخرة. قالت نوفريت: ألا تحبين الأغاني العاطفية يا رينيسنب؟

- وهل يهمك ما أحبه وما أكرهه يا نوفريت؟

- وهكذا يبدو أن للقطط الصغيرة مخالب أيضاً.

- ماذا تقصدين؟

ضحكت نوفريت وقالت: لستِ غبية كما تبدين يا رينيسنب. إذن فأنت ترين أن كاميني وسيم؟ سيسره ذلك حتماً.

غضبت رينيسنب وقالت: أنت بغيضة تماماً.

وتركتها مسرعة إلى المنزل، وسمعت ضحكة الفتاة الساخرة لكنها كانت تسمع صدى صوت كاميني من خلال هذه الضحكة والأغنية التي غناها وهو ينظر إلى وجهها.

-٣-

في تلك الليلة رأت رينيسنب حلماً: كانت مع خاي في قارب الموتى في العالم السفلي يسيران معاً نحو شروق الشمس، وكانت

ترى قفا رأسه لأنه كان في مقدمة القارب وهي خلفه. وعندما التفت لكي يتحدث إليها لم يكن خاي بل كاميني! في الوقت نفسه بدأت مقدمة القارب البارزة على شكل رأس أفعى تتلوّى، إذ أصبحت أفعى حقيقية، بل كوبرا حقيقية. وفكرت رينيسنب أن هذه هي الأفعى التي تخرج من القبور لتأكل أرواح الموتى.

شلها الخوف، ثم لاحظت أن وجه الأفعى هو وجه نوفريت! واستيقظت وهي تصرخ: نوفريت... نوفريت!

استيقظت فَزِعة ينبض قلبها بتسارع كبير ويكاد يقفز من صدرها.

لم تصرخ في الحقيقة، بل صرخت في الحلم فقط، ثم تذكرت فجأة أن سوبك كان يهمس وهو يقتل الأفعى أمس: نوفريت... نوفريت!

* * *

الفصل السابع

الشهر الأول من فصل الشتاء

اليوم الخامس

-١-

حلم رينيسنب تركها مستيقظة، ثم نامت نوماً متقطعاً. ومع اقتراب الصباح لم تستطع النوم، فقد تملكها شعور غامض باقتراب شرٍّ داهم.

نهضت باكراً وخرجت من المنزل، وقادتها قدماها - كما كانتا تفعلان دوماً - إلى النيل. كان يضج بحركة الصيادين وقد خرجوا يركبون قواربهم ويجدفون بقوة تجاه «طيبة»، وقوارب أخرى بأشرعة تنتفخ من هبات الرياح تستعد للسفر إلى الشمال... شيء ما يجول في خاطرها ويهز مشاعرها، لكنها لا تعرف ما هو بالتحديد؟

لم تستطع العثور على كلمة تعبر عن وصف شعورها. قالت لنفسها: أريد، ولكن ماذا أريد؟

هل كانت تريد خاي؟ خاي ميت ولن يعود! قالت لنفسها: لن أفكر في خاي بعد الآن، ولا فائدة من التفكير.

ولاحظت أن ثمة شخصاً آخر يراقب القوارب المتجهة إلى طيبة. وكان هناك شيء في صورة ذلك الشخص، في الشعور الذي عبر عنه بمجرد وقوفه ثابتاً دون حراك. كان هناك شيء في كل ذلك هزّ مشاعر رينيسنب حتى عندما أدركت أن ذلك الشخص لم يكن سوى نوفريت.

نوفريت تحدق إلى النيل، نوفريت بمفردها، نوفريت تفكر في... ماذا؟

وأدركت رينيسنب فجأة، وبدهشة بسيطة، أنها لا تعلم عن نوفريت سوى القليل. لقد تعاملوا معها على أنها عدوة وغريبة، لا يعلمون شيئاً عن حياتها أو البيئة التي أتت منها. وأدركت رينيسنب - فجأة - أن نوفريت لا بد أن تكون حزينة وحدها هنا دون أصدقاء ويحيط بها أشخاص يكرهونها.

مشت ببطء حتى أصبحت بجانب نوفريت، فأدارت هذه رأسها لحظة ثم عادت تتأمل النيل مرة أخرى. كان وجهها خالياً من التعبير، فقالت رينيسنب بخوف: ثمة قوارب عدة في النهر.

- أجل.

تابعت رينيسنب وقد استجابت لرغبة غامضة تدفعها للألفة: هل يختلف هذا المكان عن المكان الذي أتيتِ منه؟

ضحكت نوفريت ضحكة قصيرة فيها مرارة وقالت: نعم،

بالتأكيد. والدي تاجر في ممفيس، والجو هناك حافل بالتسلية والمرح ووالدي يسافر كثيراً. لقد ذهبت معه إلى سورية وبيبلوس... لقد كنت معه على سفينة كبيرة في عمق البحار.

كانت نوفريت تتحدث بفخر وحيوية، ووقفت رينيسنب ساكتة وعقلها يعمل ببطء لكنْ باهتمام وتفهّم متزايدَين، وقالت: لا بد أن المكان هنا ممل لك؟

ضحكت نوفريت وقالت بنفاد صبر: المكان هنا ميت... ميت! لا شيء سوى الحراثة والبذار والحصاد والرعي، والحديث عن المحاصيل والجدال على أسعار الكتان.

كانت رينيسنب تصارع أفكاراً غريبة وهي تراقب نوفريت من الجنب، وفجأة انبعثت موجة من الغضب والأسى واليأس من الفتاة الواقفة بجوارها. قالت رينيسنب في نفسها: إنها صغيرة مثلي، بل هي أصغر، وهي جارية ذلك العجوز المتأنق السخيف رغم لطفه الذي هو والدي!

ماذا تعرف رينيسنب عن نوفريت؟ لا شيء قط. ما الذي قاله حوري أمس عندما صرختْ: إنها جميلة وقاسية وسيئة؟... "إنك طفلة يا رينيسنب"، هذا ما قاله. عرفت رينيسنب الآن ماذا كان يقصد، فكلماتها تلك لم تكن تعني شيئاً؛ إذ لا يمكن للمرء أن يشطب إنساناً بهذه السهولة. أي أسف، وأية مرارة، وأي يأس يكمن خلف ابتسامة نوفريت القاسية؟ ثم ما الذي فعلته رينيسنب، وما الذي فعله الآخرون ليُشعروا نوفريت بالحفاوة والقبول؟

قالت رينيسنب مرتبكة كأنها طفلة: أنت تكرهيننا جميعاً، أنا

أعرف السبب. لم نكن لطفاء... لكن الوقت ليس متأخراً لنستدرك. ألا يمكنني -أنا وأنت يا نوفريت- أن نكون أختين؟ أنت بعيدة عن كل من تعرفين، أنت وحيدة، ألا أستطيع المساعدة؟

ترددت الكلمات في الفضاء والسكون، ودارت نوفريت ببطء. كان وجهها خالياً من أي تعبير، بل كان في عينيها -كما ظنت رينيسنب- بعض الرقة المؤقتة. في سكون الصباح المبكر، بهدوئه الغريب ووضوحه بدت نوفريت كأنها ترددت، كأن كلمات رينيسنب قد لامست فيها واحداً من آخر معاقل التردد.

كانت لحظة غريبة، لحظة ستذكرها رينيسنب فيما بعد.

ثم تغيرت ملامح نوفريت تدريجياً فأصبحت بغيضة وامتلأت عيناها بالغضب، وأمام أجيج الكره والحقد في نظرتها تراجعت رينيسنب إلى الخلف خطوة، وقالت نوفريت بصوت منخفض قاس: اذهبي. لا أريد شيئاً من أي منكم. أغبياء، أنتم جميعاً أغبياء، كل واحد منكم!

وتوقفت لحظة، ثم دارت وتراجعت بخطواتها نحو المنزل وهي تمشي بحيوية. وتبعتها رينيسنب ببطء، ومن الغريب أن كلمات نوفريت لم تغضبها بل فتحت عينيها على لجة سوداء من الكراهية والتعاسة، تلك المشاعر التي لم تجربها رينيسنب من قبل، ولم يكن في ذهنها إلا صورة مضطربة عن التأثير الفظيع الذي يمكن أن تؤدي إليه هذه المشاعر.

وما أن دخلت نوفريت من البوابة وعبرت الفناء حتى جاءت إحدى بنات كيت الصغيرات تركض عبر الممر تلحق الكرة، فأبعدت

نوفريت الطفلة عن طريقها بدفعة قوية جعلت الفتاة تنبطح على الأرض. وأخذت الفتاة تنتحب فركضت رينيسنب إليها ورفعتها وهي تقول بغضب: يجب أن تكوني أكثر لطفاً بالأطفال يا نوفريت. لقد آذيت الطفلة، ألا ترين؟ لقد جرحت ذقنها!

ضحكت نوفريت وقالت بحدة: وهل يجب أن أكون حذرة مع هؤلاء الأطفال المدللين؟ لماذا؟ هل تحرص أمهاتهم على مشاعري؟

خرجت كيت تركض من المنزل لبكاء ابنتها، وتأملت وجهها الجريح، ثم التفتت إلى نوفريت فقالت: أنت شيطان وأفعى، أفعى شريرة. انتظري وسترين ماذا سنفعل بك.

وبكل قوة ذراعها لطمت نوفريت على وجهها، فصرخت رينيسنب وأمسكت بذراعها قبل أن تستطيع تكرار اللطمة وهي تهتف: كيت، كيت، ينبغي أن لا تفعلي ذلك.

- ومن قال ذلك؟ دعي نوفريت تدافع عن نفسها. إنها وحيدة هنا بيننا.

وقفت نوفريت ساكنة، وكانت علامة يد كيت تظهر حمراء بوضوح على خدها وعند عينها، فقد جرح السوار الذي كان في معصم كيت جلدها، وكان خيط رفيع من الدم يسيل على وجهها. لكن التعبير على وجه نوفريت حير رينيسنب، أذهلها، وأخافها.

لم تظهر نوفريت غضباً بل ظهرت في عينيها نظرة ابتهاج

غريبة، ومرة أخرى تكوّر فمها القططي بابتسامة رضا وقالت: شكراً يا كيت.

ثم ذهبت إلى المنزل.

-٢-

نادت نوفريت حينيت وهي تترنم بلحن خفيف منخفض وجفناها نصف مغمضين، فجاءت حينيت وهي تركض. توقفت ثم أبدت دهشتها، فقاطعت نوفريت دهشتها وقالت: اطلبي من كاميني أن يحضر ومعه الريشة والحبر وورق البردي، سوف أكتب رسالة للسيد.

كانت عينا حينيت مركّزتين على خد نوفريت: إلى السيد؟ فهمت. سيدتي، من فعل هذا؟

ابتسمت نوفريت بهدوء وقالت: كيت.

وهزت حينيت رأسها وقالت: هذا سيء، سيء جداً! يجب أن يعلم السيد بذلك. نعم، بالتأكيد، يجب أن يعلم إمحوتب بالأمر.

قالت نوفريت بلطف: أنت وأنا يا حينيت نفكر بطريقة متشابهة، لقد ظننت أننا يجب أن نفعل ذلك.

ومن زاوية ردائها الكتاني انتزعت جوهرة من الأحجار الكريمة في إطار مذهب ووضعتها في يد حينيت قائلة: أنا وأنت - يا حينيت - نضع مصلحة إمحوتب الحقيقية نصب أعيننا.

- أنت في غاية الكرم يا نوفريت، إنها تحفة رائعة!

- إنني وإمحوتب نقدر الإخلاص.

ظلّت نوفريت تبتسم وعيناها ضيقتان قططيتان، وقالت: أحضري كاميني وتعالي معه، أنت وهو شاهدان على ما حدث.

حضر كاميني على غير رغبة وحاجباه معقودان، وتحدثت نوفريت بعجرفة: أنت تذكر تعليمات إمحوتب قبل أن يغادر؟

- نعم.

- لقد حان الوقت؛ اجلس وأخرج الحبر واكتب ما أخبرك به.

ثم قالت بنفاد صبر وقد رأت كاميني لا يزال متردداً: ستكتب ما شاهدته بعينيك وسمعته بأذنيك، وستؤكد حينيت ما أقول. يجب أن ترسل الرسالة بسرية وسرعة.

قال كاميني ببطء: لا أحب...

صرخت نوفريت فيه: ليس لديّ أية شكوى ضد رينيسنب؛ إنها رقيقة وضعيفة وغبية ولم تحاول إيذائي. أيرضيك ذلك؟

احمرّ وجه كاميني البرونزي وقال: لم أفكر في هذا...

قالت نوفريت بلطف: بل كنت تفكر في ذلك. تعال الآن، نفذ التعليمات الموجهة إليك. اكتب...

قالت حينيت: نعم، اكتب؛ يجب أن يعلم إمحوتب بالأمر،

مهما يكن الأمر بغيضاً فعلى المرء أن ينفّذ واجبه. لقد كنت أشعر بهذا دائماً، لقد ساءني ما حدث كثيراً!

- أنا واثقة من ذلك يا حبيبت. سوف تفعلين واجبك وسينفّذ كاميني واجبه، وأنا، أنا سوف أفعل ما يحلو لي.

لكن كاميني بقي متردداً. كان وجهه متجهماً، بل غاضباً، وقال: لا أحب ذلك يا نوفريت، فكّري قليلاً ولا تتسرعي.

- لماذا تقول هذا لي؟

احمرّ وجه كاميني أمام نبرتها وتجنب نظرتها، فيما بقيت ملامحه المتجهمة كما هي. فقالت نوفريت بلطف: كن حذراً يا كاميني؛ إمحوتب يستمع لما أقوله، وهو راضٍ عنك حتى الآن!

وسكتت سكتة ذات مغزى فسألها كاميني بغضب: أتهددينني يا نوفريت؟

- ربما.

فنظر إليها بغضب لبضع لحظات، ثم حنى رأسه وقال: سوف أفعل ما تطلبين يا نوفريت، ولكنني أظن... نعم، أظنك سوف تندمين.

- هل تهددني يا كاميني؟

- بل أحذرك!

* * *

الفصل الثامن
الشهر الثاني من فصل الشتاء
اليوم العاشر

-١-

تعاقبت الأيام، وكانت رينيسنب تشعر أحياناً أنها تعيش في حلم. لم تقدّم أية عروض ذليلة أخرى لنوفريت، فقد أصبحت تخافها الآن، إذ كان في نوفريت شيء لم تفهمه.

لقد تغيرت نوفريت بعد ذلك المشهد في فناء المنزل. صار يبدو عليها شيء من الرضا، شيء من الابتهاج لم تستطع رينيسنب أن تسبر غوره. كانت تفكر أحياناً بأن الصورة التي رسمتها في مخيلتها لنوفريت كامرأة تعيسة تماماً ربما تكون صورة خاطئة سخيفة، فقد بدت نوفريت مسرورة بالحياة وبنفسها وبمن حولها.

ومع ذلك فإن مَن حولها قد تغيروا نحو الأسوأ بالتأكيد؛ ففي الأيام التي أعقبت رحيل إمحوتب بدأت نوفريت تزرع -عن عمد- بذور الخلاف بين أفراد عائلته.

أما الآن فإن تلك العائلة رصّت صفوفها بإحكام في وجه الغازية الجديدة، فلم تعد هناك خلافات بين ساتيبي وكيت، ولا توبيخ من ساتيبي ليخموس المسكين، وبدا سوبك أكثر هدوءاً وأقل تبجحاً، وأصبح أيبي أقل وقاحة وخلافاً مع شقيقه. ظهر انسجام جديد ضمن العائلة، ولكن ذلك الانسجام لم يحقق لرينيسنب راحة البال، فقد صاحبه تيارٌ داخلي غريب ملحٌّ يُنذر بالنوايا السيئة تجاه نوفريت.

كيت وساتيبي لم تعودا تتشاجران معها وكانتا تجتنبانها، ولم تتحدثا إليها، وعندما تقترب هي منهما تجمعان أبناءهما فوراً وتذهبان إلى مكان آخر. وفي الوقت ذاته بدأت تقع حوادث صغيرة غريبة ومزعجة: أُتلف رداء لنوفريت بالمكوى، وآخر لُوِّن بالأصباغ، ووُضع الشوك في ثياب أخرى. وطعامها يمتلئ بالتوابل أو يخلو منها، ووُجدت عقرب قرب سريرها، وفي مرة أخرى فأر ميت في حصتها من الخبز!

كان ذلك مضايقة هادئة ناعمة ولكن لا هوادة فيها، لا شيء صريحاً، لا شيء تستطيع الإمساك به... كانت حملة نسائية بالتأكيد.

وفي أحد الأيام أرسلت إيزا العجوز في طلب ساتيبي وكيت ورينيسنب، وكانت حينيت قد سبقتهن ووقفت خلفهن تهز رأسها وتفرك يديها. قالت إيزا وهي تنظر إليهن بتعبيرها الساخر المعهود: إذن ها أنتن، ماذا تفعلن أيتها الذكيات؟ ما الذي أسمعه عن ثياب نوفريت وطعامها؟

ابتسمت ساتيبي وكيت ابتسامة غير لطيفة، وقالت الأولى: هل تذمرتْ نوفريت؟

قالت إيزا وهي تزيح الباروكة التي كانت ترتديها دائماً حتى في المنزل: لا، نوفريت لم تتذمر، وهذا ما يقلقني!

قالت ساتيبي وقد رفعت رأسها الجميل: ولكنه لا يقلقني أنا.

صرخت إيزا: لأنك غبية! إن نوفريت تمتلك من الذكاء ضعف ما تمتلك أية واحدة منكن.

قالت ساتيبي وهي تبدو سعيدة ومسرورة بنفسها: هذا ما ننتظر إثباته.

- ماذا تحسبن أنكن فاعلات جميعاً؟

تصلب وجه ساتيبي وقالت: أنت عجوز يا إيزا ولا أتحدث إليك بلا احترام، لكن الأمور لم تعد تهمك مثلما تهمنا نحن اللاتي لدينا أزواج وأطفال صغار... لقد قررنا أن نتكفل نحن بالأمر، ولدينا وسائلنا للتعامل مع امرأة لا نحبها ولا نقبل بها.

- كلمات جيدة، كلمات جيدة... ولكن الكلام المنمق ربما أتقنته عبدة سوداء تعمل في المطحنة دون أن يعني ذلك شيئاً.

تنهدت حينيت وقالت: قول صحيح وحكيم!

التفتت إليها إيزا وسألتها: هيا يا حينيت، ماذا تقول نوفريت بشأن ما يحدث هنا؟ يجب أن تعرفي، أنت تخدمينها باستمرار.

- إنني أفعل ما طلب مني إمحوتب فعله. الأمر كريه بالطبع، ولكن عليّ أن أفعل ما يأمرني به السيد، إنكن لا تظنن أنني آمل...

قاطعت إيزا الصوت المنتحب: نحن نعرفك جيداً يا حينيت؛ دائماً مخلصة دون أن يشكرك أحد. ولكنني سألتك: ماذا تقول نوفريت؟

هزت حينيت رأسها وقالت: هي لا تقول شيئاً... تبتسم فقط.

التقطت إيزا عنبة من الصحن وتفحصتها، ثم وضعتها في فمها، وقالت بغلظة مفاجئة: إنكن غبيات جميعاً؛ فالسلطة بيد نوفريت لا بأيديكن، كل ما تفعله يعود عليها بالفائدة... أقسم أن ما تفعله يسعدها.

قالت ساتيبي بحدة: هراء! نوفريت وحدها بين الكثيرين فما السلطة التي لديها؟

تجهمت إيزا وقالت: سلطة امرأة شابة جميلة تزوجت رجلاً عجوزاً. أنا أعرف ما أقوله...

والتفتت سريعاً برأسها وهي تقول: وحينيت تعلم ما أقوله.

جفلت حينيت وتنهدت وبدأت تلوي يديها: إن السيد يقدرها كثيراً، بالطبع. أجل، ذلك أمر طبيعي جداً.

- اذهبي إلى المطبخ وأحضري لي بعض البلح والماء... والعسل أيضاً.

عندما ذهبت حينيت قالت المرأة العجوز: في الأفق شر وسوء

يتراكم يمكنني الشعور به. ساتيبي، إنك تقودين هذه الحملة. كوني حذرة - وأنت تظنين نفسك ذكية - من إفادة نوفريت بتصرفاتك.

ثم انحنت إلى الخلف وأغمضت عينيها وقالت: لقد حذرتكن!

* * *

قالت ساتيبي وهي ترمي برأسها إلى الوراء وهن في الطريق إلى الخارج نحو البحيرة: إذن فنحن تحت سيطرة نوفريت حقاً! إيزا عجوز وتراودها أفكار غريبة، نحن نضع نوفريت تحت سيطرتنا. لن نفعل أي شيء ضدها يُسجَّل علينا، ولكنني أظن... نعم، أظن أنها سوف تأسف قريباً على قدومها هنا.

صرخت رينيسنب: أنت قاسية، قاسية.

بدت ساتيبي مسرورة وقالت: لا تتظاهري بأنك تحبين نوفريت يا رينيسنب.

- أنا لا أحبها، لكنك حاقدة.

- إنني أفكر في أطفالي وبحموس، فأنا لست امرأة خنوعة أو امرأة تتحمل الإهانات... كما أنني طموحة. ولديّ القدرة على أن أدق عنق تلك المرأة بسرور. لسوء الحظ فإن الأمر ليس بهذه السهولة، يجب ألاّ نثير غضب إمحوتب، ولكنني أظن أننا نستطيع تدبير أمر ما في النهاية.

جاءت الرسالة سريعة كالسهم. نظر يحموس وسويك وآبيي بعضهم إلى بعض مذهولين صامتين لا يكادون يصدقون ما يقرؤه حوري!

ألم أخبر يحموس أنني أحمّله المسؤولية إن أصاب جاريتي أي سوء؟ إنكم أعدائي وأنا عدوكم، ولن أعيش معكم في بيت واحد ما دمتم لم تحترموا نوفريت. لم تعودوا أبنائي من دمي؛ لقد سبب كل منكم الأذى لجاريتي، وشهد على هذا الأمر كاميني وحينيت، وسوف أطردكم من منزلي. لقد أعلتكم ولن أعيلكم بعد الآن.

حوري، أيها الكاتب المخلص، كيف حالك؟ أرجو أن تكون بصحة جيدة وأمان. أبلغ تحياتي لأمي إيزا وابنتي رينيسنب وحينيت. تابع مصالحي جيداً حتى أصل إليك وحضّر صكاً قانونياً لتشاركني جاريتي نوفريت كل أملاكي كزوجة، ولن أشرك يحموس أو سويك معي ولن أعيلهما أيضاً. حافظ على الأمور حتى عودتي. كم هو سيء أن تقوم عائلة المرء بإيذاء جاريته. وأما آبيي فلتكن هذه الرسالة تحذيراً له، فإذا آذى جاريتي فسوف يغادر منزلي هو الآخر.

شلّ الصمتُ الحاضرين، ثم نهض سويك وصاح بغضب متأجج: كيف حدث هذا؟ ماذا سمع والدي؟ مَن كان يحمل الأخبار الكاذبة إليه؟ هل يجب أن نتحمل ذلك؟ كيف يحرمنا والدي هكذا ويعطي كل ما يملك لجاريته؟

قال حوري بهدوء: سيسبب هذا العمل استهجاناً واسعاً وسيُنظر إليه على أنه عمل سيء، ولكنه عمل ممكن من الناحية القانونية ويقع ضمن صلاحياته؛ إذ يمكنه أن يضع ما يريد من وثائق الملكية والمشاركة.

قال سويك: لقد سَحَرته تلك الأفعى السوداء الساحرة... سلطت سحرها عليه!

همس يحموس وقد بدا مصعوقاً: هذا أمر لا يصدَّق، لا يمكن أن يكون صحيحاً!

وصرخ آبيي: والدي مجنون... مجنون! لقد خضع لهذه المرأة وانقلب عليّ أنا أيضاً.

عاد حوري يقول بهدوء: سوف يعود إمحوتب قريباً كما قال، وربما لا ينوي حقاً تنفيذ ما يقوله. لعلها نوبة غضب فقط.

سمعوا ضحكة قصيرة ساخرة. كانت ساتيبي واقفة تنظر إليهم من الممر المؤدي إلى جناح النساء، وقالت: إذن فهذا ما علينا فعله أيها العزيز حوري، أليس كذلك؟ حسناً جداً، انتظر وسترى.

قال يحموس ببطء: وماذا يمكننا أن نفعل؟

ارتفع صوت ساتيبي بالصراخ: أنتم لستم رجالاً، وما يجري في عروقكم حليب وليس دماً! يحموس ليس رجلاً وأنا أعرفه،

ولكن أنت يا سوبك، أليس لديك حل؟ سكين تُغرس في قلبها ولن تستطيع تلك الفتاة إيذاءنا بعد ذلك.

صرخ يحموس: ساتيبي، لن يسامحنا والدي أبداً!

- هذا ما تقوله أنت، ولكنني أقول لك إن جارية ميتة ليست كجارية حية. عندما تموت يعود قلبه لأبنائه وأولاده. ثم كيف سيعرف طريقة موتها؟ يمكننا أن نقول إن عقرباً لدغتها. إننا معاً في هذا الأمر، أليس كذلك؟

قال يحموس: والدي سوف يعلم، سوف تخبره حينيت.

ضحكت ساتيبي وصاحت بهستيرية: أنت حكيم يا يحموس ورقيق تصلح للاعتناء بالأطفال والقيام بأعمال النساء في المنزل! كأني لست متزوجة برجل! وأنت يا سوبك، أين شجاعتك وتصميمك؟ أقسم إنني أكثر رجولة منكما أنتما الاثنين.

ثم دارت على أعقابها فخرجت، وتقدمت كيت التي كانت تقف خلفها خطوة إلى الأمام فقالت بصوت عميق مرتجف: إن ما تقوله ساتيبي صحيح... إنها أكثر رجولة منكم يا يحموس وسوبك وآيبي! هل ستجلسون هنا دون أن تفعلوا شيئاً؟ ماذا عن أولادنا يا سوبك؟ هل تدعهم ليجوعوا؟ حسناً، إذا لم تفعلوا شيئاً فسوف أفعل أنا. ليس بينكم رجل واحد.

وما أن خرجت هي الأخرى حتى نهض سوبك هاتفاً: وحق الآلهة التسعة إن كيت على حق! هناك عمل من شأن الرجال فعله، ونحن نجلس هنا نتحدث ونهز رؤوسنا!

مشى نحو الباب فناداه حوري: سوبك، سوبك! أين أنت ذاهب؟ ماذا ستفعل؟

صرخ سوبك من المدخل: سوف أفعل شيئاً ما، هذا واضح، وسوف أستمتع بفعله.

* * *

الفصل التاسع

الشهر الثاني من فصل الشتاء

اليوم العاشر

-١-

خرجت رينيسنب إلى الشرفة ووقفت هناك لحظة وهي تحمي عينيها من الوهج المفاجئ. شعرت بالغثيان والارتجاف وملأها شعور بخوف غير محدد، فقالت لنفسها تكرر الكلمات مرة بعد أخرى بشكل آلي: يجب أن أحذر نوفريت... يجب أن أحذرها!

كانت تستطيع سماع صوتَي حوري ويحموس المتداخلَين خلفها في المنزل، وكان يعلو صوتهما صوت آيبي الصبياني الحاد والواضح هو يقول: إن ساتيبي وكيت على حق، نعم؛ لا رجال في هذه العائلة! ولكنني في داخلي رجل وإن لم أكن كذلك من حيث العمر. لقد سخرت نوفريت مني وضحكت وعاملتني كالطفل، سوف أريها أنني لست طفلاً، فأنا لست خائفاً أن يغضب أبي. أنا أعرف والدي، إنه مسحور! لقد سلطت سحرها عليه، فإذا ما قُتلت فسوف

يعود قلبه لي لأنني الذي يحبه كثيراً. إنكم جميعكم تعاملونني كالطفل ولكنكم سوف ترون. أجل، أجل، سوف ترون.

وأسرع خارج المنزل فاصطدم برينيسنب فكاد يوقعها أرضاً، فتعلقت بكمه وهي تقول: آيبي، آيبي، أين أنت ذاهب؟

- أبحث عن نوفريت لأريها كيف تسخر مني.

- انتظر قليلاً. يجب أن تهدأ، يجب ألاّ يرتكب أحد منا عملاً متهوراً.

ضحك الصبي باحتقار وردّد: متهوراً؟! إنك مثل يحموس... الحكمة، الحذر، عدم فعل أي شيء على عجلة... إن يحموس امرأة عجوز وسوبك لا يجيد سوى الحديث والمفاخرة. دعيني أذهب يا رينيسنب...

جذب كمه الكتاني من قبضتها وابتعد صائحاً: نوفريت... أين نوفريت؟

همست حينيت التي خرجت من المنزل بسرعة: يا إلهي! هذا عمل سيء. ماذا سيحل بنا جميعاً؟ ماذا ستقول سيدتي العزيزة؟

سألها الفتى: أين نوفريت يا حينيت؟

صرخت رينيسنب: لا تخبريه!

لكن حينيت كانت قد أجابته: ذهبت إلى الطريق الخلفية، إلى الأسفل حيث حقول الكتان.

أسرع آيبي إلى الخلف عبر المنزل، فقالت رينيسنب موبّخة: كان يجب ألاّ تخبريه يا حينيت!

قالت حينيت: أنت لا تثقين بحينيت العجوز...

ثم أصبح النحيب في صوتها أكثر وضوحاً وهي تقول: ولكن حينيت، العجوز المسكينة، تعرف ماذا تفعل. إن الصبي يحتاج لبعض الوقت كي يهدأ. لن يعثر على نوفريت في حقول الكتان لأن نوفريت هنا في المقصورة، مع كاميني.

وأومأت برأسها عبر الفناء مرددة بتأكيد مبالغ فيه: مع كاميني.

لكن رينيسنب كانت قد بدأت طريقها إلى الفناء. وجاءت تيتي تحمل الأسد الخشبي من البحيرة نحو أمها، فأمسكتها أمها رينيسنب بين ذراعيها. لقد عرفت وهي تحمل الطفلة القوة التي تحرك ساتيبي وكيت؛ كانت هاتان المرأتان تقاتلان من أجل أولادهما!

صرخت تيتي: إنك تؤلمينني يا أمي.

أنزلت رينيسنب الطفلة ومشت عبر الفناء ببطء. كانت نوفريت وكاميني يقفان معاً في الجانب البعيد من المقصورة، والتفتا حين اقتربت رينيسنب. تحدثت الأخيرة بسرعة وهي تلهث: نوفريت، لقد أتيت لأحذّرك؛ يجب أن تكوني حذرة... يجب أن تحمي نفسك!

علت وجه نوفريت نظرة لاهية مزدرية وقالت: إذن فقد بدأت الكلاب بالنباح!

- إنهم في غاية الغضب، وسوف يؤذونك.

هزت نوفريت رأسها وقالت بثقة عالية: لا أحد يستطيع إيذائي، فإن فعلوا فسأخبر والدك فينتقم لي. سوف يعرفون حين يفكرون جيداً كم كانوا أغبياء بإهاناتهم وأعمالهم المؤذية التافهة... لقد كانوا يلعبون لعبتي طول الوقت!

قالت رينيسنب ببطء: إذن فقد خططت لذلك منذ البداية؟ وأنا كنت أشعر بالأسف لأجلك! كنت أظن أننا قسونا عليك. لست آسفة بعد الآن، أظن أنك شريرة يا نوفريت. عندما يحين موعد إنكار الأخطاء يوم الحساب لن تستطيعي القول: "لم أرتكب شراً"، ولن تستطيعي القول: "لم تمتد يدي إلى ما ليس لي"، وقلبك الذي سيوزن في المكيال أمام ريشة الحقيقة سوف تميل كفته المثقلة بالآثام.

غضبت نوفريت وقالت: لقد أصبحتِ متدينة فجأة! لكنني لم أؤذك أنت يا رينيسنب، لم أقل أي شيء ضدك. اسألي كاميني إن كنت لا تصدقينني.

ثم مشت عبر الفناء وصعدت الدرجات إلى الشرفة، فخرجت حينيت لملاقاتها ودخلت المرأتان المنزل. استدارت رينيسنب نحو كاميني وقالت: إذن فأنت مَن ساعدها على فعل ذلك بنا يا كاميني؟

قال كاميني بلهفة: هل أنت غاضبة مني يا رينيسنب؟ فما الذي كان في استطاعتي فعله؟ قبل أن يسافر إمحوتب كلفني بالكتابة بناء على طلب نوفريت في أي وقت تطلب مني فعل ذلك. قولي إنك لا تلومينني يا رينيسنب... ما الذي كنت أستطيع فعله؟

- لا أستطيع أن ألومك؛ أظن أنك كنت مضطراً لتنفيذ أوامر والدي.

- لا أحب فعل ذلك يا رينيسنب، لم تكن ضدك كلمة واحدة.

- وكأنني أهتم كثيراً بذلك!

- لكنني أنا أهتم. مهما حاولت نوفريت فلم أكن لأكتب كلمة واحدة من شأنها المساس بك يا رينيسنب، أرجوك صدقيني!

هزت رينيسنب رأسها بحيرة. كانت النقطة التي يحاول كاميني توضيحها غير مهمة عندها، كانت تشعر بالاستياء والغضب كأن كاميني، وبطريقة ما، قد خيب أملها. ولكنه كان غريباً على أية حال رغم أنه من الأقرباء، كان غريباً أحضره والدها من جزء بعيد من البلاد، وكان كاتباً مبتدئاً أعطي عملاً ونفذه مطيعاً.

ألحّ كاميني: لم أكتب سوى الحقيقة؛ لم أكتب الأكاذيب، أقسم لك.

- نعم؛ لم تكن أكاذيب. نوفريت أذكى من ذلك!

كانت إيزا العجوز على حق طول الوقت؛ ذلك الإيذاء الذي مارسته ساتيبي وكيت هو بالضبط ما أرادته نوفريت، فلا عجب أنها كانت تتجول وهي تبتسم ابتسامتها القططية!

قالت رينيسنب مطيعةً أفكارها: إنها سيئة، أجل.

فأجابها كاميني مؤكداً: نعم، إنها مخلوقة شريرة!

نظرت إليه رينيسنب وقالت بفضول: كنت تعرفها قبل أن تأتي هنا، أليس كذلك؟ كنت تعرفها في ممفيس؟

احمرّ وجه كاميني وبدا مرتبكاً وقال: لم أعرفها جيداً، كنت أسمع بها، كانوا يقولون إنها فتاة تعتز بنفسها... طموحة وقاسية ولا تنسى ولا تسامح.

ردّت رينيسنب رأسها إلى الخلف بقوة وهتفت بنفاد صبر مفاجئ: لا أصدق ذلك! والدي لن ينفذ ما يهدده به. إنه الآن غضبان ولكنه لا يكون ظالماً هكذا، حين يعود فسوف ينسى.

- حين يعود فسوف تتأكد نوفريت من أنه لن يغير رأيه! أنت لا تعرفين نوفريت يا رينيسنب... إنها في غاية الذكاء وهي عنيدة، وتذكري أنها جميلة جداً.

اعترفت رينيسنب: نعم! إنها جميلة.

ونهضت... كانت فكرة جمال نوفريت تؤذيها لسبب ما!

-٢-

أمضت رينيسنب بعد ظهر ذلك اليوم تلعب مع الأطفال، وخفف ذلك من الألم الغامض في قلبها. كان ذلك قبل الغروب بقليل حين وقفت بانتصاب تسرح شعرها وثنايا ردائها التي تجعدت واضطربت، وتساءلت بغموض: لم لم تخرج ساتيبي أو كيت كالمعتاد؟

كان كاميني قد غادر الفناء، ومشت رينيسنب إلى المنزل، فلم

تجد في غرفة الجلوس أحداً، ومشت عبرها إلى مؤخرة المنزل حيث جناح النساء. كانت إيزا في زاوية غرفتها تهز برأسها، وكانت خادمتها الصغيرة ترتب أكواماً من ملاءات الكتان، كانوا يخبزون كميات من الأرغفة المثلثة في المطبخ ولم يكن أحد في الجوار.

أطبق هذا الفراغ الغريب على صدر رينيسنب... أين هم؟

ربما يكون حوري قد ذهب إلى الضريح، وربما يكون يحموس معه أو في الحقول، وربما يكون سوبك وأبيي مع القطيع، ولعلهم يعملون في مستودع الحنطة، ولكن أين ساتيبي وكيت؟ وأين نوفريت؟

كانت رائحة عطور نوفريت القوية تملأ غرفتها الفارغة، توقفت رينيسنب عند المدخل تحدق إلى الوسائد الخشبية الصغيرة وصندوق الجواهر وكميات من الأساور الخرزية وخاتم ذي فص على شكل خنفساء زرقاء لامعة. عطور، مراهم، ثياب، كتانات... كلها تشير إلى مالكتها نوفريت التي تعيش بين ظهرانيهم والتي كانت غريبة وكانت لهم عدواً.

تساءلت رينيسنب: أين تكون نوفريت؟

مشت نحو المدخل الخلفي للمنزل حيث التقت بحينيت فسألتها: أين أهل البيت يا حينيت؟ لا أحد في المنزل سوى جدتي!

- كيف يمكنني أن أعرف يا رينيسنب؟ لقد كنت أعمل، أساعد في الغزل وأهتم بكل الأعمال، لا أملك الوقت كي أذهب لأتمشى.

قالت رينيسنب في نفسها: هذا يعني أن أحدهم خرج ليتمشى. ربما لحقت ساتيبي بيحموس إلى الضريح لكي توبخه أكثر، ولكن أين كانت كيت؟ فليس من عادتها أن تبتعد عن أولادها فترة طويلة.

ومرة أخرى عاودها شعور خفي مزعج، وفكرت: أين نوفريت؟

وكأن حينيت قد قرأت أفكارها فأجابتها: نوفريت ذهبت إلى الضريح منذ وقت طويل. حسناً، إن حوري كفء لها...

وضحكت حينيت ضحكة كريهة وأضافت: "إنه ذكي أيضاً". ثم مالت قليلاً إلى رينيسنب وقالت: أتمنى لو تعرفين كم كنت تعيسة من كل ما يجري! لقد أتتني في ذلك اليوم وأصابع كيت ظاهرة على خدها ووجهها ينزف دماً، ثم طلبت من كاميني أن يكتب وأن أروي ما رأيته، ولم أستطع بالطبع أن أدعي بأنني لم أره. آه، إنها ذكية! وأنا أفكر طول الوقت في أمك العزيزة...

دفعتها رينيسنب بعيداً وخرجت إلى وهج شمس الغروب الذهبية. كانت على المنحدرات ظلال عميقة وبدا العالم رائعاً في ساعة الغروب تلك. تسارعت خطوات رينيسنب وهي تصعد الممر المنحدر إلى الضريح لتلجأ إلى حوري كما كانت تفعل وهي طفلة عندما تكسر ألعابها وعندما تخاف أو تقلق. كان حوري كالصخور نفسها؛ صامداً لا يتحرك ولا يتغير!

قالت رينيسنب في نفسها مرتبكة: سوف يكون كل شيء على ما يرام عندما أذهب إلى حوري.

تسارعت خطواتها حتى قاربت الركض. وقابلتها ساتيبي فجأة؛ لا بد أنها كانت في الضريح. كم كانت طريقة ساتيبي في المشي غريبة... تترنح من جانب لآخر وتتعثر كأنها لا ترى. وعندما رأت رينيسنب توقفت ووضعت يدها على صدرها.

فوجئت رينيسنب بمنظر وجه ساتيبي فسألتها بلهفة: ما الأمر يا ساتيبي؟ هل أنت مريضة؟

كان صوت ساتيبي وهي تجيبها نعيباً، وكانت عينها تنتقل من جانب لآخر: لا، لا. بالطبع لا.

- كأنك مريضة. هل أنت خائفة؟ ما الذي حدث؟

- ما الذي يمكن أن يحدث؟ لا شيء بالطبع.

- أين كنت؟

- ذهبت إلى الضريح بحثاً عن يحموس. لم يكن هناك، لا أحد هناك.

بقيت رينيسنب تحدق إليها. إنها ساتيبي أخرى، فقدت كل حيويتها وثباتها.

- هيا يا رينيسنب، فلنعد إلى المنزل.

وضعت ساتيبي يدها المرتجفة على ذراع رينيسنب وهي تحثها لتعود من حيث أتت، وما أن لامستها حتى شعرت رينيسنب بتمرد مفاجئ وصاحت: لا؛ سوف أذهب إلى الضريح.

- أقول لك: لا أحد هناك.

- أحب أن أنظر إلى النهر وأجلس هناك.

- لكن الشمس في طريقها إلى الغروب والوقت متأخر.

أطبقت أصابع ساتيبي بشكل سيء على ذراع رينيسنب، فانتزعت هذه يدها وهتفت: دعيني أذهب يا ساتيبي.

- لا، ارجعي معي.

لكن رينيسنب أفلتت وتجاوزتها في طريقها إلى الجرف. كان هناك شيء ما، أخبرتها غريزتها أن هناك شيئاً ما. وتسارعت خطواتها حتى أصبحت تركض... ثم رأت ذلك؛ رأت كومة غامقة اللون تقبع في ظل الصخرة.

أسرعت حتى صارت بجانب الشيء. ولم يفاجئها المشهد؛ فقد توقعته!

كانت نوفريت ممددة ووجهها مقلوب وجسمها مكسر وملتوٍ وعيناها كانتا مفتوحتين وقد ابيضتا.

انحنت رينيسنب ولمست الخد البارد المتصلب، ثم وقفت مرة أخرى تنظر إليها ولا تكاد تسمع ساتيبي التي جاءت خلفها قائلة: لا بد أنها وقعت... كانت تمشي عبر الممر المنحدر فوقعت.

فكرت رينيسنب وقالت: أجل، هذا ما حدث؛ لقد وقعت نوفريت من الممر الأعلى وارتطم جسمها بصخور الكلس!

- ربما شاهدت أفعى وجفلت... تنام على هذا الممر بعض الأفاعي السامة في الشمس أحياناً.

أفاع؟ نعم، أفاع. سوبك والأفعى... أفعى ظهرها مكسور ميتة تحت الشمس وعينا سوبك تتوهجان! وفكرت: سوبك... نوفريت؟

ثم راودها شعور مفاجئ بالارتياح عندما سمعت صوت حوري وهو يسأل: ماذا حدث؟

التفتت بارتياح. كان حوري ويحموس قد صعدا معاً، وكانت ساتيبي تشرح بلهفة أن نوفريت وقعت على الأغلب عن الممر الأعلى.

قال يحموس: لا بد أنها صعدت لتبحث عنا. كنت أنا وحوري خارجين لنرى قنوات الري. لقد خرجنا منذ ساعة على الأقل، وعندما رجعنا رأيناكما تقفان هنا.

قالت رينيسنب وقد فاجأها أن صوتها اختلف: أين سوبك؟

وشعرت بالتفاتة حوري الحادة عند هذا السؤال، وبدا يحموس محتاراً وهو يقول: سوبك؟ لم أره طوال فترة بعد الظهر، منذ غادر المنزل غاضباً.

كان حوري ينظر إلى رينيسنب، ورفعت رينيسنب عينيها فالتقت عيونهما، ثم رأت حوري يشيح بنظره وينظر ساهماً إلى جسد نوفريت فعلمت بالتأكيد فيم كان يفكر. وهمس متسائلاً: نوفريت؟

سمعت رينيسنب نفسها تقول: آه، لا! لا، لا!

قالت ساتيبي بإلحاح مرة أخرى: لقد سقطت عن الممر. إنه ضيق في الأعلى وخطير...

سوبك يحب القتل... "ما أفعله أستمتع بفعله"... سوبك يقتل الأفعى... سوبك يلتقي بنوفريت عند هذا الممر الضيق...

سمعت رينيسنب نفسها تهمس بوهن: إننا لانعلم!

ثم سمعت صوت حوري الوقور يرجّح ويؤيد ما أكّدته ساتيبي، فشعرت بالارتياح وكأن عبئاً ثقيلاً زُحزح عن كاهلها: لا بد أنها سقطت عن الممر.

التقت عيناه بعيني رينيسنب، وفكرت: هو وأنا نعلم. سوف نعلم دائماً... وسمعت صوتها وهو يقول مرتعشاً: لقد سقطت عن الممر.

وكصدى أخير سمعت صوت يحموس الحنون يقاطع موافقاً: لا بد أنها سقطت عن الممر.

* * *

الفصل العاشر
الشهر الرابع من فصل الشتاء
اليوم السادس

-١-

جلس إمحوتب قبالة أمه إيزا يخاطبها بغضب: كلهم يروون القصة نفسها!

- وهذا أمر يبعث على الرضا على الأقل.

- الرضا؟ الرضا؟! إنك تستعملين كلمات غريبة!

ضحكت إيزا وقالت: أنا أعرف ما أقوله يا بني.

تحدث إمحوتب بصوت منذر: هل يقولون الحقيقة؟ هذا ما يجب أن أتأكد منه.

- أنت لست مثل الآلهة لتستطيع معرفة ما في الصدور.

هز إمحوتب رأسه وقال: هل كان حادثاً؟ عليّ أن أضع في

الحسبان أن إعلاني عن نواياي تجاه ذاكري الجميل هؤلاء، ربما أثار بعض الذعر في نفوسهم.

- نعم، بالفعل؛ لقد أثيرت المشاعر. كانوا يتصايحون في القاعة وكان يمكنني أن أسمع ما يقال في غرفتي هنا. وبالمناسبة، هل كانت تلك نواياك حقاً؟

تحرك إمحوتب بقلق وهو يتمتم: لقد كتبت في ساعة غضب، وكانت عائلتي تحتاج أن تتعلم درساً قاسياً.

- أي أنك كنت تخيفهم فقط. أهذا صحيح؟

- أمي العزيزة، هل يهم ذلك الآن؟

- فهمت؛ لم تكن تعلم ماذا تنوي أن تفعل... تفكير مشوش كالمعتاد.

ضبط إمحوتب أعصابه بجهد كبير وقال: إنني أعني - ببساطة - أن هذه النقطة ذاتها لا تهم الآن. موت نوفريت هو المهم الآن... لئن كان أحد أفراد عائلتي عَقوقاً وغير متزن في غضبه بحيث تسوّل له نفسه إيذاء الفتاة فإنني لا أعرف ما يجب عليّ أن أفعل.

- إذن فمن حسن الحظ أنهم جميعاً يروون القصة ذاتها. لم يلمّح أي شخص آخر لأمر مغاير، أليس كذلك؟

- أبداً.

- إذن فلِمَ لا تعتبر الحادثة أمراً منتهياً؟ كان عليك أن تأخذ

الفتاة معك إلى الشمال؛ لقد أخبرتك بذلك في حينه.

- إذن فأنت تعتقدين...

قالت إيزا مؤكدة: أنا أعتقد بما أُخبرت به، إلاّ إذا تعارض ذلك مع ما رأيت بأم عينيّ أو سمعته بأذنيّ. أظن أنك استجوبت حينيت، فماذا قالت عن الموضوع؟

- إنها متألمة كثيراً لأجلي.

رفعت إيزا حاجبيها وقالت: حقاً؟ إنك تثير دهشتي.

قال إمحوتب بدفء: حينيت تملك قلباً كبيراً.

- بالتأكيد، وتملك لساناً طويلاً أيضاً، وإذا كان ألمها لخسارتك هو رد فعلها الوحيد فيجب أن أعتبر الحادثة أمراً منتهياً بالتأكيد. هناك العديد من القضايا الأخرى التي تتطلب انتباهك.

نهض إمحوتب وقال وهو يستعيد تظاهره بالأهمية: نعم، بالتأكيد؛ يحموس ينتظرني في القاعة لنناقش مجموعة من القضايا العاجلة... قرارات عدة بحاجة إلى موافقتي، والأحزان الخاصة لا ينبغي لها أن توقف عجلة الحياة.

أسرع خارجاً، وابتسمت إيزا ابتسامة ساخرة. ثم تجهم وجهها مرة أخرى وتنهدت وهزت رأسها.

-٢-

كان يحموس ينتظر والده مع كاميني، وقال يحموس إن

حوري يشرف على أعمال التحنيط والدفن وترتيب المراحل لأعمال الجنازة.

استغرقت رحلة إمحوتب إلى المنزل بعد تسلمه أخبار وفاة توفريت عدة أسابيع، وكانت التحضيرات للجنازة الآن قد شارفت على الانتهاء. غُطِّست الجثة طويلاً في الماء المالح، وأعيدت إلى حالة تشبه مظهرها الطبيعي ودهنت بالزيت والأملاح، ثم لُفَّت بالضمادات وسُجيت في تابوتها.

أوضح يحموس أنه جهَّز غرفة دفن صغيرة قرب الضريح الصخري المعد للاحتفاظ بجثة إمحوتب نفسه، ثم تحدث في التفاصيل. وعبّر إمحوتب عن موافقته فقال بلطف: لقد تصرفتَ جيداً يا يحموس... لقد أظهرت قدرة جيدة على الحكم والتصرف وحافظت على هدوئك ورزانتك.

احمرّ وجه يحموس أمام هذا الإطراء غير المتوقع، وأكمل إمحوتب: آبي ومونتو يطلبان أجراً عالياً للتحنيط. فهذه الأوعية من الفخار - مثلاً - غالية الثمن ولا حاجة لمثل هذه المبالغة. هؤلاء المحتّطون الذين وظفتهم عائلة غوفير يظنون أنهم يستطيعون طلب أي سعر خيالي يريدونه... كان سيكلفنا أقل لو أننا ذهبنا إلى شخص أقل شهرة بدلاً من هؤلاء الجشعين.

- كان يتوجب عليّ أن أقرر هذه الأمور في غيابك، وكنت حريصاً أن أولي جاريتك التي تكن لها المعزة كل الاحترام.

أومأ إمحوتب وربت على كتف يحموس: هذا خطأ في الاتجاه الصحيح. أنت - كما أعلم - حريص فيما يختص بالشؤون المالية،

وأعرف أن أية مصاريف في هذا الأمر غير ضرورية قد استهدفت إرضائي فقط، لكنني لست فاحش الثراء والجارية هي مجرد جارية. أظن أننا سنلغي التعاويذ الباهظة الثمن، ثم دعني أرَ، هناك طريقة أو طريقتان لتقليل المصاريف، فلتقرأ عليّ فقرات التكاليف يا كاميني.

فتح كاميني ورق البردي، وتنهد يحموس بارتياح.

-٣-

قالت كيت وهي تخرج ببطء من المنزل تجاه البحيرة حيث كان الأطفال يلعبون قريباً من أمهاتهم:كنتِ على حق يا ساتيبي... إن جارية ميتة ليست كجارية حية.

نظرت ساتيبي إليها وهي شاردة مغمضة عينيها، وسألت رينيسنب بسرعة: ماذا تعنين يا كيت؟

- لم تكن الملابس ولا الجواهر، ولا حتى إرث إمحوتب الذي سيؤول إلى أولاده، لم يكن ذلك كله ليكفي الجارية وهي على قيد الحياة، أما الآن فإن إمحوتب مشغول بتخفيض تكاليف الجنازة! فرغم كل شيء: لماذا يضيع أمواله على امرأة ميتة؟ نعم يا ساتيبي، لقد كنت محقة فيما قُلته.

همست ساتيبي: ماذا قلت؟ لقد نسيت.

وافقتها كيت: هذا أفضل. وأنا أيضاً، وكذلك رينيسنب.

نظرت رينيسنب إلى كيت دون أن تتكلم. كان في صوت كيت

شيء فيه مسحة الوعيد مما أزعج رينيسنب؛ فقد كانت تنظر إلى كيت كامرأة غبية ورقيقة وخنوعة لا يؤبه لها، لكنها الآن أخذت دور ساتيبي المسيطرة العدوانية التي أصبحت خنوعة وخائفة.

فكرت رينيسنب: إن الناس لا يغيرون شخصياتهم... أم تراهم يفعلون؟

شعرت رينيسنب بالحيرة. هل تغيرت كيت وساتيبي خلال الأسابيع الأخيرة أم كان التغير في الأولى نتيجة للتغير في الأخرى؟ هل أصبحت كيت عدوانية أم أنها تبدو كذلك بسبب انهيار ساتيبي المفاجئ؟

تبدو ساتيبي مختلفة بالتأكيد؛ لم يعد صوتها مرتفعاً سليطاً، كانت تتجول حول الفناء والمنزل وهي تمشي بعصبية وانكماش يخالف سلوكها الواثق السابق.

أرجعت رينيسنب هذا التغير إلى الصدمة الناتجة عن وفاة نوفريت، لكن المدهش أن تستمر طول هذه الفترة. لم تستطع رينيسنب أن تمنع نفسها من التفكير في أنه كان من المتوقع من شخصية كشخصية ساتيبي أن تفرح وتهلل علانية لموت الجارية المفاجئ المبكر، ولكنها كانت تنكمش بعصبية كلما ذُكر اسم نوفريت. حتى يحموس بدا مستثنى من توبيخها وتسلطها، فبدأ هو يسلك سلوكاً أكثر ثقة وتصميماً. وعلى أية حال فقد كان التغير الذي أصاب ساتيبي نحو الأفضل، أو هكذا ظنت رينيسنب.

ورغم ذلك فإن شيئاً في هذا الأمر جعل رينيسنب تشعر بعدم الارتياح.

فجأة - وقد جفلت - أدركت رينيسنب أن كيت كانت تنظر إليها وهي متجهمة، تنتظر موافقة على شيء قالته، ثم عادت لتقول: رينيسنب نسيت أيضاً.

فجأة شعرت رينيسنب بموجة من التمرد تجتاحها! كيف تملي كيت أو ساتيبي أو أي شخص آخر عليها ما يجب أن تذكره أو تنساه؟ وردّت على نظرة كيت بتحدٍّ وثبات، فقالت كيت: يجب على النساء في هذا المنزل أن يقفن متضامنات.

استرجعت رينيسنب صوتها، فقالت بوضوح وتحدٍّ: لماذا؟

- لأن مصالحهن واحدة.

هزت رينيسنب رأسها بعنف نافية هذه الفكرة وفكرت بارتباك: "إنني شخص مثلما أنا امرأة، أنا رينيسنب". ثم قالت بصوت مرتفع: ليس الأمر بمثل هذه البساطة.

- هل تريدين إثارة المتاعب يا رينيسنب؟

- لا، ولكن ماذا تعنين بالمتاعب؟

- من الأفضل نسيان كل ما قلناه في ذلك اليوم في القاعة الكبرى.

ضحكت رينيسنب وقالت: أنت غبية يا كيت، ولكن الخدم والعبيد وجدتي وحينيت قد سمعوا الحديث... لماذا نتظاهر بأن الأمور لم تحدث وقد حدثت؟

قالت ساتيبي بفتور: كنا غاضبات ولم نعن ما قلناه. كفّي عن

الحديث في الأمر يا كيت، إذا كانت رينيسنب تريد إثارة المتاعب فدعيها.

سخطت رينيسنب وقالت: لا أريد إثارة المتاعب، لكن من الغباء أن نتظاهر.

كيت: بل إنها حكمة، يجب عليك التفكير في تيتي.

- تيتي بخير.

ابتسمت كيت وقالت: كل شيء بخير الآن وقد ماتت نوفريت.

كانت ابتسامة هادئة راضية. ومرة أخرى شعرت رينيسنب بشيء من التمرد، لكن كلام كيت كان صحيحاً رغم ذلك: "الآن وقد ماتت نوفريت أصبح كل شيء على ما يرام"!

ساتيبي، وكيت، وهي، والأطفال... كلهم آمنون يعيشون بسلام دون خوف من المستقبل، فقد غادرت الغريبة المتطفلة المزعجة إلى الأبد. ولم تقدر رينيسنب على تفسير هذه المشاعر الغريبة التي تضايقها. لماذا هذا الإحساس بالبطولة في الدفاع عن فتاة ميتة لم تحبها، فتاة كانت شريرة وماتت؟ لماذا تشفق الآن عليها؟ إن الذي تشعر به هو شيء أكثر من الشفقة، لعله الخوف من الآتي.

هزت رينيسنب رأسها بحيرة، ثم جلست قرب البحيرة بعد أن دخل الآخرون لتخفف من اضطرابها وتحاول - بلا نجاح - تفسير هذا الاضطراب والغموض في عقلها ونفسها.

كانت الشمس قد غربت عندما رآها حوري وهو يمر عبر الفناء، فجاء وجلس بجانبها وهو يقول: الوقت متأخر يا رينيسنب، الشمس تغرب. يجب أن تدخلي إلى البيت.

هدأها صوته الرزين الهادئ كالمعتاد، فالتفتت نحوه تسأله: هل يجب أن تتضامن نساء البيت الواحد معاً؟

- من يقول هذا يا رينيسنب؟

- كيت وساتيبي.

- وأنت؟ تريدين الاستقلال بتفكيرك؟

- آه، تفكيري! لا أعرف كيف أفكر، كل شيء مشوش في عقلي... الناس مشوشون... كل شخص مختلف عما كنت أظنه. كنت أظن دائماً أن ساتيبي صريحة وثابتة ومسيطرة، لكنها الآن ضعيفة ومترددة، بل خانعة. فأية واحدة إذن هي ساتيبي الحقيقية؟ لا يمكن أن يتغير الناس هكذا بين عشية وضحاها!

- ليس في يوم؛ نعم.

- وكيت التي كانت دائماً خنوعة تسمح للجميع بالسيطرة عليها تسيطر هي الآن علينا جميعاً! حتى يحموس يبدو مختلفاً، يصدر الأوامر ويتوقع الطاعة!

- وكل ذلك يربكك يا رينيسنب؟

- نعم، لأنني لا أفهم أحداً. حتى حينيت أشعر أحياناً أنها مختلفة تماماً عن مظهرها!

ضحكت رينيسنب كأنها تضحك من أمر تافه، لكن حوري لم يضحك معها، بل ظل وجهه متجهماً وهو يفكر: إنك لم تفكري كثيراً في الناس من قبل، أليس كذلك يا رينيسنب؟ لو كنت قد فكرت لأدركت...

وسكت قليلاً ثم قال: هل تعرفين أن في كل القبور باباً زائفاً غير حقيقي.

حدقت إليه رينيسنب وقالت: نعم.

- حسناً، والناس يتصرفون كذلك؛ يستخدمون مظاهر خادعة غير حقيقية. إذا كانوا يشعرون بالضعف وعدم الكفاءة فإنهم يخلقون باباً من الثقة بالنفس والتهديد والوعيد والسلطة الهائلة، ثم يصدّقون هم أنفسهم -بعد فترة- هذا المظهر الزائف الذي ألبسوه لأنفسهم ويظن الجميع أنهم كذلك، لكن الأحداث والمواقف تكشفهم لأن الحقيقة صخرة ثابتة لا بد أن تظهر. كيت حققت بالرقة والخضوع كل ما تريد... زوجاً وأطفالاً. لقد سهّل الغباء الحياة بالنسبة لها، ولما هدّدها الواقع على شكل خطر داهم ظهرت على حقيقتها. إنها لم تتغير يا رينيسنب؛ لقد كانت تلك القوة والقسوة موجودة دائماً.

قالت رينيسنب بصبيانية: لكنني لا أحب ذلك يا حوري؛ فهو يجعلني أشعر بالخوف. الجميع يختلفون عما كنت أظنهم عليه. وماذا عني؟ أنا دائماً مثلما أنا.

ابتسم حوري وقال: هل أنت كذلك؟ إذن لماذا جلست هنا كل تلك الساعات وأنت مقطبة الجبين تفكرين وتكتئبين؟ هل كانت رينيسنب القديمة، رينيسنب التي ذهبت مع خاي تفعل ذلك؟

- آه! لا؛ لم تكن هناك حاجة...

- أرأيت؟ لقد قلت ذلك بلسانك؛ تلك هي كلمة الحقيقة: **الحاجة**. إنك لست كما كنت تبدين دوماً، الطفلة السعيدة غير الآبهة التي كانت تتقبل الأمور كما هي في ظاهرها، ولست مجرد واحدة من نساء المنزل، بل أنت رينيسنب التي تريد أن تفكر في نفسها وتتساءل بشأن الآخرين.

قالت رينيسنب ببطء: كنتُ أتساءل بشأن نوفريت...

- عمَّ كنت تتساءلين؟

- كنت أتساءل: لِمَ لا أستطيع نسيانها؟ كانت سيئة وقاسية وحاولت إيذاءنا، ثم ماتت. لِمَ لا أستطيع ترك الموضوع عند هذا الحد؟

- ألا تستطيعين ترك الأمر عند هذا الحد؟

- نعم؛ إنني أحاول ذلك، ولكنني...

سكتت ووضعت يدها على عينيها بحيرة، ثم استأنفت: أشعر أحياناً أنني أعرف عن نوفريت يا حوري.

- تعرفين؟ ماذا تعرفين؟

- لا أستطيع شرح ذلك، ولكن ذلك يراودني بين الحين والآخر. كأنها هنا، بجانبي... أشعر كأنني هي، أحس بما كانت تشعر هي به. كانت تعيسة يا حوري، أنا أعلم ذلك الآن رغم أنني

لم أدرك ذلك في حينه، ولم تكن تريد إيذاءنا جميعاً إلاّ بسبب تعاستها تلك.

- لا يمكنك معرفة ذلك يا رينيسنب.

- بالطبع لا أعرف ذلك، لكن هو ما أشعر به. ذلك الشقاء وتلك المرارة والحقد الأسود، رأيته في وجهها ذات مرة ولم أفهمه! لا بد أنها أحبت شخصاً ما ثم حدث خطأ ما، ربما مات أو ذهب بعيداً، لكن الحادث جعلها تريد إيذاء الناس وجرحهم. يمكنك قول ما تريد لكنني أعلم أنني على حق. لقد أصبحت جارية لذلك العجوز والدي، وقد أتت هنا ونحن كرهناها، ففكرت بجعلنا تعساء مثلها... أجل، هكذا كان الأمر.

نظر حوري إليها بفضول: تبدين واثقة يا رينيسنب، لكنك لم تعرفي نوفريت جيداً.

- ولكنني أشعر أنني مصيبة يا حوري. إنني أشعر بنوفريت، وأحياناً أجدها بجانبي تماماً.

- فهمت.

توقفا عن الحديث ومرت فترة صمت، وخيم الظلام على المكان، ثم قال حوري بهدوء: أنت تظنين أن نوفريت لم تمت بطريق الصدفة بل ألقيت إلى الأسفل؟

شعرت رينيسنب بمقت جارف لسماع رأيها يُصاغ في كلمات محددة، فقالت: لا، لا؛ لا تقلها.

- ولكنني أظن يا رينيسنب أنه من الأفضل أن نقولها طالما أنها في رأسك، أأنت تظنين ذلك؟

- أنا؟ نعم.

أحنى حوري رأسه مفكراً وتابع: وأنت تظنين أن سوبك هو الذي فعل ذلك؟

- ومن غيره؟ أنت تذكره مع الأفعى، وأنت تذكر ما قاله ذلك اليوم، يوم وفاتها قبل أن يغادر القاعة الكبرى؟

- أذكر ما قاله؛ أجل، لكن أكثر الناس أقوالاً ليسوا عادة أكثرهم أفعالاً.

- ولكن ألا تعتقد أنها قد قُتلت؟

- بلى يا رينيسنب، أظن ذلك. ولكن هذا مجرد رأي، ليس لديّ أي دليل، ولا أظن أنه سيتوفر أي دليل أبداً. ولذلك شجعت إمحوتب على أن يقبل الحكم بأن الأمر حادثة. لقد دفع أحدهم نوفريت ولن نعرف من هو أبداً!

- أتعني أنك لا تظنه كان سوبك؟

- لا أظن، ولكننا كما قلت: لن نعرف أبداً، فمن الأفضل ألاّ نشغل بالنا.

- فإذا لم يكن سوبك فمن تظنه؟

هز حوري رأسه وقال: لئن كانت لدي فكرة فإنها تحتمل الخطأ، ولذلك فمن الأفضل عدم القول.

قالت رينيسنب باستياء: ولكننا لن نعرف أبداً.

تردد حوري ثم قال: ربما يكون ذلك أفضل شيء.

- عدم المعرفة؟

- عدم المعرفة، نعم.

ارتجفت رينيسنب وقالت: إنني خائفة يا حوري!

* * *

الفصل الحادي عشر
الشهر الأول من فصل الصيف
اليوم الحادي عشر

-١-

انتهت المراسم النهائية وتُليت التعاويذ، وأخذ مونتو كاهن هاثور مكنسة أعشاب هيدن فكنس الغرفة جيداً فيما كان يتلو بعض التعاويذ لإزالة آثار الأرواح الشريرة قبل أن يغلق الباب للأبد. ثم أغلق باب القبر ووضع كل ما تبقى من آثار تدل على المحنّطين: الأوعية المملوءة بالأملاح والخرق التي لامست الجثة في غرفة صغيرة مجاورة تم إغلاقها أيضاً.

جعل إمحوتب كتفيه على شكل زاوية قائمة وأخذ نفساً عميقاً وقد اختفت من وجهه علامات الخشوع التي كانت تقتضيها الجنازة، وتم دفن توفريت حسب الطقوس المقررة دون اقتصاد في النفقات (النفقات غير الضرورية في رأي إمحوتب)

وتبادل إمحوتب المجاملات مع الكهنة الذين انتهت وظيفتهم

المقدسة الآن واستعادوا سلوك الرجال العاديين، ورجع الجميع إلى المنزل حيث كانت المرطبات في انتظارهم. وتناقش إمحوتب والكاهن في التغييرات السياسية الحديثة. كانت طيبة تتقدم بسرعة لكي تصبح مدينة قوية، ومن المحتمل أن تتوحد مصر مرة أخرى في ظل حاكم واحد خلال فترة وجيزة، وربما يعود العصر الذهبي لبناة الأهرام.

تحدث مونتو باحترام وإعجاب عن الملك نيحيت، قال: ... جندي من الطراز الأول، ورجل ورع أيضاً، ولن يستطيع الشمال الفاسد الجبان أن يقف في وجهه. نحتاج إلى مصر موحدة، وسوف يعني ذلك مستقبلاً مضيئاً لطيبة.

نظرت رينيسنب خلفها إلى الصخرة وغرفة القبر المغلق، وهمست: إذن فهذه هي النهاية!

وانتابها شعور بالارتياح. كانت تخشى أمراً لا تعرف كنهه... ربما خشيت انفجاراً أو اتهاماً يحدث في آخر لحظة، لكن كل شيء جرى بهدوء يستحق الثناء. دُفنت نوفريت وتُليت عليها التعاويذ الدينية كافة، وكانت النهاية.

قالت حينيت بصوت خفيض: أرجو ذلك... أرجو ذلك حقاً يا رينيسنب!

التفتت رينيسنب إليها متسائلة: ماذا تعنين يا حينيت؟

تجنبت حينيت النظر إليها وقالت: آمل أن تكون هذه هي

النهاية؛ فأحياناً يكون ما نتخيله نهاية مجرد بداية، وهو أمر سيئ تماماً.

قالت رينيسنب بغضب: ما الذي تتحدثين عنه يا حينيت وإلى أي شيء تلمّحين؟

- أنا لا ألمّح يا رينيسنب، لا أفعل شيئاً مثل هذا. لقد دُفنت نوفريت والكل راضون، فالأمور على ما يرام.

- هل سألك والدي عن رأيك في وفاة نوفريت؟

- نعم، بالتأكيد يا رينيسنب، وكان حريصاً أن أخبره رأيي.

- وبمَ أخبرته؟

- قلت إن الأمر كان حادثة. وماذا يكون غير ذلك؟ وقلت: لا يمكن أن يؤذي أحد من أفراد عائلتك الفتاة، فهم لا يجرؤون على ذلك، إنهم يحترمونك كثيراً. ربما يتذمرون، ليس أكثر من ذلك... وقلت له: صدّقني لا يوجد شيء من ذلك القبيل!

هزت حينيت رأسها وضحكت.

- وهل صدقك والدي؟

هزت حينيت رأسها مرة أخرى برضا: والدك يعلم كم أنا مخلصة لمصالحه، وسوف يصدق دائماً ما تقوله حينيت العجوز. إنه يقدرني ولو لم يقدرني أحد منكم، وعلى أية حال فإخلاصي لكم هو جائزة في ذاته، ولا أنتظر الشكر.

- ولكنك كنت مخلصة لنوفريت أيضاً.

- لماذا تظنين ذلك يا رينيسنب؟ كنت مضطرة لإطاعة الأوامر مثل غيري.

- كانت تظنك مخلصة لها.

ضحكت حينيت مرة أخرى وقالت: لم تكن نوفريت ذكية كما كانت تظن نفسها... فتاة واثقة بنفسها وتظن أنها تمتلك الأرض. حسناً، إنها الآن أمام العالم الآخر لتحاسب، ولن يساعدها وجهها الجميل. وعلى أية حال فقد تخلصنا منها.

ثم خفضت صوتها وقالت وهي تلمس إحدى التعاويذ التي كانت تعلّقها: أتمنى ذلك على الأقل!

-٢-

- رينيسنب، أريد الحديث إليك بشأن ساتيبي.

- أجل يا يحموس؟

نظرت رينيسنب بتعاطف إلى وجه أخيها الرقيق القلق. قال يحموس ببطء وحزن: سلوك ساتيبي غامض، لا أستطيع أن أفهمها.

هزت رينيسنب رأسها بحزن وعجزت عن قول شيء يخفف عنه، وقال يحموس: لقد لاحظت هذا التغير فيها منذ مدة. إنها تجفل وترتجف عند سماعها أي صوت غريب، ولا تأكل جيداً،

وتتسلل كأنها... كأنها تخاف من ظلها. لا بد أنك لاحظت ذلك يا رينيسنب.

- نعم، لقد لاحظنا ذلك حقاً.

- سألتها إن كانت مريضة وعرضت عليها أن أدعو الطبيب، لكنها قالت إنها لا تعاني من شيء وإنها على ما يرام.

- أعلم.

- إذن فقد سألتها ولم تقل لك أي شيء؟

أكّد على سؤاله، وتعاطفت رينيسنب معه بقلق لكنها لم تستطع قول أي شيء لمساعدته.

قال يحموس: إنها تصر على أنها بخير، لكنها لا تنام في الليل جيداً وتصرخ في نومها، فهل... هل تعاني من محنة لا نعرف عنها شيئاً؟

هزت رينيسنب رأسها وقالت: لا أستطيع أن أرى إمكانية ذلك، فالأطفال على ما يرام ولم يحدث شيء هنا سوى موت نوفريت، ولا يمكن أن تحزن ساتيبي بسبب هذا الأمر.

ابتسم يحموس ابتسامة باهتة وقال: بالتأكيد، بل العكس تماماً، بالإضافة إلى أن هذا التغيير بدأ معها قبل موت نوفريت كما أعتقد.

كانت نبرة صوته غير واثقة، ونظرت إليه رينيسنب بسرعة. قال يحموس بإلحاح: قبل موت نوفريت، ألا تظنين ذلك؟

- لم ألاحظه إلاّ بعد وفاتها.

- ولم تقل لك أي شيء؟ هل أنت واثقة؟

هزت رينيسنب رأسها بالنفي وقالت: أتعلم يا يحموس؟ لا أظن أن ساتيبي مريضة. كأنها تبدو لي خائفة!

هتف يحموس بدهشة كبيرة: ولماذا تكون ساتيبي خائفة؟ وممَّ تخاف؟ كانت ساتيبي دائماً شجاعة كاللبؤة.

- أعلم ذلك، ولكن الناس يتغيرون. هذا غريب.

- أتظنين أن كيت تعلم شيئاً؟ هل تحدثت ساتيبي إليها؟

- من المرجح أنها ستتحدث إليها أكثر مني، ولكن لا أظن ذلك، بل أنا واثقة أنها لم تتحدث معها.

- وماذا تظن كيت؟

- كيت؟ إنها لا تفكر في أي شيء.

كانت رينيسنب ترى أن كل ما فعلته كيت هو استغلال ضعف ساتيبي غير المعتاد للحصول على أحسن الملاءات الجديدة لنفسها ولأطفالها، وهو شيء لم يكن ليُسمح لها بفعله لو أن ساتيبي كانت على طبيعتها وكان المنزل سيضج بالنزاعات الحادة، فسلمت ساتيبي بالأمر تماماً.

قالت رينيسنب: هل تحدثتَ مع إيزا؟ جدتنا تعرف كثيراً عن النساء وعللهن.

انزعج يحموس قليلاً، وقال: إيزا تطلب مني أن أكون شاكراً لهذا التغير وأن آمل في استمراره.

ترددت رينيسنب ثم قالت: وهل سألت حينيت؟

تجهم يحموس وقال: حينيت؟ لا، بالتأكيد لن أتحدث مع حينيت في أمر كهذا. يكفيها ما لديها من غرور؛ لقد أفسدها والدي.

- نعم، أعلم ذلك. إنها مملة، لكنّ رغم ذلك... حسناً، حينيت تعلم ما يجري دائماً.

- هل يمكنك سؤالها يا رينيسنب وإخباري بما تقوله؟

- سأفعل إن أحببت.

أخرت رينيسنب سؤالها حتى استطاعت الاختلاء بحينيت في غرفة الحياكة، وأدهشها أن هذا السؤال جعل حينيت تشعر بعدم الارتياح ولم تستجب لجشعها المعتاد في الاستغابة. لمست حينيت إحدى التعاويذ التي ترتديها ونظرت خلفها قائلة: لا شأن لي بالموضوع... ليس من شأني ملاحظة ما إذا كان أي شخص على سجيته أم لا؟ إنني أهتم بشؤوني فقط، إذا كان ثمة مشكلة فلا أحب أن أتورط فيها.

- مشكلة؟

رمتها حينيت بنظرة سريعة بطرف عينها وقالت: لا مشكلة تهمنا، على أية حال فليس لدينا -أنا وأنت يا رينيسنب- ما نوبّخ أنفسنا بشأنه، وهذا يريحني كثيراً.

- أتعنين أن ساتيبي... ماذا تعنين؟

- لا أعني أي شيء يا رينيسنب، وأرجوك ألاّ تفهمي أنني أعني شيئاً. أنا أفضل بقليل من خادمة في هذا المنزل، وليس من شأني إعطاء رأيي في أمور لا تهمني. إذا سألتني فإن هذا التغير هو للأفضل، وإذا توقف الأمر عند هذا الحد فإنه جيد. والآن أرجوك يا رينيسنب، يجب أن أتأكد أنهم يطبعون التاريخ المناسب على الملاءات. أولئك النساء مهملات... دائماً يتحدثن ويضحكن ويهملن عملهن!

راقبتها رينيسنب غير مقتنعة بإجاباتها وهي تغادر غرفة الحياكة، ثم مشت ببطء إلى المنزل فدخلت بهدوء إلى غرفة ساتيبي، وارتدّت ساتيبي صارخة عندما لمست رينيسنب كتفها: لقد أخفتني، لقد ظننت...

- ما الأمر يا ساتيبي؟ ألا تريدين إخباري؟ إن يحموس قلق من أجلك و...

رفعت ساتيبي أصابعها إلى شفتيها وقالت وهي تتلعثم بعصبية وعيناها متسعتان خائفتان: يحموس؟ ماذا... ماذا قال؟

- إنه قلق، لقد كنت تصرخين في نومك.

أمسكتها ساتيبي من ذراعها وسألتها بقلق: رينيسنب، هل قلت؟... ماذا قلت؟

بدت عيناها متسعتين من الخوف وقالت: هل يظن يحموس؟... ماذا أخبرك؟

- أنا ويحموس نظنك مريضة... وتَعِسة.

- تعِسة؟

- ألست كذلك يا ساتيبي؟

- ربما، لا أعرف. الأمر ليس كذلك.

- أنت خائفة، أليس كذلك؟

حدقت ساتيبي إليها وفي عينيها عداوة مفاجئة وقالت: لماذا تقولين هذا؟ ممَّ أخاف؟ ما الذي سيخيفني؟

- لا أعلم، لكن ذلك صحيح، أليس كذلك؟

بجهد كبير استعادت ساتيبي شخصيتها القديمة وألقت برأسها إلى الوراء وصاحت بصوت مرتفع: لست خائفة من أي شيء ولا من أي شخص. كيف تقولين هذا الكلام يا رينيسنب؟ لن أسمح لك بالتحدث عني مع يحموس. أنا ويحموس متفاهمان... نوفريت ميتة وخلاصنا منها أمر جيد، هذا ما أقوله. أخبري أي شخص يسألك بأن هذا هو ما أشعر به.

- نوفريت؟

غضبت ساتيبي فجأة، فكأنما عادت إلى طبيعتها: نوفريت... نوفريت... نوفريت! لقد مللت من سماع هذا الاسم. لا نريد سماع هذا الاسم في هذا المنزل بعد الآن، والحمد لله على خلاصنا منها.

انخفض صوتها فجأة مع دخول يحموس الذي قال بقسوة غير

معتادة: اسكتي يا ساتيبي، لو سمعك والدي لتجددت المتاعب. كيف يمكنك التصرف بمثل هذا الغباء؟

ولئن كانت قسوة بحموس واستياؤه أمراً غير طبيعي، فكذلك كان انهيار ساتيبي الخانع؛ فقد همست: أنا آسفة يا بحموس.

- حسناً، كوني أكثر حذراً في المستقبل. لقد أثرتِ أنت وكيت معظم المتاعب من قبل، أنتن النساء ليس عندكن إحساس...

همست ساتيبي مرة أخرى، إنني آسفة!

خرج بحموس وقد اتخذت كتفاه شكلاً مربعاً، وكانت مشيته أكثر ثباتاً من المعتاد كأن حقيقة كونه فرض سلطته مرة أخرى قد أفادته.

* * *

مضت رينيسنب ببطء إلى غرفة إيزا آملة أن تجد عند جدتها رأياً يساعدها، لكن إيزا التي كانت تأكل العنب باستمتاع رفضت أن تأخذ الأمر بجدية. قالت: ساتيبي؟ ساتيبي؟ لِمَ كل هذه الجلبة بشأنها؟ هل تحبون أن تسيطر عليكم؟ ولماذا تثيرون ضجة لأنها تصرفت تصرفاً صحيحاً مرة في حياتها؟ لقد عاد بحموس إلى رشده. وعلى أية حال فالأمر ممتاز هكذا، وأخشى أن لا يستمر ما لم يحافظ بحموس عليه.

- بحموس؟

- نعم؛ أتمنى أن يكون بحموس قد عقل أخيراً وأوسعها

ضرباً، فهذا ما تحتاجه؛ فهي من النوع من النساء الذي يستمتع بذلك ولا بد أن بحموس بخنوعه وضعفه كان تجربة كبيرة بالنسبة إليها.

صرخت رينيسنب بحدة: بحموس عزيز ولطيف بالجميع، وهو رقيق كالمرأة... إن كانت النساء رقيقات.

قالت الكلمات الأخيرة مشككة، وضحكت إيزا قائلة: استدراك جيد يا حفيدتي. ليست النساء وديعات، وليحيهنّ إيزيس إن كنّ كذلك! قلة من النساء من يحببن الأزواج العطوفين اللطفاء؛ المرأة - عادة - تحب رجلاً قوياً مثل سوبك أو فتىً ذكياً يجيد الغناء الجميل ويختار أجمل قصائد الحب مثل كاميني، أليس كذلك؟

تورّدت وجنتا رينيسنب لكنها حاولت أن تتمالك نفسها وقالت بحدة: لا أعرف ماذا تعنين؟

نظرت إيزا إلى رينيسنب بعينيها شبه العمياوين وقالت: كلكم تظنون أن إيزا العجوز لا تعرف ما يجري، لكنني أعرفه جيداً... ربما أعلم بالأمر قبل أن تعلموه أنتم يا ابنتي. لا تغضبي، هكذا الحياة يا رينيسنب. كان خاي زوجاً جيداً لك ولكنه يبحر بقاربه الآن في بحور القرابين، وسوف تعثر الأخت على أخ آخر يصطاد سمكة في أنهار هذه الحياة الدنيا. ولا يعني هذا أن كاميني سوف يكون نافعاً، فريشة الحبر ولفافة البردي هي حلمه... إنه شاب جذاب ويملك ذوقاً جيداً في الأغاني، ولكني لست واثقة - لهذا السبب - أنه الرجل المناسب لك. نحن لا نعرف كثيراً عنه، فهو من الشمال. ورغم أن إمحوتب راضٍ عنه إلا أن إمحوتب غبي وقد يخدعه أي شخص بالنفاق والرياء. انظري إلى حينيت مثلاً...

قالت رينيسنب بحدة: أنت مخطئة تماماً.

- حسناً، أنا مخطئة، فوالدك ليس غبياً.

- لم أعنِ ذلك، عنيت...

تجهمت إيزا وقالت: أعلم ما تعنين يا ابنتي. لكنك لا تعرفين، لا تعرفين أهمية أن تجلسي باسترخاء مثلما أفعل أنا خالية الذهن من موضوع الإخوة والأخوات هذا ومن الحب والكره، وتأكلي طير السمّان المطهو جيداً ثم كعكة بالعسل وبعض الكرات والكرفس مع العنب السوري ولا تهتمي بالعالم حولك، ولا تنظري إلى كل المشكلات والآلام وتعلمي أن أياً منها لن يؤثر فيك بعد الآن، وتري ابنك يجعل من نفسه أضحوكة لأجل فتاة جميلة وتريها تنفذ الأمور كما تريد... ذلك يجعلني أضحك. اسمعي، لقد أحببت تلك الفتاة رغم أنها كانت تحمل الشر في داخلها. أجل، الطريقة التي جرحت بها نقاط ضعفهم الواحد تلو الآخر. سوبك مثل البالون المثقوب، وآيبي الطفل ويحموس المحرج كزوج مضطهد... كان مشهداً يشبه النظر في صفحة بركة صافية واضحاً ودقيقاً. لقد جعلتهم يرون أشكالهم الحقيقية كما يراهم العالم كله. ولكن لماذا كرهتك أنت يا رينيسنب؟

قالت رينيسنب بشك: هل كانت تكرهني؟ حاولتُ ذات مرة أن نكون صديقتين.

- ورفضَت؟ لقد كرهتك حقاً يا رينيسنب.

سكتت إيزا وفكرت قليلاً، ثم قالت: هل يكون ذلك بسبب كاميني؟

تصاعدت الدماء إلى وجه رينيسنب وقالت: كاميني؟ لا أعرف ماذا تقصدين.

فكرت إيزا: هي وكاميني كلاهما من الشمال، ولكنك كنت أنت التي استحوذت على اهتمام كاميني.

قالت رينيسنب بسرعة: يجب أن أذهب لرؤية تيتي.

أسرعت رينيسنب وخداها يلتهبان عبر الفناء إلى البحيرة، ولحقت بها ضحكة إيزا الحادة المسرورة.

ناداها كاميني من الشرفة: لقد نظمت أغنية جديدة يا رينيسنب، هل تسمعينها؟

هزت رأسها بالرفض وأسرعت. كان قلبها يخفق بغضب... كاميني ونوفريت، نوفريت وكاميني! لماذا تسمح لإيزا العجوز -بحبها الخبيث للخصام- أن تضع مثل هذه الأفكار في رأسها؟ ولماذا تهتم؟ على أية حال فماذا يهم؟ إنها لم تكن تهتم بكاميني أبداً... فتى طارئ ذو صوت ضحوك وكتفين تذكرانها بخاي.

خاي... خاي!

كررت اسمه بإلحاح، لكن صورته - لأول مرة - لم تظهر أمامها بوضوح. كان خاي في عالم آخر، كان في حقول القرابين!

-٣-

- رينيسنب...

كرر حوري اسمها مرتين قبل أن تسمعه وتقطع تأملاتها في النيل.

- كنتِ مستغرقة في التفكير يا رينيسنب؟ فيم كنت تفكرين؟

- كنت أفكر في خاي.

قالتها بتحدٍّ، فنظر حوري إليها لحظات ثم ابتسم وقال: فهمت.

بدت على رينيسنب علامات القلق التي رآها حوري، وقالت بسرعة مفاجئة تخاطب حوري: ماذا يحدث للمرء عندما يموت؟ أيعلم أحدٌ فعلاً؟ كل تلك النصوص وكل تلك الأشياء التي كُتبت على التوابيت بعضها في غاية الغموض كأنها لا تعني أي شيء... الأمر محير.

أومأ حوري بلطف فقالت متسائلة: فما الذي يحدث حقاً عندما نموت؟

- لا أستطيع إخبارك يا رينيسنب؛ يجب أن تسألي أحد الكهنة تلك الأسئلة.

- سوف يجيبني بالأجوبة المعهودة، أريد أن أعرف.

- لن يستطيع أي منا المعرفة حتى نموت شخصياً.

ارتجفت رينيسنب وقالت: لا تقل ذلك.

- هل أزعجك شيء ما يا رينيسنب؟

صمتت رينيسنب ثم قالت: نعم، أزعجتني إيزا. ولكن أخبرني يا حوري: هل... هل كان كاميني ونوفريت يعرفان بعضهما بعضاً جيداً قبل أن يأتيا هنا؟

وقف حوري صامتاً لحظة، ثم قال وهو يمشي إلى جانب رينيسنب وهما في طريق العودة إلى المنزل: فهمت، إذن هذا هو الأمر.

- ماذا تعني بقولك: "هذا هو الأمر"؟ سألتك سؤالاً فقط.

- لا أملك له جواباً. نوفريت وكاميني كانا قد تعارفا في الشمال، أما مدى المعرفة فلا أدري. وهل يهم ذلك؟

- لا، بالطبع لا. الأمر ليس بذي أهمية قط.

- نوفريت ميتة.

- ميتة ومحنطة ومختوم عليها في قبرها، وهذا هو الأمر.

حوري بهدوء: وكاميني لا يبدو عليه الحزن.

قالت رينيسنب وقد صُدمت لهذه الفكرة: نعم، ليس حزيناً... آه يا حوري، أنت رجل طيب!

ابتسم وقال: لقد أصلحت أسد رينيسنب الصغيرة، والآن لديها ألعاب أخرى.

حين وصلا إلى المنزل تجنبت رينيسنب الدخول إليه قائلة: لا أريد الدخول بعد؛ أشعر أنني أكرههم جميعاً. لا، ليس حقاً... أنت تفهم، ولكني عنيدة ونافدة الصبر وكل شيء يبدو لي غريباً. ألا يمكننا الصعود إلى الضريح؟ إن المكان جميل جداً ويجد المرء نفسه هناك... فوق كل شيء.

- هذا ذكاء منك يا رينيسنب. المنزل والزراعة والمزارع أثقال تافهة تشد الإنسان إلى دائرة ضيقة من الهموم والتفكير. يجب أن نتجاوز الطين والأرض والضجة إلى النهر ومصر كلها، وسنجد الحياة أجمل وأكثر متعة ونحن نتأمل ونفكر في مصر قوية موحدة كما كانت في الماضي.

- وماذا يهمنا في ذلك؟

ابتسم حوري وقال: الأمر لا يهم رينيسنب الصغيرة، فهي لا تهتم إلاّ بأسدها الخشبي.

- إنك تسخر مني يا حوري. إذن فهل يهمك الأمر؟

- لماذا يجب أن يهمني؟ أنا مجرد مدير أعمال الكاهن. لماذا يجب أن أهتم أن تكون مصر عظيمة أو صغيرة؟

أشارت رينيسنب إلى الصخرة فوقهما وقالت: انظر.

كان يحموس وساتيبي ينزلان عائدَين من الضريح.

- بعض لفافات الكتان التي لم يستعملها المحنطون... قال يحموس إنه سوف يطلب من ساتيبي أن تشير عليه ماذا يفعل بها.

وقف الاثنان ينظران إلى يحموس وساتيبي اللذين كانا يهبطان من الممر العلوي. وأدركت رينيسنب فجأة أنهما يقتربان من البقعة التي سقطت منها نوفريت، وكانت ساتيبي متقدمة ويحموس يمشي خلفها بقليل. وفجأة استدارت ساتيبي لتكلم يحموس، وفكرت رينيسنب... ربما كانت تقول له إن هذا هو المكان الذي وقع فيه الحادث.

وفجأة تصلبت ساتيبي في مكانها وتوقفت وكأنها تجمدت تحدق إلى الممر خلف يحموس، وارتفعت ذراعاها كأنها قد رأت منظراً فظيعاً أو لكي تحمي نفسها من ضربة. وصرخت بشيء ما، ثم تعثرت وتمايلت، ثم أسرع يحموس نحوها... وسُمعت صرخة رعب، واندفعت نحو الهاوية متجهة نحو الصخور تحتها.

راقبت رينيسنب سقوطها بدهشة... كانت ساتيبي مستلقية جثة مكسّرة كما كانت نوفريت من قبل!

نهضت رينيسنب وأسرعت إليها، وكان يحموس ينادي ويجري عبر الممر. وصلت رينيسنب حيث كانت جثة زوجة أخيها فانحنت عليها، كانت عينا ساتيبي مفتوحتين ورموشها ترتعش وشفتاها تتحركان وهي تحاول الحديث، واقتربت رينيسنب منها أكثر فراعتها نظرة الرعب في عيني ساتيبي.

ثم أتى صوت المرأة المحتضرة، كان صوتها نعياً أجش: نوفريت...

مال رأس ساتيبي إلى الخلف وأغلق فمها. ودار حوري لملاقاة يحموس، وصعد الرجلان معاً، ثم التفتت رينيسنب نحو أخيها قائلة: ما الذي صرختْ به قبل أن تقع؟

كان تنفس يحموس متقطعاً يكاد لا يستطيع الحديث، قال: نظرَتْ خلفي، من وراء كتفي، كأنها رأت شخصاً يأتي عبر الممر. لكن أحداً لم يكن هناك، لم يكن هناك أحد أبداً.

وافقه حوري: لم يكن هناك أحد.

وانخفض صوت يحموس إلى همسة خائفة: ثم صرخت...

- ماذا قالت؟

- قالت... قالت: نوفريت!

* * *

الفصل الثاني عشر

الشهر الأول من فصل الصيف

اليوم الثاني عشر

- إذن فهذا ما كنتَ تعنيه؟

ألقت رينيسنب تلك الكلمات على حوري تأكيداً لا سؤالاً، ثم أضافت بخوف ورعب متزايدين: ساتيبي هي التي قتلت نوفريت إذن؟

كانت تجلس في مدخل غرفة حوري الصخرية الصغيرة قرب الضريح وقد أسندت ذقنها إلى راحتيها تتأمل الوادي أسفل منها. فكرت وكأنها تحلم إلى أي مدى كانت كلماتها صحيحة بالأمس: أحقاً لم يمضِ سوى يوم واحد على تلك الأقوال؟ ومن مكانها هنا على هذا المرتفع بدا لها المنزل والناس المسرعون حوله غيرَ ذي أهمية أو معنى، تماماً كعش نمل.

وحدها الشمس في جلال قوتها وإشعاعها، ووحده النيل، ذلك الشريط الفضي الشاحب في ضوء هذا الصباح... وحدهما الشمس والنيل كانا خالدَين باقيين. لقد مات خاي وماتت نوفريت

وساتيبي، وفي يوم ما ستموت هي ويموت حوري. ولكن النهر سيستمر في فيضانه من منابعه في الجنوب مروراً بطيبة، وبهذا القرية، إلى مصر السفلى حيث عاشت نوفريت سعيدة هانئة، ليصب أخيراً في «المياه العظمى» مودّعاً مصر كلها.

ساتيبي ونوفريت... تابعت رينيسنب تفكيرها بصوت عالٍ لأن حوري لم يكن يجيبها: هل تعلم؟ كنت واثقة تماماً أن سوبك هو...

ثم قطعت حديثها، فقال حوري وهو يفكر: الأفكار المسبقة.

- ما أغباني! كان يجب أن أدرك ذلك منذ أخبرتني حينيت أن ساتيبي خرجت تمشي في هذا الاتجاه وقالت إن نوفريت خرجت قبلها في الاتجاه نفسه، كما كان واضحاً أن ساتيبي قد لحقت بنوفريت وأنهما قد التقتا عند الممر فدفعت ساتيبي بها إلى الأسفل... كانت قد قالت قبل وقت قصير إنها أكثر رجولة من كل إخوتي.

صمتت رينيسنب وارتجفت ثم تابعت: وعندما التقيت بها (وكان يجب أن أعرف آنذاك) رأيتها هلعة وحاولت إقناعي بالعودة معها. لم تُرد أن أجد جثة نوفريت... لا بد أنني كنت عمياء إذ لم أدرك الحقيقة، ولكنني كنت خائفة جداً على سوبك.

- أعرف ذلك، كان ذلك بسبب الأفعى؟

- نعم، هكذا كان الأمر. ثم رأيت ذلك الحلم... سوبك المسكين، كيف أسأت الحكم عليه؟ كما قلت: إن التهديد لا يعني التنفيذ. كان سوبك يحب التفاخر بالحديث وساتيبي هي الصريحة والقاسية دائماً، ولم تكن تخشى التنفيذ، ومنذ ذلك الحين تحولت إلى ما يشبه الشبح بطريقة حيرتنا جميعاً، لِمَ لم نفكر في التفسير الصحيح؟

نظرت نظرة سريعة إلى الأعلى وقالت: ولكنك فكرت.

- لقد كنت مقتنعاً منذ بعض الوقت بأن مفتاح لغز موت نوفريت يكمن في التغير العجيب في شخصية ساتيبي. كان التغير كبيراً ومهماً إلى الحد الذي يؤكد وجود سبب ما له.

- ولكنك لم تقل شيئاً.

- لم يكن في استطاعتي يا رينيسنب، فليس لدي دليل. الأدلة يجب أن تكون حقائق صلبة راسخة.

جادلته رينيسنب: لكنك قلت - ذات مرة - إن الأشخاص لا يتغيرون حقاً، والآن تعترف بأن ساتيبي قد تغيرت فعلاً.

ابتسم حوري وقال: تصلحين للترافع في محاكم نومارتش! لا يا رينيسنب، ما قلته كان صحيحاً لأن الأشخاص هم أنفسهم لا يتغيرون: لقد كانت ساتيبي كسوبك، كلها كلمات قوية جريئة، وكان يمكنها فعلاً أن تنتقل من الكلام إلى الفعل، ولكنني أعتقد أنها واحدة من أولئك الذين لا يعرفون الأمور وحقائقها إلا بعد حدوثها، إذ لم يسبق لها - قبل ذلك اليوم - أن خافت من أي شيء، وعندما دهمها الخوف أخذها على حين غرة، فأدركت - وقتها - أن الشجاعة الحقيقية هي الثبات في وجه المجهول، ولم تكن لديها مثل تلك الشجاعة.

همست رينيسنب بصوت خافت: عندما دهم الخوف... أجل، هذا ما أصابنا منذ موت نوفريت. كان ظاهراً على وجه ساتيبي لنراه جميعاً، كان يطل من عينيها عندما ماتت، عندما قالت: "نوفريت"، كأنها قد رأت...

سكتت رينيسنب عن الكلام، والتفتت لمواجهة حوري وفي عينيها سؤال: ماذا رأت يا حوري؟ هناك على الممر؟ نحن لم نرَ شيئاً، فلم يكن هناك شيء.

- بالنسبة لنا لم يكن هناك شيء.

- فماذا عنها إذن؟ هل رأت نوفريت قادمة لتنتقم؟ ولكن نوفريت ميتة وقبرها مختوم، ما الذي رأته إذن؟

- الصورة التي صوّرها عقلها.

- هل أنت متأكد؟ لأن الأمر لو لم يكن مجرد صورة...

- أكملي يا رينيسنب، لو لم يكن مجرد صورة؟

- حوري! هل انتهى الأمر الآن؟ الآن وقد ماتت ساتيبي هل انتهى الأمر حقاً؟

- نعم، نعم يا رينيسنب؛ أنت - على الأقل - لا داعي لأن تخافي.

همست رينيسنب: لكن إيزا تقول إن نوفريت كرهتني!

- نوفريت كرهتك؟

- هكذا تقول إيزا.

- لقد كانت نوفريت مشهورة بالكره، وأظنها أحياناً كرهت كل شخص في هذا المنزل، ولكنك لم تؤذيها بشيء.

- نعم، أبداً.

- ولذلك فليس في عقلك أنت ما يؤرقك من هذا الأمر.

- هل تعني - يا حوري - أنني إذا عبرت هذا الممر وحدي عند الغروب في ذات الوقت الذي ماتت فيه نوفريت وإذا أدرت رأسي فلن أرى شيئاً؟ هل أكون آمنة؟

سوف تكونين آمنة يا رينيسنب لأنك إذا مشيت عبر الممر فسوف أمشي معك، ولن يصيبك أي أذى.

لكن رينيسنب تجهمت وهزت رأسها وهي تقول: لا يا حوري؛ سوف أمشي وحدي.

- لماذا يا رينيسنب الصغيرة؟ ألا تخافين؟

- بلى، أظن أنني سأخاف، ولكن عليّ أن أفعل هذا رغم ذلك. إن كل مَن في المنزل يرتجفون ويرتعشون ويذهبون إلى المعابد لكي يشتروا التعاويذ، ويقولون إن المشي ليس ملائماً في هذا الممر في ساعة المغيب. ولكن ما قتل ساتيبي لم يكن السحر، بل الخوف. الخوف بسبب عمل شرير ارتكبته، فليس أشر من انتزاع الحياة من إنسان شاب قوي يتمتع بالحياة. أما أنا فلم أرتكب أي عمل شرير، ولذلك فحتى لو كرهتني نوفريت فعلاً فإن كراهيتها لن تؤذيني. هذا ما أؤمن به. ومع ذلك فإن من الأفضل للمرء أن يموت من أن يعيش في خوف دائم، ولذلك فإنني سأتغلب على خوفي.

- هذا كلام شجاع يا رينيسنب.

- ربما هذا الكلام أشجع فعلاً من حقيقة مشاعري يا حوري.

ابتسمت ووقفت على قدميها وهي تضيف: ولكن كان من المفيد قوله.

نهض حوري ووقف بجانبها قائلاً: سوف أذكر كلماتك تلك يا رينيسنب، أجل، والطريقة التي أرجعت بها رأسك إلى الخلف عندما قلتها تظهر الشجاعة والصدق التي كنت أشعر دائماً بأنك تتحلين بهما.

وأخذ يديها بين يديه وقال: انظري يا رينيسنب، انظري من هنا إلى الوادي والنهر وما وراءهما. تلك هي مصر؛ أرضنا التي مزقتها الحروب والنزاعات لسنوات طويلة وقسمتها ممالك صغيرة. مصر هذه ستعود قريباً موحدة وقوية كما كانت، وعندها ستحتاج مصر إلى رجال ونساء شجعان مثلك يا رينيسنب، لا مثل إمحوتب المشغول دائماً بأرباحه وخسائره أو سوبك الكسول الثرثار، ولا أولاداً مثل آيبي يفكرون فقط فيما يمكن أن يحققوه لأنفسهم. لا، ولا حتى مثل يحموس الرقيق حي الضمير. لقد استطعت وأنا جالس هنا بين الموتى عملياً أن أحسب الأرباح والخسائر، استطعت أن أرى الأرباح التي لا يمكن حسابها بالمال والخسائر التي هي أهم من خسارة المحصول، أنظر إلى النهر وأرى حياة مصر الذي كان قبل أن نولد وسوف تستمر بعد أن نموت. إن الحياة والموت ليسا على ذلك الجانب من الأهمية يا رينيسنب؛ إنني مجرد حوري مدير أعمال إمحوتب، ولكنني عندما أنظر إلى مصر أعرف معنى السلام. أجل،

أشعر بابتهاج لست مستعداً لأن أستبدل به منصب حاكم المقاطعة، هل تفهمين ما أعني يا رينيسنب؟

- أظن ذلك يا حوري... قليلاً. أنت تختلف عن الآخرين هناك؛ لقد أدركت ذلك منذ زمن بعيد. وأحياناً عندما أكون معك هنا أشعر بما تشعر به، ولكن بشكل باهت ينقصه الوضوح. ولكنني أدرك ما تعنيه. عندما أكون هنا فإن كل شيء هناك في المنزل لا يعود ذا معنى بالنسبة لي، تلك المشاجرات والكراهية والجلبة والهرج المتواصل... هنا يهرب المرء من كل ذلك.

ثم تجهمت وقالت متلعثمة: أحياناً أنا... يسعدني الهروب، ولكنني رغم ذلك لا أعلم، فإن شيئاً ما هناك يدعوني إلى العودة.

ترك حوري يدها وتراجع خطوة إلى الخلف، وقال بلطف: نعم، أفهم؛ إنه غناء كاميني.

- ماذا تعني يا حوري؟ لم أكن أفكر في كاميني.

- ربما، ولكن أغانيه تدعوك إلى العودة.

حدقت إليه رينيسنب وازدادت تجهماً وقالت: إنك تقول أشياء غريبة يا حوري. كيف للمرء أن يسمعه يغني من هنا؟ إن المسافة بعيدة جداً.

تنهد حوري بلطف وهز رأسه، ولمعت عيناه بشكل حيّرها فشعرت قليلاً بالغضب والحيرة لأنها لم تستطع أن تفهم ما يعنيه!

* * *

الفصل الثالث عشر

الشهر الأول من فصل الصيف

اليوم الثالث والعشرون

-١-

- هل يمكنني الحديث إليك قليلاً يا إيزا؟

نظرت إيزا بحدة إلى حينيت التي كانت عند مدخل الغرفة وقد علت وجهها ابتسامةٌ متملقة. قالت: ما الأمر؟

- إنه أمر غير مهم في الواقع، أو أنني أظنه كذلك على الأقل، ولكنني وددت أن أسأل...

قاطعتها إيزا بحدة: هيا إذن، ادخلي. وأنتِ (ونقرت بعصاها العبدةَ السوداء التي كانت تخيط الخرز) اذهبي إلى المطبخ، أحضري لي بعض الزيتون وحضّري لي شراباً من عصير الرمان.

أسرعت الفتاة الصغيرة وأومأت إيزا إلى حينيت بنفاد صبر، فقالت حينيت: إنه هذا يا إيزا.

نظرت إيزا إلى الشيء الذي تحمله حينيت، وكان صندوق جواهر صغيراً ذا غطاء متحرك مغلق من الأعلى بزرين اثنين. قالت: ماذا بشأنه؟

- إنه لها، ولقد عثرت عليه الآن في غرفتها.

- عمّن تتحدثين؟ ساتيبي؟

- لا، لا يا إيزا. بل الأخرى.

- تعنين نوفريت؟ ماذا في ذلك؟

- كل جواهرها ومراهمها وعطورها... كل شيء كان قد دُفن معها.

نزعت إيزا الرباط عن الزرّ وفتحت الصندوق. كان فيه عقد من خرز العقيق الأحمر ونصف تميمة مصقولة خضراء قسمت إلى نصفين. قالت إيزا: ليست شيئاً مهماً، ربما غفل عنها المحنطون.

- ولكنهم أخذوا كل شيء.

- المحنطون ليسوا أفضل من غيرهم؛ وهم ينسون أحياناً.

- أقول لك يا إيزا: لم يكن هذا في غرفتها عندما تفقدتها آخر مرة.

نظرت إيزا إلى حينيت بحدّة وقالت: ما الذي تحاولين قوله؟ إن نوفريت قد عادت من العالم السفلي وهي هنا في هذا المنزل؟ لستِ غبية يا حينيت رغم أنك تحبين التظاهر بذلك أحياناً. ما المتعة

التي تحصلين عليها من نشر قصص السحر السخيفة هذه؟

كانت حينيت تهز برأسها بشدة وهي تردد: كلنا يعرف ما الذي أصاب ساتيبي ولماذا أصابها.

- ربما تعرف، وربما كان بعضنا يعرف من قبل. صحيح يا حينيت؟ كنت أظن دائماً أنك تعرفين عن وفاة نوفريت أكثر منا جميعاً.

- آه يا إيزا، أنت بالتأكيد لا تظنين لحظة...

قاطعتها إيزا: ما الذي لا أظنه؟ أنا لا أخشى التفكير يا حينيت. لقد رأيت ساتيبي تتجول في المنزل في الشهرين الأخيرين وهي تبدو في غاية الخوف، وقد خطر لي منذ أمس أن أحدهم كان يهددها بمعلوماته، وربما هددها بإخبار يحموس أو إمحوتب ذاته.

انفجرت حينيت مطلقة موجةً حادة من الاحتجاجات والهتافات، فأغمضت إيزا عينيها واتكأت إلى الخلف في مقعدها وقالت: لا أظن أنك ستعترفين لحظة بارتكاب مثل هذا الأمر، أنا لا أتوقع منك ذلك.

- لماذا أفعل ذلك؟ لماذا أفعل ذلك؟

- ليست لدي فكرة. أنت تفعلين أموراً كثيرة يا حينيت ولا أجد سبباً مقنعاً لها.

- لعلك تظنين أنني كنت أحاول أن أجعلها تشتري صمتي. أقسم بآلهة أبيد التسع...

- لا تزعجي الآلهة! أنت أصدق من الصدق يا حينيت، وربما لم تكوني تعرفين شيئاً عن وفاة نوفريت، ولكنك تعرفين معظم الأمور التي تجري في هذا المنزل. وإذا كان لي أنا أن أقسم فسأقسم بأنك أنت وضعت هذا الصندوق في غرفة نوفريت بنفسك، رغم أنني لا أستطيع أن أتخيل لماذا؟ ولكن وراء ذلك سبباً. يمكنك خداع إمحوتب بحيلك تلك، ولكنك لا تستطيعين خداعي. ولا تنتحبي! إنني امرأة عجوز لا أطيق الناس الذين ينتحبون. اذهبي وانتحبي أمام إمحوتب فإنه يحب ذلك.

- سوف آخذ الصندوق إلى إمحوتب وأقول له...

- سوف أسلمه الصندوق بنفسي. اذهبي يا حينيت وكفّي عن نشر تلك الخرافات السخيفة. لقد أصبح المنزل أكثر هدوءاً بدون سانيبي، ونفعتنا نوفريت وهي ميتة أكثر مما فعلت وهي حية، فدعي الجميع الآن - وقد تمّ سداد الدين - يعودون إلى أعمالهم بسلام.

-٢-

قال إمحوتب متكراً وهو يدخل بضجة غرفة إيزا بعد بضع دقائق: ما هذا؟ حينيت منزعجة... لقد جاءت إليّ والدموع تجري على خديها. ألا يستطيع أحد في هذا المنزل أن يظهر العطف الذي تستحقه هذه المرأة المخلصة؟

ضحكت إيزا بلامبالاة، وأكمل إمحوتب: لقد اتهمتها بسرقة صندوق جواهر.

- أهذا ما أخبرتك به؟ لم أتهمها بذلك، وها هو الصندوق. يبدو أنه عُثر عليه في غرفة نوفريت.

أخذه إمحوتب منها وقال: نعم، لقد أعطيتها إياه.

وفتحه ثم قال: ليس فيه شيء كثير. يا لإهمال المحنطين إذ لم يضعوه في القبر مع بقية حاجاتها الشخصية! إهمال لا يتناسب مع ما يتقاضونه من أجور عالية. ولكن كل هذه الضجة كانت بلا سبب.

- بالتأكيد.

- سوف أعطي الصندوق لكيت... لا، بل لرينيسنب لأنها تصرفت دوماً بلباقة مع نوفريت. مستحيل أن يحصل الرجل على الهدوء... تلك النساء؛ دموع لا تنتهي ومشاجرات ومشاحنات!

- حسناً يا إمحوتب، على الأقل نقصت امرأة واحدة الآن.

- نعم؛ المسكين يحموس! أشعر يا أمي أن... ربما كان ذلك للأفضل. لقد أنجبت سانيبي أولاداً أصحّاء لكنها كانت زوجة سيئة في نواحٍ أخرى، وكان يحموس يستسلم لها كثيراً، وقد انتهى الأمر الآن. يجب أن أقول إنني مسرور بتصرفات يحموس في الفترة الأخيرة؛ إنه يبدو أكثر ثقة بنفسه وأقل خوفاً وأكثر حكمة.

- كان دائماً ابناً جيداً ومطيعاً.

- نعم، نعم، ولكنه كان ميّالاً إلى التباطؤ ويخشى المسؤولية أحياناً.

قالت إيزا بجفاء: إن المسؤولية هي الأمر الذي لم تسمح له يوماً بتحمله.

- كل هذا سيتغير. إنني أعد صكاً للمشاركة سيتم توقيعه في غضون بضعة أيام، وسوف أشرك معي أبنائي الثلاثة.

- وفيهم آيبي؟

- سوف تُجرح مشاعره إن استثنيته، إنه فتى عزيز عطوف.

- وليس بطيئاً أبداً في طموحاته!

- كما قلت. وسوبك أيضاً، كنت مستاء منه في الماضي لكنه بدأ صفحة جديدة ولم يعد يضيع وقته، كما أنه يطيعني ويطيع يحموس.

- ها أنذا أسمع ترانيم المديح! حسناً يا إمحوتب، يجب أن أقول إنك تفعل الصحيح. لقد كانت إثارة أبنائك تصرفاً سيئاً، ولكنني أظن أن آيبي لا يزال صغيراً جداً على ما تقترحه... من السخافة إعطاء صبي في مثل هذا العمر مركزاً محدداً، كيف تستطيع السيطرة عليه؟

بدأ إمحوتب ساهماً يفكر: لعل فيما تقولين بعض الصواب. ثم نهض قائماً وقال: يجب أن أذهب، فآلاف الأمور تنتظر المتابعة: المحنّطون واستعدادات من أجل جنازة ساتيبي... هذه الوفيات مكلفة، مكلفة جداً، لا سيما أنها متتابعة!

قالت إيزا تواسيه: أرجو أن تكون هي الأخيرة حتى يحين موعدي.

- أتمنى أن تعيشي سنوات طوالاً يا أمي العزيزة.

ابتسمت إيزا وقالت: أنا واثقة أنك تأمل ذلك. لا تقتصد في نفقاتي إذا سمحت، فلن يبدو ذلك جيداً! أريد عديداً من الأدوات لكي تسلّيني في العالم الآخر، كثيراً من الطعام والشراب وكثيراً من دمى العبيد ورقعة ألعاب كبيرة مزخرفة ومجموعة من العطور وأدوات تجميل... كما أنني أصر على أغلى الجرار، الجرار المرمرية.

- نعم، نعم؛ بالتأكيد. سوف تحظين بالاحترام والتقدير عندما يأتي ذلك اليوم الحزين. يجب أن أعترف بأن شعوري قد تغير نحو ساتيبي، لا يريد المرء إثارة فضيحة ولكن في ظل الظروف...

ولم يكمل إمحوتب جملته بل أسرع خارجاً، وابتسمت إيزا بسخرية وهي تدرك أن تلك الجملة «في ظل الظروف» هي أقرب حد يكاد به إمحوتب يعترف بأن وفاة نوفريت لم تكن حادثاً عرضياً.

* * *

الفصل الرابع عشر

الشهر الأول من فصل الصيف

اليوم الخامس والعشرون

-١-

رجع أفراد العائلة من محكمة نومارتش، وتم تصديق صك المشاركة، وعم جو من المرح. كان أبي مستثنى من جو المرح هذا لأنه أبعد عن المشاركة في اللحظة الأخيرة نظراً لصغر سنه، فصار متجهماً وتغيب عن المنزل متعمداً.

وطلب إمحوتب إعداد وليمة كبيرة من الطعام والشراب احتفاء بالمناسبة، وقال ليحموس معزّياً: يجب أن تنسى حزنك على ما فقدت يا بني، ولتفكر فقط في الأيام الجيدة القادمة. فليس في الحياة سعة لحزن طويل.

شرب إمحوتب ويحموس وسوبك وحوري الشراب، ثم جاءت الأخبار أن أحد الثيران قد سُرق فخرج الرجال الأربعة مسرعين كي يحققوا في الأمر.

وعندما دخل يحموس الفناء مرة أخرى بعد ساعة كان متعباً ويشعر بالحر، فذهب حيث كانت آنية الشراب لمّا تزل على المنضدة، وملأ كأساً برونزية وجلس في الشرفة يرتشف شرابه بهدوء. ثم جاء بعده بقليل سوبك وهو يهتف بسرور: والآن، لمزيد من الشراب، لنحتفل بمستقبلنا الذي أصبح مضموناً أخيراً... إنه يوم سعيد لنا يا يحموس.

وافقه يحموس: نعم، بالتأكيد؛ سوف يسهّل لنا الحياة.

- أنت دائماً معتدل في مشاعرك يا يحموس.

ضحك سوبك وتناول كأساً من الشراب واجترعه ثم قال: لنرَ هل يظل والدنا رجعياً كما كان أم أننا نستطيع أن نجعله رجلاً عصرياً؟

نصحه يحموس قائلاً: لو كنت مكانك لأخذت الأمور على مهل، إنك متهور دائماً.

ابتسم سوبك لأخيه بمحبة، فقد كان مزاجه رائقاً، وقال ساخراً: حكمتك القديمة: التقدم ببطء وثقة.

ابتسم يحموس وقال: إنها -في النهاية- أفضل طريق. ثم إن أبي كان في غاية الكرم، فلا يجب أن نفعل أي شيء يسبب له القلق.

نظر سوبك نحوه بفضول وقال: أنت تحب والدنا حقاً؟ أنت مخلوق محب يا يحموس. أما أنا فلا أهتم بأحد، لا أحد سوى سوبك... فليحيَ حياة طويلة!

وجرع جرعة أخرى من الشراب، فقال له يحموس: كن على حذر؛ لقد أكلت اليوم قليلاً، وأحياناً عندما يشرب المرء...

ثم سكت وقد لوى شفتيه فجأة، فقال سوبك: ما الأمر يا يحموس؟

- لا شيء، ألم مفاجئ، أنا... لا شيء.

ورفع يده ليمسح جبينه الذي امتلأ بالعرق.

- أنت لا تبدو على ما يرام.

- كنت الآن بخير.

- ما لم يضع أحد في الشراب سماً.

وضحك سوبك من كلمته ومد يده نحو الإبريق، ثم تصلبت ذراعه في الحال وانحنى جسده إلى الأمام بتأثير موجة من الألم، وشهق: يحموس، يحموس، أنا... أيضاً...

انحنى يحموس الذي كان ينزلق إلى الأمام أكثر، وخرجت منه صيحة مكبوتة. كان سوبك يتلوى من الألم ورفع صوته: النجدة! أرسلوا في طلب الطبيب... الطبيب!

أسرعت حينت إليهما من المنزل هاتفة: هل ناديتما؟ ماذا قلتما؟ ما الأمر؟

وجلبت صيحتُها المنذرة الآخرين، فيما كان الأخوان يصرخان من الألم.

قال يحموس بصوت منخفض: الشراب، السم... أرسلوا في طلب الطبيب.

فصرخت حينيت بحدة: مزيد من النحس! حقاً إن هذا المنزل ملعون! أسرعوا، أسرعوا؛ أرسلوا في طلب ميرسو الكاهن والطبيب الماهر المجرب.

-٢-

أخذ إمحوتب يذرع المكان جيئةً وذهاباً في قاعة المنزل الرئيسية. كان رداؤه الكتاني متجعداً وملوثاً ولم يستحم ولم يغير ملابسه، وكان وجهه متجعداً من القلق والخوف. وانبعثت من جانب المنزل أصوات العويل، فريق من النساء يندبن وحينيت تقودهن بنحيبها الموجع المرتفع.

وكان الطبيب الكاهن ميرسو يكافح محاولاً معالجة جسد يحموس الهامد، وجذب صوتُه رينيسنب من جناح النساء، إلى القاعة الرئيسية. وتوقفت هناك راجية بحرارة أن تنفع كلمات الكاهن وأدعيته شيئاً: يا إيزيس، أعتقينا من الشر والدم ومن غضب الرب! احمينا من الميت أو الميتة ومن العدو أو العدوة ممن يعادينا...

تنهّد يحموس بضعف، وشاركت رينيسنب بقلبها في الدعاء، وتذكرت نوفريت... هل هي التي آذت أخويها لتنتقم من العائلة؟ همست: لم يؤذك يحموس يا نوفريت رغم أن ساتيبي كانت زوجته، لا يمكن أن تحمّليه مسؤولية أعمالها؛ إنه لم يكن يستطيع السيطرة

عليها، وساتيبي التي آذتك ماتت. ألا يكفي هذا؟ وسوبك الذي كان يتحدث ضدك دون أن يؤذيك عملياً مات أيضاً... يا إيزيس، لا تدّعي يحموس يموت أيضاً، احمِه من كره نوفريت وحقدها!

نظر إمحوتب وهو يذرع المكان جيئةً وذهاباً إلى ابنته، فانفرجت أساريره بالمحبة والعطف: تعالي هنا يا رينيسنب، يا طفلتي العزيزة!

ركضت إليه فأحاطها بذراعيه فسألته: ماذا يقول الطبيب يا أبي؟

قال إمحوتب بحزن: ربما ينجو يحموس، أما سوبك فأنت تعلمين...

- نعم، نعم؛ ألم تسمعنا ننتحب؟

حشرج إمحوتب حشرجة محزنة: توفي عند الفجر سوبك القوي الوسيم!

- يا لهذا الشر والقسوة! ألا نستطيع أن نفعل شيئاً؟

- لقد فعلنا كل ما في استطاعتنا؛ قدّمنا جرعات من الترياق تدفعه إلى التقيؤ، وعصيراً من الأعشاب الفعّالة، وتليت التعاويذ المقدسة والتراتيل المطلوبة، ولكن دون جدوى! ميرسو طبيب ماهر، وإن لم يستطع إنقاذ ابني فستكون إرادة الآلهة أن يموت.

ارتفع صوت الطبيب الكاهن في ترنيمة أخيرة ثم خرج من الغرفة وهو يمسح العرق عن جبينه، وسأله إمحوتب بلهفة: خيراً؟

- سيشفى ابنك؛ إنه ما زال ضعيفاً ولكن زال خطر السم، والتأثير الشرير في تناقص.

- يحموس شرب كمية قليلة، أما سوبك فقد أفرط في الشراب... هكذا هما دائماً حتى في الطعام والشراب: يحموس حذر وبطيء وسوبك جريء ومتهور. هل كان الشراب مسمّماً بالتأكيد؟

- نعم، لا شك في ذلك؛ تأكدت من هذا، فقد فحص مساعدي الشراب وجربه في الحيوانات فماتت فوراً.

- ولكني شربت منه قبل ساعة من وقت شربهما ولم أشعر بشيء.

- لم يكن الشراب مسمماً عندها، لا بد أنه سُمّم بعد ذلك.

كوّر إمحوتب قبضته وقال: لا أحد يجرؤ أن يضع السم لأبنائي في هذا البيت. هذا مستحيل، ما من كائن يجرؤ على ذلك!

هز ميرسو رأسه بغموض وقال: أنت أفضل من يحكم في هذا يا إمحوتب.

وقف إمحوتب وهو يحك أذنه بعصبية، وقال فجأة: عندي قصة أريد أن تسمعها.

صفق بيديه فحضر خادمه وطلب منه أن يحضر الراعي، والتفت إلى ميرسو: سأريك فتى قليل العقل بطيء الفهم لا يسيطر تماماً على قواه الذهنية، ومع ذلك فإن له نظراً، ونظره قوي. وهو مخلص لابني يحموس كثيراً لأنه كان لطيفاً معه ومشفقاً على عاهته.

عاد الخادم يرافقه فتى أسود يرتدي ثوباً من جلد الأسد وله عينان تعبران عن خوف وغباء. خاطبه إمحوتب بحدة: أعد ما قلته لي قبل قليل.

نكس الولد رأسه وجعل يعبث بملابسه ويشدها بيديه المرتعشتين، فصرخ إمحوتب: تحدث.

جاءت إيزا وهي تعرج وتستند على عصاها وتحدق بعينيها المعتمتين وقالت: إنك ترعب الطفل. خذي يا رينيسنب، أعطه هذا العناب. هيا يا صبي، أخبرنا بما رأيته.

حدق الصبي إليهم، وشجعته إيزا: لقد مررت بالأمس أمام بوابة الفناء ورأيت شيئاً. قل لنا: ما هو؟

- ماذا رأيت؟

هز الصبي رأسه وهو ينظر حوله وهمس: أين سيدي يحموس؟

تحدث الكاهن بحزم وعطف: إن رغبة سيدك يحموس أن تخبرنا بروايتك. لا تخف، لن يؤذيك أحد.

أضاء وجه الفتى وقال: لقد كان سيدي يحموس كريماً، سوف أنفذ رغبته.

ثم سكت، وبدا أن إمحوتب على وشك الانفجار، ولكن نظرة من الطبيب أوقفته.

وتحدث الصبي بعصبية وثرثرة سريعة وهو يلتفت حوله كأنه

يخشى شيئاً مجهولاً أن يسمعه: كان ذلك بسبب ذلك الحمار اللعين. لحقته بعصاي عندما عبر أمام بوابة الفناء الكبيرة، ونظرت من البوابة إلى المنزل، لم يكن ثمة أحد في الشرفة ولكن كان هناك طاولة عليها إناء شراب. ثم أتت امرأة، سيدة خرجت من البيت وجاءت إلى الشرفة، مشت إلى إناء الشراب ومدّت يديها فوقه ثم... ثم عادت إلى المنزل كما أعتقد. لست متأكداً أنها عادت لأني سمعت صوت خطوات خلفي، واستدرت لأرى سيدي يحموس عائداً من الحقل فمضيت خلف الحمار ودخل سيدي يحموس إلى الفناء.

- ولِمَ لَمْ تحذّر يحموس؟ لِمَ لم تفعل شيئاً؟

- لم أعرف أن خطأ حدث. لم أرَ شيئاً سوى تلك السيدة تقف هناك تبتسم، ثم مدت يدها فوق إناء الشراب... لم أر شيئاً آخر!

الكاهن: من كانت السيدة يا فتى؟

هز الصبي رأسه وقد خلا وجهه من التعبير: لا أعرف؛ لا بد أنها كانت إحدى نساء البيت، وأنا لا أعرفهن. كان القطيع ينتظرني في نهاية الحقل... كانت سيدة ترتدي ثوباً من الكتان المصبوغ.

جفلت رينيسنب، وقال الكاهن وهو يراقب الصبي: ربما خادمة؟

هز الصبي رأسه وقال: لم تكن خادمة. كانت تضع باروكة على رأسها وترتدي الجواهر، والخادمة لا ترتدي جواهر.

إمحوتب: جواهر؟ أي جواهر؟

أجابه الفتى بحماسة وثقة كأنه قد غلب خوفه وأصبح أخيراً واثقاً تماماً مما يقول: ثلاث سلاسل من الخرز تتدلى منها أسود ذهبية من الأمام.

سقطت عصا إيزا إلى الأرض وأطلق إمحوتب صيحة مكتومة: إذا كنت تكذب أيها الصبي...

ارتفع صوت الفتى واضحاً وحاداً: إنها الحقيقة، أقسم أنها الحقيقة.

كان يحموس مستلقياً في الغرفة الجانبية، ونادى بصوت ضعيف: ما الأمر؟

اندفع الصبي عبر الباب المفتوح وجثم قرب الأريكة التي يستلقي عليها يحموس وهو يقول: سيدي، سوف يعذبونني.

أدار يحموس رأسه بصعوبة على المسند الخشبي المدور: لا تدَعوا أحداً يؤذي الطفل؛ إنه بسيط صادق.

قال إمحوتب: بالطبع، بالطبع، ليس من داع لذلك. من الواضح أن الصبي قد أخبرنا بما يعرفه ولا أظنه يخترع ما يقوله. انطلقْ أيها الصبي ولا تعُدْ إلى القطيع البعيد. ابقَ قريباً من المنزل لنستطيع دعوتك عندما نحتاج إليك.

نهض الصبي ورمى يحموس بنظرة مترددة قائلاً: أنت مريض يا سيدي يحموس؟

ابتسم يحموس ابتسامة باهتة وقال: لا تخف، لن أموت. اذهب الآن ونفذ ما طُلب منك.

ذهب الصبي وهو يبتسم بسعادة، وفحص الكاهن عيني يحموس وجس نبضه، ثم أوصاه بالنوم وخرج مع الآخرين إلى القاعة الرئيسية مرة أخرى. وقال لإمحوتب: هل تعرفت إلى الوصف الذي أعطاه الصبي؟

أومأ إمحوتب بالإيجاب وقد احمرّ خداه فأصبحا بلون أرجواني داكن، وقالت ربيست: نوفريت فقط كانت ترتدي ثوباً من الكتان المصبوغ، كانت «موضة» جديدة أحضرتها من مدن الشمال، وتمّ دفن تلك الأثواب معها.

قال إمحوتب: وسلاسل الخرز الثلاث ورأس الأسد الذهبي كنت أنا الذي أعطيتها لها... ليس في المنزل حلية أخرى تشبهها، كانت ثمينة وغير عادية. وقد دُفنت معها كل حليها سوى طوق من خرز العقيق الأحمر.

ثم فرد إمحوتب ذراعيه وقال: ما هذا الأذى والقصاص؟ جاريتي التي عاملتها جيداً وقدّرتها ودفنتها حسب الطقوس الملائمة ولم أقتصد في النفقات (والجميع يشهد على ذلك) ولم أدعها تتذمر من شيء... لقد فعلت من أجلها كثيراً وكنت مستعداً أن أعاقب أبنائي من أجلها، فلماذا إذن تعود هكذا من عالم الموتى لتؤذيني أنا وأبنائي؟

قال ميرسو بهدوء: يبدو أن هذه المرأة الميتة لم تكن تريد أن

تؤذيك لأن الشراب كان نظيفاً حين شربته. مَن آذى جاريتك المتوفاة من عائلتك؟

أجابه إمحوتب باختصار: امرأة توفيت.

- فهمت، تعني زوجة ابنك يحموس؟

قال إمحوتب بعصبية: ما الذي تستطيع فعله أيها الكاهن المبجل؟ كيف تُبطل هذا الشر؟ كان يوماً نحساً عندما أدخلت تلك المرأة إلى بيتي.

أقبلت كيت من جناح النساء وعيناها منتفختان من الدموع ووجهها ذو الملامح العادية يبدو عليه العزم والتصميم مما جعله متميزاً. كان صوتها العميق الأجش يهتز من الغضب، وقالت: كان يوم مجيئك بنوفريت يوم نحس بالفعل يا إمحوتب... لقد جاءت لتقضي على أذكى أبنائك وأجملهم، وجلبت الموت لساتيبي وسوبك، ويحموس نجا بصعوبة، فمن التالي؟ هل ستترك تلك المرأة الأطفال وهي التي سبق أن ضربت ابنتي الصغيرة آنخ؟ لا بد من فعل شيء ما يا إمحوتب.

ردد إمحوتب وهو ينظر إلى الكاهن بتوسل: لا بد من فعل شيء.

فأومأ الكاهن برأسه بهدوء مترفّع: هناك طرق ووسائل يا إمحوتب نستطيع تنفيذها عندما نتأكد من الحقائق. إنني أفكر في زوجتك الأولى آشايت، فهي تنحدر من عائلة ذات نفوذ ويمكنها أن

تستثير الآلهة في عالم الموتى لتتدخل وتحمي عائلتك من نوفريت. يجب أن نتشاور.

ضحكت كيت ضحكة قصيرة وقالت: لا تنتظروا كثيراً، فالرجال متشابهون دائماً. نعم، حتى الكهنة... يجب فعل كل شيء وفقاً للأنظمة والقوانين! يجب أن تتصرفوا بسرعة وإلاّ وقع مزيد من الموتى في هذا المنزل.

دارت ثم خرجت، وهمس إمحوتب: امرأة ممتازة متفانية في سبيل أبنائها وزوجة مطيعة، لكنها تتصرف برعونة أحياناً ولا تحترم سيد هذا البيت، وأنا أغفر لها هذا في مثل هذا الظرف، فكلنا ذاهلون لا نكاد نعرف ماذا نفعل.

ثم أحاط رأسه بيديه، فقالت إيزا: بعضنا لا يعرف ما يفعله إلاّ نادراً.

رماها إمحوتب بنظرة غاضبة، واستعد الطبيب للمغادرة فخرج إمحوتب معه إلى الشرفة وهو يتلقى منه التعليمات بشأن الاعتناء بالمريض. ونظرت رينيسنب إلى جدتها متسائلة.

كانت إيزا تجلس بهدوء متجهّمة وتعابير وجهها غريبة، فسألتها رينيسنب بخوف: فيمَ تفكرين يا جدتي؟

- التفكير هو الأمر الضروري يا رينيسنب؛ إذ تحدث أمور غريبة في هذا المنزل تجعل المرء يفكر.

ارتعشت رينيسنب وقالت: إنها تخيفني!

- وتخيفني أنا أيضاً، لكن ربما ليس للسبب نفسه.

وبإيماءة مألوفة أمالت الباروكة الموضوعة على رأسها، فقالت رينيسنب: لكن يحموس لن يموت، سوف يعيش.

أومأت إيزا قائلة: نعم؛ لقد أدركه كبير الأطباء في الوقت المناسب، ورغم ذلك فربما لا يكون محظوظاً هكذا في مناسبة أخرى.

- هل تظنين أن أحداثاً أخرى كهذه سوف تحصل؟

- أظن أنه يجدر بيحموس وبك وبآيبي، وربما بكيت أيضاً، أن تكونوا في غاية الحذر مما تأكلونه وتشربونه. تأكدوا أن العبيد يتذوقون كل شيء أولاً.

- وأنت يا جدتي؟

ابتسمت إيزا ابتسامتها الساخرة وهي تقول: أنا امرأة عجوز يا رينيسنب، وأحب الحياة إلى حد لا يبلغه إلاّ العجائز الذين يتذوقون كل ساعة وكل دقيقة بقيت لهم. إن فرصتي في الحياة أكبر لأنني سوف أكون أكثر حذراً منكم جميعاً.

- ووالدي؟ نوفريت لن تتمنى الشر والأذى لوالدي بالتأكيد؟

- والدك؟ لا أعلم، لا أعلم؛ لا أستطيع رؤية الأمور بوضوح بعد. غداً عندما أفكر في الأمر كله سأكلم ذلك الراعي مرة أخرى، فقد كان في قصته شيء ما...

قطعت حديثها وتجهمت، ثم نهضت وأخذت تعرج ببطء وهي

تتكئ على عصاها عائدة إلى مضجعها. وذهبت رينيسنب إلى غرفة أخيها. كان نائماً، فخرجت بهدوء، وبعد لحظة من التردد ذهبت إلى غرفة كيت. وقفت عند الباب دون أن يلاحظها أحد تراقب كيت وهي تغني أغنية لأحد أبنائها لكي ينام، وكان وجهها هادئاً وبدت كعادتها بحيث شعرت رينيسنب - للحظة - أن المأساة التي حصلت قبل أربع وعشرين ساعة كانت مجرد حلم.

ودارت ببطء وذهبت إلى شقتها. كان على الطاولة ضمن صناديق أدوات التجميل خاصتها صندوق الجواهر الصغير الذي كان لنوفريت، فالتقطته رينيسنب ونظرت إليه وهي تحمله بيدها.

لقد سبق لنوفريت أن لمسته وأمسكته، لقد كان صندوقها الخاص. ومرة أخرى عاودت رينيسنب موجة من الإشفاق شعرت بها من قبل أن تموت نوفريت.

كانت نوفريت تعسة، وربما جعلتْ تلك التعاسة حقداً وكراهية، وما زال هذا الكره قائماً، إنها لا تزال تسعى للانتقام... آه! لا، هذا غير صحيح، بالتأكيد لا.

وبحركة عفوية فتحت الصندوق فوجدت خرز العقيق الأحمر والتميمة المكسورة وشيئاً آخر... أخرجت رينيسنب - وقلبها يخفق بعنف - قلادة الخرز الذهبي والأسد الذهبي يتدلى منها.

* * *

الفصل الخامس عشر
الشهر الأول من فصل الصيف
اليوم الثلاثون

-١-

سبّب العثور على القلادة رعباً كبيراً لرينيسنب، ومن هول الصدمة أعادتها سريعاً إلى صندوق الجواهر وأعادت الغطاء مكانه وعقدت الحبل مرة أخرى. حثتها غريزتها على إخفاء فعلها هذا، بل إنها نظرت بخوف خلفها لتتأكد من أن أحداً لا يراقبها.

قضت ليلة لم تعرف فيها طعم النوم، تتقلب بقلق وتسند رأسها ثم تبعده عن الوسادة الموضوعة على سريرها. ومع حلول الصباح قررت أن تبوح بسرها لشخص ما، فلم تكن تستطيع حمل عبء هذا الكشف وحدها. لقد نهضت مرتين في الليل وهي تخشى أن ترى جسد نوفريت يقف قريباً منها، لكنها لم ترَ شيئاً.

أخذت رينيسنب عقد الأسد من صندوق الجواهر وأخفته في ثنايا ثوبها الكتاني، وما أن فعلت ذلك حتى اندفعت حينيت

وعيناها لامعتان حادتان وفيهما سرور مَن لديه أخبار طازجة يذيعها: تخيلي يا رينيسنب، أليس الأمر رهيباً؟ ذلك الصبي الراعي كان مستغرقاً في النوم هذا الصباح قرب صناديق الحنطة والجميع يهزونه ويصرخون فيه، ولكن يبدو الآن أنه لن يستيقظ أبداً. كأنه شرب عصير الخشخاش، ربما فعل ذلك، فإذا كان الأمر كذلك فمن أعطاه إياه؟ لا أحد هنا، أنا متأكدة من ذلك، وليس يعقل أن يكون قد تناوله بنفسه... آه! ربما كان في وسعنا أن نعلم بالأمس كيف تمت الحادثة التي شاهدها.

ارتفعت يد حينيت إلى إحدى التعويذات التي ترتديها وقالت: فليحمِنا آمون من أرواح الموتى الشريرة! لقد روى الصبي ما شاهده، روى كيف شاهدها، ولذلك عادت وأعطته شراب الخشخاش لينام للأبد. آه، إنها امرأة قوية نوفريت تلك! لقد كانت في الخارج كما تعلمين، خارج مصر. أقسم أنها تمكنت من تعلم كل أنواع السحر البدائي. لسنا آمنين في هذا المنزل، لا أحد منا آمن. يجب أن يضحي والدك بعدد من الثيران لآمون، بل بقطيع كامل إن اقتضت الحاجة، فليس هذا وقت الاقتصاد... يجب أن نحمي أنفسنا. يجب أن تستجدي أمك، هذا ما ينوي إمحوتب فعله، هكذا يقول الكاهن ميرسو... رسالة رسمية إلى الموتى، وحوري مشغول الآن في كتابة نصها. كان في نية والدك أن يوجهها إلى نوفريت ويقول لها فيها: الموقرة نوفريت، ما هو الشر الذي فعلته بك؟ إلخ. لكن القضية - كما أوضح الأب الروحي ميرسو - تحتاج إلى إجراءات أقوى من هذه. كانت أمك آشايت سيدة عظيمة، وكان خالها يشغل منصب النومارتش وشقيقها كبير الخدم عند وزير طيبة، وإذا علمت بالأمر

فإنها سوف تتولى الأ يُسمح لمجرد جارية أن تقضي على أولادها. آه! أجل، ستعمل على تحقيق العدالة. إن حوري يصوغ الرسالة الآن.

كان في نية رينيسنب أن تذهب إلى حوري وتخبره بعثورها على قلادة الأسد، ولكن إذا كان حوري مشغولاً مع الكهنة في معبد إيزيس فلا فائدة من التفكير في محاولة العثور عليه وحيداً.

هل تتوجه إلى والدها؟ هزت رينيسنب رأسها غير مقتنعة. لقد زال إيمانها الطفولي بقدرة والدها الكلية الآن وأدركت كيف ينهار بسرعة عند حدوث الأزمات ويحل التفاخر الفارغ محل القوة الحقيقية. لو لم يكن يحموس مريضاً لوسعها إخباره، رغم أنها كانت تشك في أن تجد عنده أية نصيحة عملية، فمن الأرجح أنه سيصر على وضع الأمر أمام إمحوتب.

وشعرت رينيسنب بضرورة تفادي هذا الأمر مهما كان الثمن. سوف يكون أول أمر يفعله إمحوتب هو نشر السر، وقد كان حدس رينيسنب يلح عليها للاحتفاظ بهذا السر، مع أنها لم تكن تعرف سبباً لذلك.

لا، لقد كانت بحاجة إلى مشورة حوري دون غيره، فهو يعرف التصرف الصحيح. سوف يأخذ منها القلادة وفي الوقت نفسه يأخذ قلقها وحيرتها. سوف ينظر إليها بعينيه الهادئتين العطوفتين فتشعر على الفور أن الأمور على ما يرام.

وشعرت رينيسنب - لحظة - بإغراء يدفعها لمفاتحة كيت، ولكن كيت لم تكن مقنعة لها؛ إنها لا تستمع جيداً أبداً، ولكن ماذا

لو أخذها المرء بعيداً عن الأطفال؟ لا، لا، لن يجدي ذلك نفعاً. كيت لطيفة ولكنها غبية.

فكرت رينيسب: كاميني؟

كان في فكرة إبلاغه أمر بهيج، كان يمكنها رؤية وجهه بوضوح تام وهي تفكر فيه حيث تتغير تعابيره من التحدي اللاهي إلى الاهتمام إلى الخوف عليها، وربما ليس عليها؟

لِمَ هذا الشك الخبيث الكامن في أعماقها أن نوفريت وكاميني كانا على علاقة أقوى مما كانا يظهران؟ لأن كاميني ساعد نوفريت في حملتها لإبعاد إمحوتب عن عائلته؟ لقد احتج بأن الأمر لم يكن بيده، فهل كان هذا صحيحاً؟ كان من السهل قول ذلك. كل ما يقوله كاميني كان يبدو سهلاً وطبيعياً وصحيحاً أيضاً، كان يتمايل بطريقة رائعة وهو يمشي، التفاتة رأسه وكتفيه البرونزيتين وعينيه اللتين تنظران... تنظران إليها!

وانقطعت أفكار رينيسب بارتباك. لم تكن عينا كاميني رقيقتين آمنتين كعيني حوري، بل كانتا متطلبتين متحديتين. دفعت أفكار رينيسب الدم إلى وجنتيها والبريق إلى عينيها، ولكنها قررت ألاّ تخبر كاميني. سوف تذهب إلى إيزا؛ فقد أثارت إعجابها أمس رغم أنها عجوز، فهي ذات نظرة للأمور وإحساس ذكي عملي لا يتوفر في سواها من العائلة.

فكرت رينيسب: إنها عجوز، ولكنها ستعرف.

-٢-

عند أول ذكر للقلادة نظرت إيزا حولها بسرعة، ثم وضعت إصبعاً على شفتيها ورفعت يدها مشيرة بالصمت. وعبثت رينيسب بردائها فأخرجت القلادة وأعطتها لإيزا. أمسكت بها إيزا لحظة قريباً من عينيها اللتين خف نورهما، ثم أخفتها في ثوبها وقالت بصوت منخفض قوي: لا تتكلمي بالمزيد الآن. إن الكلام في هذا المنزل يعني الكلام مع مئات من الآذان. لقد استلقيتُ مستيقظة معظم الليل أفكر، وهناك كثير مما يجب فعله.

- لقد ذهب والدي وحوري إلى معبد إيزيس ليتشاور مع الكاهن ميرسو في إعداد رسالة إلى أمي كي تتدخل.

- أعلم. دعي والدك يهتم بأرواح الموتى، أما أفكاري أنا فتتعامل مع أشياء هذا العالم. حين يعود حوري أحضريه هنا إليّ، هناك أمور يجب أن تقال وتبحث، وأنا أثق بحوري.

قالت رينيسب بسعادة: حوري يعلم كيف يتصرف.

نظرت إليها إيزا بفضول وقالت: أنت غالباً ما تذهبين لرؤيته في الضريح، أليس كذلك؟ ما الذي تتحدثان فيه أنت وحوري؟

هزت رينيسب رأسها وأجابت بغموض: النهر، ومصر، وتغير الضوء، وألوان الرمل في الأسفل، والصخور... لكننا نجلس صامتين في معظم الأوقات. إنني أجلس هناك فأجد الهدوء والسكينة، فلا توبيخ أو بكاء من الأطفال، ولا ضجيج من الداخلين والخارجين.

يوسعي هناك أن أمارس حرية التفكير دون أن يقاطعني حوري، ثم أنظر أحياناً لأجده يراقبني ونبتسم نحن الاثنين... عادةً ما أكون سعيدة هناك.

قالت إيزا ببطء: أنت محظوظة يا رينيسنب؛ فقد عثرت على السعادة التي تكمن داخل قلب كل شخص. إن السعادة لدى معظم النساء تعني الدخول والخروج والاشتغال بأمور تافهة، إنها الاهتمام بالأطفال والضحك والحديث والشجار مع النساء الأخريات وتبادل الحب والكره مع الرجل... إنها مصنوعة من أمور صغيرة متصلة مثل الخرز في العقد.

- أكانت حياتك هكذا يا جدتي؟

- معظمها. أما الآن، وأنا عجوز أجلس وحدي وقد ضعف بصري وأمشي بصعوبة، فإنني أدرك أن في الداخل حياة مثلما في الخارج حياة. ولكنني الآن أكبر بكثير من أن أتعلم حقيقة هذه الحياة الداخلية. ولذلك تشاهدينني في الخارج أوبخ خادمتي الصغيرة وأستمتع بالطعام الجيد الطازج وأتذوق الأنواع المختلفة من الخبز الذي نخبزه وأستمتع بالعنب الناضج وعصير الرمان... هذه الأمور تبقى عندما يذهب الآخرون، والأطفال الذين كنت أحبهم كثيراً ماتوا. كان والدك دائماً غبياً، لقد أحببته عندما كان طفلاً يحبو، لكنه يزعجني الآن بجو الأهمية الذي يحيط به نفسه. ومن بين أحفادي فإنني أحبك أنت يا رينيسنب، وبمناسبة الحديث عن الأحفاد أين أيبي؟ لم أره اليوم ولا أمس.

- إنه مشغول بمراقبة تخزين القمح، أبي جعله مسؤولاً عن ذلك.

ابتسمت إيزا قائلة: هذا سوف يسعد ذلك المغفل الصغير، وسوف يتجول مختالاً بأهميته. عندما يعود ليأكل اطلبي منه أن يأتي لرؤيتي.

- نعم يا إيزا.

- وأما بالنسبة لذلك الأمر رينيسنب، فالزمي الصمت.

-٣-

- هل أردت رؤيتي يا جدتي؟

وقف أيبي مبتسماً ومغروراً يحمل وردة بين أسنانه البيضاء. بدا مسروراً من نفسه ومن الحياة بشكل عام، وجعلت إيزا تضيق عينيها كي تستطيع الرؤية أفضل وهي تنظر إلى أيبي متفحصة. قالت: هلا أعطيتني لحظات من وقتك الثمين؟

لم تؤثر فظاظتها في أيبي الذي قال: صحيح أنني مشغول جداً هذا اليوم، يجب أن أهتم بكل شيء لأن والدي قد ذهب إلى المعبد...

- صغار بني آوى تعوي عالياً.

لكن أيبي كان رابط الجأش، قال: هيا يا جدتي، لا بد أن لديك ما تقولينه لي غير ذلك.

- بالتأكيد لديّ غير ذلك. وأبدأ فأقول: هذا منزل يمر بفترة من الحداد، جثة أخيك سوبك لا تزال بين أيدي المحنطين. ورغم ذلك فإن وجهك مرح كأنك في يوم احتفال!

ابتسم آبي وقال: أنتِ لست منافقة يا إيزا، فهل تريدين مني أن أكون منافقاً؟ أنت تعلمين جيداً أنني وسوبك لم نكن على وفاق؛ كان يفعل كل ما يمكنه كي يعيقني ويزعجني. كان يعاملني كأنني طفل ويعطيني أكثر الأعمال إهانة وطفولية في الحقل، وغالباً ما كان يتهزئني ويسخر مني، وعندما أراد والدي أن يشركني مع أخويّ الأكبرين أقنعه سوبك بعدم فعل ذلك.

احتدّت إيزا وقالت: ما الذي يجعلك تظن أن سوبك هو الذي أقنعه بذلك؟

- أخبرني كاميني بهذا.

رفعت إيزا حاجبيها وأزاحت باروكتها جانباً وحكّت رأسها، ثم قالت: كاميني؟ هذا يثير الاهتمام!

- قال كاميني إنه سمعه من حينيت، ونحن نتفق جميعاً أن حينيت تعلم كل شيء دائماً.

خاطبته إيزا بغلظة: ولكن هذه إحدى الأحوال التي أخطأت حينيت بها. كان يحموس وسوبك يريان أنك لا تزال صغيراً لتولي العمل بلا شك، ولكنني كنت أنا، أجل، أنا التي أقنعت والدك بعدم ضمك إلى الشراكة.

- أنت يا جدتي؟!

حدق الصبي إليها بدهشة صريحة، ثم حلّ العبوس محل الفرحة التي كانت تعلو وجهه وسقطت الزهرة من فمه.

- لماذا فعلت ذلك؟ أي شأن لك فيه؟

- شؤون عائلتي هي شؤوني.

- وهل استمع إليك والدي؟

قالت إيزا بغلظة: ليس في اللحظة نفسها، لكنني سوف أعلمك درساً يا طفلي الوسيم: النساء يعملن بأساليب ملتوية ويعرفن ما هي نقطة الضعف عند الرجل؛ تذكر أنني أرسلت حينيت مع رقعة اللعب إلى الشرفة في تلك الأمسية المنعشة.

- أذكر ذلك، لقد لعبت أنا ووالدي معاً فماذا في ذلك؟

- لقد لعبتما ثلاثة أشواط، وفي كل مرة ولأنك لاعب ذكي كنت تهزم والدك.

- نعم.

أغمضت إيزا عينيها وقالت: هذا كل شيء؛ والدك مثل سائر اللاعبين الأقل شأناً، لم يتحمل هزيمته... خصوصاً من صبي فتي. وهكذا! فقد تذكر كلماتي وقرر أنك كنت بالتأكيد أصغر من أن تُعطى حصة في الشراكة.

حدق إليها آبي لحظة، ثم ضحك ضحكة عابسة وقال: أنت ذكية يا إيزا. ربما تكونين عجوزاً، ولكنك ذكية. أنا وأنت نملك حتماً العقل في هذه العائلة. لقد هزمتني في اللعبة الأولى على

رقعة اللعب، ولكنك سوف ترين، سوف أفوز بالثانية... فاحذري يا جدتي!

- إنني أنوي الحذر. ودعني - بالمقابل - أنصحك أن تحذر أنت نفسك. لقد توفي أحد أخويك والثاني كان مشرفاً على الموت، وأنت أيضاً ابن أبيك، وربما تسلك الطريق نفسه.

ضحك آيبي وردّد باحتقار: لا أخاف كثيراً من ذلك.

- لماذا؟ أنت أيضاً هددت نوفريت وأهنتها.

- نوفريت!

قالها باحتقار واضح، فسألته إيزا بحدة: ما الذي تفكر فيه؟

- إن لديّ أفكاري يا جدتي، وأؤكد لك أن نوفريت وحيلها لن تقلقني. دعيها تفعل أسوأ ما تستطيعه.

انطلقت صرخة خلفه ودخلت حينيت وهي تصيح: صبي غبي، طفل طائش! تتحدى الموتى؟ بعد أن تذوقنا جميعاً مدى قدرتها، ولست ترتدي أي تعويذة لتحميك منها!

- تحميني؟ سوف أحمي نفسي. ابتعدي عن طريقي يا حينيت، سوف يعرف أولئك الفلاحون الكسالى ماذا يعني أن يشرف عليهم سيد حقيقي.

خرج آيبي من الغرفة وهو يدفع حينيت جانباً، وقطعت إيزا نحيب حينيت: استمعي يا حينيت وكفّي عن الهتاف بشأن آيبي، فلعله يعرف ما يفعله، وأجيبيني عن سؤالي هذا: هل أخبرتِ كاميني أن

سوبك هو الذي أقنع إمحوتب بألاّ يُشرك آيبي في صك الشراكة؟

انخفض صوت حينيت إلى درجة نحيبه المعتادة: أنا مشغولة في هذا المنزل ولا وقت لديّ أضيعه في إخبار الناس بالأمور، ولماذا كاميني من بين الأشخاص كافة؟ كيف أتحدث إليه بكلمة إن لم يأتِ هو إليّ ويتحدث معي؟ إنه ذو أسلوب لطيف، ولا بد أن تعترفي بذلك يا إيزا. وأنا لست الوحيدة التي تراه كذلك. آه، نعم! وإذا أرادت أرملة شابة أن تتزوج من جديد... حسناً، فإنها تعجب عادةً بفتى وسيم، وإن لم أكن أعلم رأي إمحوتب في ذلك. إن كاميني مجرد كاتب صغير في النهاية.

- دعي هذا. هل أخبرته أن سوبك هو الذي عارض أن يكونَ آيبي شريكاً؟

- لا أستطيع أن أذكر ما قلت وما لم أقل. لم أذهب وأخبر أحداً بشيء، أنا واثقة من ذلك، ولكن الشائعات انتشرت هنا وهناك، وأنت تعلمين أن سوبك كان يقول وكذلك يحموس بأن آيبي صبي لا ينفع، فلعل كاميني سمعه يقول ذلك ولم يحصل عليه مني. أنا لا أثرثر أبداً، ولكن اللسان خُلق للمرء لكي يتحدث به، وأنا لست خرساء ولا صماء.

- أنت لست كذلك بالتأكيد. اللسان - يا حينيت - يكون أحياناً سلاحاً، وأحياناً ربما سبّب اللسانُ الوفاة! أرجو ألاّ يكون لسانك قد سبّب وفاة أحد يا حينيت.

- آه يا إيزا! ماذا تقولين وفيمَ تفكرين؟ أنا مخلصة لهذه العائلة

رقعة اللعب، ولكنك سوف ترين، سوف أفوز بالثانية... فاحذري يا جدتي!

- إنني أنوي الحذر، ودعني - بالمقابل - أنصحك أن تحذر أنت نفسك. لقد توفي أحد أخويك والثاني كان مشرفاً على الموت، وأنت أيضاً ابن أبيك، وربما تسلك الطريق نفسه.

ضحك آيبي وردّد باحتقار: لا أخاف كثيراً من ذلك.

- لماذا؟ أنت أيضاً هددت نوفريت وأهنتها.

- نوفريت!

قالها باحتقار واضح، فسألته إيزا بحدة: ما الذي تفكر فيه؟

- إن لديّ أفكاري يا جدتي، وأؤكد لك أن نوفريت وحيلها لن تقلقني. دعيها تفعل أسوأ ما تستطيعه.

انطلقت صرخة خلفه ودخلت حينيت وهي تصيح: صبي غبي، طفل طائش! تتحدى الموتى؟ بعد أن تذوقنا جميعاً مدى قدرتها، ولست ترتدي أي تعويذة لتحميك منها!

- تحميني؟ سوف أحمي نفسي. ابتعدي عن طريقي يا حينيت، سوف يعرف أولئك الفلاحون الكسالى ماذا يعني أن يشرف عليهم سيد حقيقي.

خرج آيبي من الغرفة وهو يدفع حينيت جانباً، وقطعت إيزا نحيب حينيت: استمعي يا حينيت وكفّي عن الهتاف بشأن آيبي، فلعله يعرف ما يفعله، وأجيبيني عن سؤالي هذا: هل أخبرتِ كاميني أن

سوبك هو الذي أقنع إمحوتب بألاّ يُشرك آيبي في صك الشراكة؟

انخفض صوت حينيت إلى درجة نحيبه المعتادة: أنا مشغولة في هذا المنزل ولا وقت لديّ أضيعه في إخبار الناس بالأمور، ولماذا كاميني من بين الأشخاص كافة؟ كيف أتحدث إليه بكلمة إن لم يأتِ هو إليّ ويتحدث معي؟ إنه ذو أسلوب لطيف، ولا بد أن تعترفي بذلك يا إيزا. وأنا لست الوحيدة التي تراه كذلك. آه، نعم! وإذا أرادت أرملة شابة أن تتزوج من جديد... حسناً، فإنها تعجب عادةً بفتى وسيم، وإن لم أكن أعلم رأي إمحوتب في ذلك. إن كاميني مجرد كاتب صغير في النهاية.

- دعي هذا. هل أخبرته أن سوبك هو الذي عارض أن يكونَ آيبي شريكاً؟

- لا أستطيع أن أذكر ما قلت وما لم أقل. لم أذهب وأخبر أحداً بشيء، أنا واثقة من ذلك، ولكن الشائعات انتشرت هنا وهناك، وأنت تعلمين أن سوبك كان يقول وكذلك يحموس بأن آيبي صبي لا ينفع، فلعل كاميني سمعه يقول ذلك ولم يحصل عليه مني. أنا لا أثرثر أبداً، ولكن اللسان خُلق للمرء لكي يتحدث به، وأنا لست خرساء ولا صماء.

- أنت لست كذلك بالتأكيد. اللسان - يا حينيت - يكون أحياناً سلاحاً، وأحياناً ربما سبّب اللسانُ الوفاة! أرجو ألاّ يكون لسانك قد سبّب وفاة أحد يا حينيت.

- آه يا إيزا! ماذا تقولين وفيمَ تفكرين؟ أنا مخلصة لهذه العائلة

كلها... إنني مستعدة لأن أموت في سبيل أي واحد منها. آه، إنهم يستحقّون بإخلاص حينيت العجوز، لقد وعدت أمهم...

قاطعتها إيزا: ها قد أتى طائري السمين المطبوخ بالكراث والكرفس. إن رائحته شهية وهو مطبوخ جيداً، وما دمت متفانية يا حينيت فلتتناولي لقمة من أحد الجوانب لمجرد التأكد من أنه ليس مسموماً.

صرخت حينيت: إيزا... مسموم! كيف تقولين هذا وهو مطبوخ في مطبخنا؟

- حسناً، يجب أن يتذوقه شخص ما من باب الاحتياط فقط، ومن الأفضل أن تكوني أنت يا حينيت ما دمت مستعدة أن تموتي في سبيل فرد من أفراد العائلة. لا أظن الموت بهذه الطريقة مؤلماً. هيا يا حينيت، انظري كم هو سمين وشهي! لا أريد أن أخسر عبدتي الصغيرة؛ إنها صغيرة ومرحة، وأنت عشت أحلى أيامك يا حينيت ولا يهم ما يصيبك. افتحي فمك... لذيذ؟ أليس كذلك؟ لماذا أصبح وجهك أخضر هكذا؟ ألم تعجبك دعابتي الصغيرة؟ لا أظنها أعجبتك. ها ها ها!

انفجرت إيزا ضاحكة، ثم سيطرت على نفسها فجأة وجلست تأكل طبقها المفضل بنهم.

* * *



الفصل السادس عشر
الشهر الثاني من فصل الصيف
اليوم الأول

-١-

انتهت المداولات في المعبد وتمت الصيغة النهائية للعريضة التي أعدها حوري واثنان من كتبَة المعبد، وأخيراً تم اتخاذ الخطوة الأولى. وقرر الكاهن أن مسوّدة العريضة يجب أن تُقرأ على الجميع:

إلى روح الموقرة آشايت،

هذه الرسالة من أخيك وزوجك. هل تنسى الأخت أخاها؟ هل تنسى الأم أبناءها الذين ولدتهم؟ ألا تعلم الروح الموقّرة آشايت أن روحاً شريرة تهدد أبناءها؟ لقد توفي سوبك ابنها وانتقل إلى أوزيريس من أثر السم.

لقد عاملتك بكل احترام وأنت حية، وأعطيتك الجواهر والثياب والمراهم والعطور والزيوت، وأكلنا

الطعام اللذيذ معاً وجلسنا بهدوء ومحبة والموائد أمامنا عامرة. وعندما مرضت لم أدخر جهداً كي أساعدك، فأحضرت لك رئيس الأطباء. ثم تم دفنك بكل احترام وبالمراسيم المناسبة، وقدمت إليك كل الأشياء التي تحتاجينها في حياتك الأخرى: الخدم والثيران والطعام والشراب والجواهر والثياب، وحَدَدْتُ عليك سنوات عدة ولم أقدم على اتخاذ جارية لي إلاّ بعد مرور سنوات طويلة طويلة، وذلك لأعيش كما ينبغي لرجل لم يتقدم كثيراً في السن.

إن هذه الجارية هي التي ترتكب الشر تجاه أبنائك. ألا تعلمين بذلك؟ لعلك لا تعلمين، فلو أن آشايت تعلم لكانت أسرعت لكي تساعد أبناءها.

هل يعني هذا أن آشايت تعلم والشر لا يزال يُرتكب لأن الجارية أقوى بسحرها؟ هذا ضد رغبتك أيتها الموقرة آشايت. وتذكري أن لك في «حقول القرابين» أقرباء عظاماً ومساعدين أقوياء منهم النبيل العظيم أبي، كبير خدم الوزير. اطلبي مساعدته، ومنهم خالك القوي العظيم ميريبتاح الذي تولى منصب النومارتش. أخبريه بهذه الحقيقة، دعي الأمر يعرض في محكمته واستدعي الشهود. دعيهم يشهدون ضد نوفريت أنها فعلت كل هذا الشر. دعي الحكم يصدر لُتدان نوفريت ودعيهم يحكمون عليها ألاّ ترتكب مزيداً من الشر بحق هذا المنزل!

آه أيتها الموقرة آشايت! إذا كنت غاضبة من أخيك

إمحوتب لأنه أصغى للوَسوسات الشريرة لتلك المرأة وتوعّد بظلم أبنائك الذين ولدتهم، فلتعلمي أنه ليس وحده الذي يعاني بل أبناؤك أنت أيضاً، فاغفري لأخيك إمحوتب كل ما فعله إكراماً للأولاد.

انتهى رئيس الكتبة من القراءة، وأومأ ميرسو موافقاً وقال: أظننا لم نغفل شيئاً، إنها صياغة جيدة.

نهض إمحوتب وقال: أشكرك أيها الكاهن المبجل. سوف تصلك عطاياي غداً قبل أن تغرب الشمس: قطعان وزيت وكتان. هل تحدد اليوم الذي يتلو ذلك كموعد للاحتفال، حيث نضع اللفافة المكتوبة في غرفة القرابين في القبر؟

- اجعله بعد ثلاثة أيام؛ فيجب أن تُنسَخ اللفافة وتحضَّر الطقوس الملائمة.

- كما تشاء، إنني متلهف لكيلا يحدث مزيد من الأذى.

- أفهم قلقك هذا يا إمحوتب، فلا تخف. ستستجيب روح آشايت الطيبة لهذا النداء. إن لدى أقربائها السلطة والنفوذ ويستطيعون تحقيق العدالة عندما تمس الحاجة إليها.

- أشكرك يا ميرسو، وأشكر رعايتك ومعالجتك ابني يحموس. هيا يا حوري، لدينا عمل كثير. دعنا نعُدْ إلى المنزل. لقد أزالت هذه العريضة كثيراً من همي بالتأكيد، لن تتخلى آشايت عن أخيها المسكين المحتار.

-٢-

عندما دخل حوري فناء البيت وهو يحمل لفافة البردي كانت رينيسنب تنتظره، وجاءت تجري من البحيرة تناديه: حوري.

- نعم يا رينيسنب.

- هلاّ أتيت معي إلى إيزا؟ إنها تنتظرك وتريدك.

- حسناً، ولكن دعيني أرَ إن كان إمحوتب...

ولكن كان آيبي قد أمسك إمحوتب واندمجا في حديث خاص، فقال حوري: دعيني أضع هذه اللفافات جانباً هي والأشياء الأخرى، وسوف آتي معك يا رينيسنب.

بدت إيزا مسرورة عندما دخلت عليها رينيسنب ومعها حوري. قالت رينيسنب: ها هو حوري يا جدتي، لقد أحضرته إليك فوراً.

- جيد، هل الجو لطيف في الخارج؟

اندهشت رينيسنب قليلاً وقالت: أظن... أظن ذلك!

- أعطيني عصاي إذن؛ سوف أتمشى قليلاً في الفناء.

لم تكن إيزا تغادر المنزل كثيراً، ولذلك دُهشت رنيسنب وقادت المرأة العجوز وهي تضع يدها تحت مرفقها، وخرجوا عبر القاعة الرئيسية إلى الشرفة.

- هلا جلست يا جدتي؟

- لا يا طفلتي، سوف أتمشى حتى البحيرة.

كان تقدم إيزا بطيئاً، ورغم أنها كانت تمشي بصعوبة إلاّ أنها كانت ثابتة القدمين ولم تظهر علامات التعب. وتلفتت حولها ثم اختارت بقعة مزروعة بالأزهار قرب البحيرة تظللها شجرة جميز. قالت: بإمكاننا التحدث الآن ولا أحد يسمع حديثنا.

أيدها حوري قائلاً: أنت حكيمة يا إيزا.

- ما يقال هنا يجب ألاّ يعرفه أحد سوانا نحن الثلاثة. إنني أثق بك يا حوري، فأنت تعمل معنا منذ كنت صبياً صغيراً وكنت دائماً مخلصاً وكتوماً وحكيماً، ورينيسنب هي أعز أحفادي عليّ. يجب ألاّ يلحق بها أي ضرر يا حوري.

- لن يلحق بها ضرر يا إيزا.

لم يرفع حوري صوته، لكن نبرته ونظرة وجهه عندما قابلت عينُه عينَ السيدة العجوز أرضتها كثيراً.

- أحسنت يا حوري بقولك هذا، كلام هادئ متأنٍّ، ولكنه كلامُ مَن يعني ما يقوله. أخبرني بما تم ترتيبه اليوم.

سرد حوري عليها كيف تم إعداد العريضة ومضمونها، واستمعت إيزا بانتباه ثم قالت: استمع إليّ الآن يا حوري وانظر إلى هذا...

أخرجت قلادة الأسد من ثوبها ودفعتها إليه وهي تقول: أخبريه يا رينيسنب أين عثرت عليها.

أخبرته رينيسنب، ثم قالت إيزا: حسناً يا حوري، فما هو رأيك؟

صمت حوري لحظة ثم قال: أنت امرأة حكيمة وأكبر منا سناً، فما هو رأيك أنت؟

- أنت لست من الذين يحبون إطلاق الأحكام السريعة غير المستندة إلى حقائق يا حوري. كنت تعلم منذ البداية كيف ماتت نوفريت، أليس كذلك؟

- لقد شككت في الأمر يا إيزا، كان مجرد شك.

- نعم، ونحن لدينا شكوك فقط. ولكننا نحن الثلاثة هنا، عند البحيرة، نستطيع الحديث في شكوكنا دون الإشارة إليها لاحقاً. تبدو لي الآن ثلاثة تفسيرات للأمور المأساوية التي حدثت. الأول: أن الراعي قال الحقيقة وأن ما رآه هو حقاً شبح نوفريت العائد من الموت، وأن لديها تصميماً شريراً على الانتقام لنفسها أكثر بإحداث مزيد من الأسى والحزن لعائلتنا. هذا جائز، وقد قال الكهنة والآخرون إنه جائز، ونحن نعلم أن الأرواح الشريرة قد تسبب المرض أحياناً. ولكن يبدو لي - أنا العجوز التي لا تميل إلى تصديق ما يقوله الكهنة - أن هناك احتمالات أخرى.

حوري: وما تلك؟

- لنفترض أن نوفريت قتلتها ساتيبي، وأن ساتيبي تخيلت نوفريت بعد مرور بعض الوقت وفي البقعة نفسها، وأنها - بسبب خوفها وشعورها بالذنب - وقعت وماتت. كل هذا واضح، ولكن لنأتِ الآن إلى افتراض آخر، وهو أن شخصاً ما أراد بعد ذلك لسبب ما زلنا نجهله أن يقتل اثنين من أبناء إمحوتب، وأن هذا الشخص

اعتمد على إيماننا الخرافي الذي يعزو تلك الأفعال لروح نوفريت... إنه افتراض مناسب تماماً.

صرخت رينيسنب: من الذي يريد أن يقتل يحموس وسوبك؟

- ليس أحد الخدم، فهم لا يجرؤون. وهذا ما يترك أمامنا قلة من الأشخاص تختار من بينهم.

- أحد منا نحن؟ ولكن هذا يا جدتي... مستحيل!

قالت إيزا بجفاف: اسألي حوري، لاحظي أنه لا يحتج.

التفتت رينيسنب إليه هاتفة: حوري! بالتأكيد...

هز حوري رأسه بهدوء وقال: أنت صغيرة وتثقين بالناس يا رينيسنب. إنك تظنين جميع من تعرفينهم وتحبينهم كما يبدون لك، ولا تعرفين القلب البشري وما يمكن أن ينطوي عليه من مرارة وشر.

- ولكن من؟ أيهم؟

- دعونا نعُدْ إلى القصة التي رواها الراعي: رأى امرأة ترتدي ثوباً من الكتان المصبوغ وعليها قلادة نوفريت، فإذا لم تكن روحاً إذن فقد رأى حقاً ما قال إنه رآه، مما يعني أنه رأى امرأة تحاول متعمدة أن تبدو مثل نوفريت. ربما كانت كيت، وربما حنيت، وربما أنت يا رينيسنب! من تلك المسافة يستطيع أي شخص أن يرتدي ثوباً نسائياً وباروكة... صمتاً، دعوني أتابع... الاحتمال الآخر أن الفتى كان يكذب وأنه روى القصة كما دُرِّب عليها، وأنه كان يطيع

شخصاً يأمره، وربما كان الفتى أبله إلى الحد الذي لم يدرك فيه الهدف من القصة التي أغري أو ارتشى ليقولها. لن نعرف الحقيقة الآن لأن الصبي مات، وهذه نقطة توحي بالكثير. إنها تدفعني إلى الاعتقاد بأن الصبي قد روى قصة تم تعليمها له، ولو حُقّق معه جيداً فإن هذه القصة كانت ستنهار، ومن السهل مع قليل من الصبر كشف كذبة الصبي.

حوري: إذن فأنت تظنين أن بين ظهرانينا من يدس السم؟

- نعم. وأنت؟

- أظن ذلك أيضاً.

نظرت رينيسنب إلى الاثنين برعب، وأكمل حوري: ولكنني لا أستطيع معرفة الدافع.

قالت إيزا: أوافقك، ولذلك يتملكني القلق، إذ لا أعرف من هو الهدف التالي.

قاطعتهما رينيسنب: ولكن... شخص منا؟

كانت نبرة صوتها لا تزال مستنكرة، فقالت إيزا بحزم: نعم يا رينيسنب... أحدنا: حينيت أو كيت أو آبي أو كاميني، أو حتى إمحوتب. نعم، أو إيزا أو حوري...

ثم ابتسمت وأضافت: أو حتى رينيسنب.

حوري: أنت على حق يا إيزا؛ يجب أن نضع أنفسنا موضع الشك.

قالت رينيسنب متعجبة مرتعبة: ولكن لماذا؟ لماذا؟!

- عندما نعرف لماذا نكون قريبين جداً من معرفة كل ما نريد، ولا يمكننا الاهتداء إلاّ من خلال النظر إلى الذين استُهدفوا بالجريمة. فلنتذكر أن سوبك انضم إلى يحموس فجأة بعد أن بدأ يحموس بالشرب، ولهذا فإن من المؤكد أن القاتل كان يريد يحموس، ولعل ذلك الشخص أراد قتل سوبك أيضاً.

- ولكن من يريد قتل يحموس؟ يحموس من بيننا جميعاً ليس له أعداء بالتأكيد، كان دائماً هادئاً وعطوفاً.

قال حوري: ولهذا فمن الواضح أن الدافع لم يكن نابعاً من الكره الشخصي، فكما تقول رينيسنب: ليس يحموس من ذلك الطراز من الرجال الذين يجلبون لأنفسهم العداوة.

إيزا: لا، إن دافع الجريمة أكثر غموضاً من ذلك؛ فهو إما أن يكون عداوة للعائلة كلها أو أنّ ما يقف خلف كل هذه الجرائم هو تلك الشهوة غير المشروعة لما في أيدي الغير التي حذّرتنا منها تعاليم بتاحوتيب، حين وصفها بأنها الصرة التي تجمع كل أنواع الشر والكيس الذي ينطوي على كل ما يمكن للمرء أن يلام عليه.

حوري: أدرك الاتجاه الذي يسير إليه تفكيرك يا إيزا، ولكن لكي نتوصل إلى نتيجة فعلينا التنبؤ بالنتائج المستقبلية لهذا الجرائم.

أومأت إيزا برأسها بشدة وانزلقت باروكتها الضخمة إلى أذنها، ورغم أن ذلك جعلها تبدو مضحكة وغريبة إلاّ أن أحداً لم يضحك. قالت: أعطنا تنبؤاً كهذا يا حوري.

صمت حوري لحظات. بدت في عينيه علامات التفكير، وانتظرت المرأتان، ثم تحدث أخيراً: لو أن يحموس مات كما كان مخططاً له فإن المستفيدين الرئيسيين هم أبناء إمحوتب الباقون، سوبك وآيبي، صحيح أن جزءاً من الممتلكات كان سيؤول بلا شك لأبناء يحموس، ولكن إدارتها سوف تكون بأيديهما، وبالتحديد بيد سوبك. سوبك سيكون بلا شك المستفيد الأكبر، إذ كان من شأنه أن يحل مكان الكاهن في غياب إمحوتب، وسوف يَخلفه في هذا المنصب بعد وفاته، ولكن رغم كونه المستفيد من الجريمة إلاّ أن من المستحيل أن يكون سوبك هو الشخص المذنب طالما أنه شرب بنفسه من الشراب المسموم كثيراً حتى الموت. لهذا -حسبما أرى- فإن وفاة هذين الاثنين تفيد شخصاً واحداً، وهذا الشخص هو آيبي.

قالت إيزا: أنا أوافقك. ألاحظ أنك نافذ البصيرة يا حوري، وأنا أقدر لك هذه المقدرة، لكنْ دعنا نفكر في آيبي: إنه صغير ونافد الصبر وذو مزاج سيء، وهو في سن مَن يظن أن تحقيق رغباته أهم شيء في الحياة. لقد شعر بالغضب والاستياء من أخويه الكبيرين وظن أنه قد تمّ استثناؤه بغير حق من المساهمة في الشراكة العائلية، ويبدو أيضاً أن كاميني قد أخبره بأمور غير حكيمة.

- كاميني؟

قاطعتها رينيسنب، ثم استدركت اندفاعها فخجلت وعضت على شفتيها، وأدار حوري رأسه كي ينظر إليها، وجرحتها تلك النظرة الطويلة الرقيقة النافذة. رفعت إيزا رأسها ونظرت إلى الفتاة

وقالت: نعم، أخبره كاميني. هل كان ذلك بإيحاء من جينيت أو لا؟ هذه مسألة أخرى. ولكن تبقى الحقيقة أن آيبي طموح ومغرور. كان مستاءً من سلطة أخويه وهو بالتأكيد يعتبر نفسه -كما أخبرني قبل مدة- العقل القيادي الأكبر لهذه العائلة.

سأل حوري: هل قال لك هذا؟

- كان لطيفاً بحيث أشركني معه في امتلاك قدر معين من الذكاء!

تعجبت رينيسنب وقالت: أتظنين أن آيبي قام متعمداً بتسميم يحموس وسوبك؟

- أنا أعتبر ذلك مجرد احتمال. كل ما نتحدث عنه الآن مجرد شكوك، فلم نحصل على الدليل. لقد قتل الناس إخوانهم منذ بدء الخليقة، وهم على علم أن الآلهة تكره مثل هذا الأمر ومع ذلك دفعتهم شرور الكراهية والطمع بما في يد إخوانهم. فإن كان آيبي هو مَن فعل ذلك فلن يكون من السهل إقامة الدليل على فعلته لأنه ذكي.

هز حوري رأسه موافقاً.

- ولكن ما نتحدث عنه هنا -كما قلت- مجرد شكوك، وسوف نستمر في دراسة كل أفراد هذا المنزل في ضوء هذا الشك. وكما قلت فإنني أستثني الخدم لأنني لا أظن أبداً أن أحداً منهم يجرؤ على فعل مثل هذا الأمر، ولكنني لا أستثني جينيت.

صرخت رينيسنب: حينيت؟ لكن حينيت مخلصة لنا جميعاً ولا تتوقف عن تكرار ذلك.

إيزا: من السهل التلفظ بالأكاذيب على أنها حقيقة. لقد عرفت حينيت منذ سنوات عديدة، عرفتها حين أتت هنا مع أمك وهي شابة، وكانت إحدى قريبات أمك، فقيرة سيئة الحظ. لم يكن زوجها يهتم بها وكانت عادية المظهر غير جذابة، وتوفي طفلها الوحيد، وقدمت إلى هنا وهي تعلن إخلاصها لأمك، ولكنني كنت أرى عينيها تراقبان أمك وهي تتجول في المنزل والفناء، وأنا أخبرك يا رينيسنب: لم يكن فيهما حب أبداً، بل كان فيهما الحسد. أما إعلانها أنها تحبكم جميعاً فلا أثق به.

حوري: أخبريني يا رينيسنب، هل تحبين حينيت؟

قالت رينيسنب بتردد: لا... لا أستطيع. لقد كنت أوبخ نفسي دائماً لأنني كنت أكرهها.

قال حوري: ألا تظنين أن ذلك كان لأنك تعلمين - غريزياً - أن كلامها هذا زائف؟ هل سبق لها أن أظهرت لكم حبها العتيد على شكل خدمات حقيقية؟ ألم تعمل دائماً على نشر الشقاق بينكم عن طريق الهمس وتكرار الأمور التي تؤدي إلى الفتنة و إثارة الغضب؟

- بلى، بلى، هذا صحيح.

ضحكت إيزا ضحكة جافة وقالت: لديك عينان وأذنان أيها المحترم حوري.

قالت رينيسنب: لكن والدي يثق بها ويحبها.

إيزا: ابني غبي! كل الرجال يحبون الإطراء، وحينيت تبذل الإطراء بسخاء كما تُبذل المراهم في الحفلات! ربما كانت حقاً متفانية نحوه، أحياناً أظن أنها كذلك، ولكنها ليست مخلصة لأي شخص آخر في هذا المنزل بالتأكيد.

احتجت رينيسنب: لكنها لن تقتل بالتأكيد، ولماذا تريد أن تسمم أياً منا؟ ماذا ينفعها هذا؟

- لا شيء، لا شيء. أما السبب فلا أعلم ماذا يدور في رأس حينيت، فيمَ تفكر وما هو شعورها، لكنني أظن أحياناً أن خلف هذا السلوك المتذلل والمتزلف أمراً غريباً. وإذا كان هذا صحيحاً فإن أسبابها هي أسباب لن أفهمها أنا أو أنت أو حوري.

أومأ حوري برأسه وقال: هناك تعفن بدأ من الداخل، لقد حدثتُ رينيسنب عنه ذات مرة.

- ولم أفهمك آنذاك، ولكنني بدأت أفهم الأمر بطريقة أفضل الآن؛ لقد بدأ بقدوم نوفريت، لقد رأيت آنذاك كيف أن أياً منا لم يعد كما كنت أحسبه. لقد جعلني ذلك أشعر بالخوف، والآن... كل شيء حولنا خوف!

وحركت يدها بإيماءة تنم عن العجز، فقال حوري: الخوف هو المعرفة الناقصة. عندما نعرف لن يكون هناك مزيد من الخوف يا رينيسنب.

وتابعت إيزا: ثم هناك كيت أيضاً.

يستطيع أن يعلم ما يدور في قلب الإنسان؟ يستطيع رجل ذو عزم وإصرار أن يلعب دوراً، فهل غضب كاميني بشدة من وفاة نوفريت وهل يسعى إلى الانتقام لها بالفعل؟ وإذا كانت سانيبي قتلت نوفريت فهل يجب أن يموت يحموس زوجها أيضاً؟ أجل، وسوبك أيضاً الذي هددها، وربما كيت التي تضايقها قليلاً، وأبي الذي كان يكرهها أيضاً؟ إن الأمر يبدو خيالياً، لكن من يستطيع أن يعرف؟

سكتت إيزا ونظرت إلى حوري الذي سألها: من يستطيع يا إيزا؟!

نظرت إليه بدهاء وقالت: ربما تستطيع أنت يا حوري! أنت تظن أنك تعرف، أليس كذلك؟

وصمت حوري لحظة ثم قال: لديّ فكرة عمّن وضع السم في الشراب وعن السبب، ولكنها فكرة لم تتضح بعد.

وسكت لحظة ثم تجهم وهزّ رأسه بالنفي وقال: لا، لا أستطيع أن أوجه اتهاماً محدداً.

- إننا نتحدث هنا عن شكوك. تابع يا حوري، تكلم.

هز حوري رأسه: لا يا إيزا، إنها مجرد فكرة ضبابية، وإن كانت صحيحة فالأفضل ألاّ تعرفي. ربما تكون المعرفة خطيرة، والشيء ذاته ينطبق على رينيسنب.

- إذن فالمعرفة خطر عليك يا حوري؟

- نعم، هي كذلك. أظن - يا إيزا - أننا جميعاً معرضون للخطر رغم أن رينيسنب ربما كانت أقلنا تعرضاً له.

نظرت إليه إيزا بعض الوقت ولم تتحدث، ثم قالت أخيراً: أنا على استعداد لدفع الكثير لأعرف ما الذي يدور في ذهنك.

لم يجب حوري فوراً، بل قال بعد لحظات بدا خلالها أنه يفكر: إن المؤشر الوحيد على ما يدور في ذهن الناس يكمن في سلوكهم. إذا تصرف الرجل تصرفاً غريباً ولم يكن على سجيته...

رينيسنب: فعندها تشك فيه؟

- نعم، هذا ما أعنيه بالضبط. إن الرجل الذي يملك عقلاً شريراً ونواياه شريرة يكون مدركاً واعياً لهذه الحقيقة، وهو يعلم أنه يجب أن يخفيها مهما كان الثمن، ولذلك فإنه لا يجرؤ على إظهار أي سلوك غير عادي.

إيزا: هل قلت الرجل؟

- الرجل والمرأة... الأمر سيان.

رمته إيزا بنظرة حادة ثم قالت: فهمت. وماذا بشأننا؟ ماذا عن الشكوك فينا نحن الثلاثة؟

- يجب مواجهة هذا أيضاً. لقد كنت أنا موضع ثقة: صنع العقود، والتصرف في المحاصيل كان دائماً بيدي، وكنت أتعامل مع كل الحسابات، فربما أكون قد زيفتها كما اكتشف كاميني أنه قد جرى في الشمال، وربما تحير يحموس من حساباتي ولعله بدأ يشك في الأمر، لهذا لم يكن لي بد من التخلص من يحموس.

وابتسم حوري من كلامه، فقالت رينيسنب: آه، حوري! كيف

تستطيع أن تقول مثل هذه الأمور؟ لن يصدقك من يعرفك جيداً.

- لا أحد يعرف أحداً آخر يا رينيسنب، دعيني أخبرك بهذا مرة أخرى.

إيزا: وأنا؟ إلامَ تشير الشكوك في حالتي؟ حسناً، إنني عجوز، وحين يشيخ العقل فإنه يمرض أحياناً فيكره ما كان يحبه. ربما كرهت أحفادي وسعيت للقضاء على أقربائي... إنه مرض الروح الشريرة الذي يصيب كبار السن أحياناً!

رينيسنب: وأنا؟ لماذا أحاول أنا قتل إخوتي الذين أحبهم؟

- إذا مات يحموس وسوبك وأبيي فسوف تكونين آخر أبناء إمحوتب وسوف يؤول كل شيء إليك، وستجدين زوجاً وتكونين وزوجك وصيَّين على أولاد يحموس وسوبك.

وابتسم حوري ثم أكمل قائلاً: لكننا لا نشك فيك يا رينيسنب.

وقالت إيزا: بل إننا نحبك أيضاً.

* * *

الفصل السابع عشر
الشهر الثاني من فصل الصيف
اليوم الأول

-١-

هرعت حينيت إلى غرفة إيزا حين دخلتها وقالت: إذن فقد كنت خارج المنزل. هذا أمر لم تفعليه منذ عام تقريباً.

كانت عيناها تنظران باستفسار إلى إيزا. قالت إيزا: للعجائز نزواتهن.

- لقد رأيتك تجلسين عند البحيرة... مع حوري ورينيسنب.

- إنهما جليسان رائعان كلاهما. هل يحدث شيء ولا ترينه يا حينيت؟

- لا أعلم ماذا تقصدين! كنت تجلسين هناك بوضوح ويستطيع الجميع أن يراك.

- ولكن ليس قريباً فيستطيع الجميع سماعي.

ضحكت إيزا فشمخت حينيت بأنفها بغضب وقالت: لا أعلم لماذا أنت قاسية عليّ يا إيزا وتغمزين دائماً من قناتي. إنني مشغولة بعملي ولا وقت لديّ لأستمع إلى محادثات الآخرين، ولماذا أهتم بما يقولونه؟

- لقد تساءلت دائماً.

- لولا خاطر إمحوتب الذي يقدّرني...

قاطعتها إيزا بحدة: أجل، لولا خاطر إمحوتب. إنك تعتمدين عليه، أليس كذلك؟ ولو حدث أي شيء لإمحوتب...

كان دور حينيت في المقاطعة: لن يحدث شيء لإمحوتب.

- كيف تعرفين يا حينيت؟ هل في هذا المنزل أمان؟ لقد حدث شيء ليحموس وسوبك.

- هذا صحيح، لقد مات سوبك وكاد يحموس أن يموت.

فانحنت إيزا إلى الأمام وقالت باهتمام: حينيت، لماذا ابتسمتِ حين قلت هذا؟

بُغتت حينيت وهتفت بذعر: أنا؟ ابتسمت؟ إنك تحلمين يا إيزا، هل من الممكن أن أبتسم في مثل هذه اللحظة ونحن نتحدث عن أمر رهيب كهذا؟

- صحيح. إنني شبه عمياء، ولكنني أحياناً وبقليل من الضوء أستطيع الرؤية جيداً. يحدث أحياناً عندما يتحدث شخص ما إلى شخص آخر يعلم أنه لا يرى جيداً أن لا يكون المتحدث حذراً، إذ

يسمح لنفسه أن تظهر على وجهه ملامح لم يكن ليُظهرها في مناسبة أخرى. لهذا فإنني أسألك مرة أخرى: لماذا تبتسمين بمثل هذا الرضا الخفي؟

- إن ما تقولينه فظيع... فظيع جداً!

- أنت خائفة.

- ومن لا يشعر بالخوف ومثل هذه الأمور تحدث في المنزل؟ نحن كلنا خائفون، أنا واثقة من ذلك... وتلك الروح الشريرة تعود من الموت لكي تعذبنا! ولكنني أعلم ما الأمر، لقد كنت تستمعين إلى حوري. ماذا قال عني؟

- وما الذي يعلمه حوري عنك يا حينيت؟

- لا شيء، لا شيء أبداً. يجب أن تسألي ما الذي أعرفه أنا عنه؟

اتسعت عينا إيزا وقالت: حسناً، ما الذي تعرفينه؟

- أنتم كلكم تحتقرون المسكينة حينيت؛ تظنون أنها بشعة وغبية، ولكنني أعرف ما يدور هنا. هناك الكثير من الأمور التي أعرفها، بالتأكيد. ربما أكون غبية ولكن يمكنني أن أعرف كم حبة فاصولياء تُزرع في صف واحد... ربما أكثر مما يرى الناس الأذكياء مثل حوري. عندما يلتقي حوري بي في أي مكان فإنه يتظاهر وكأنني غير موجودة وكأنه يرى شيئاً خلفي، شيئاً غير موجود. من الأفضل له أن ينظر إليّ... ربما يظن أنني تافهة وغبية، ولكن الأذكياء ليسوا

هم دائماً الذين يعرفون كل شيء. كانت ساتيبي تظن أنها ذكية، وأين هي الآن؟ أريد أن أعرف.

توقفت حينيت وعلامات الانتصار تبدو عليها، ثم بدا أن وخزة ضمير قد اعترتها فانكمشت قليلاً وهي تنظر إلى إيزا بعصبية. ولكن بدا أن إيزا كانت مستغرقة في حبل أفكارها، علت وجهها نظرة دهشة شديدة، نظرة خائفة. ثم قالت ببطء وتأمل: ساتيبي...

قالت حينيت بصوتها المنتحب كالمعتاد: أنا آسفة يا إيزا لأنني فقدت أعصابي. لا أعلم حقاً ماذا انتابني، لم أعنِ شيئاً مما قلت...

قاطعتها إيزا وهي تنظر إلى الأعلى: اذهبي يا حينيت. سواء عنيت ما قلته أم لم تعنه فلا أهمية لذلك، ولكنك قلت عبارة أيقظت أفكاراً جديدة في عقلي. اذهبي يا حينيت، وإنني أحذرك... كوني حذرة فيما تقولين وتفعلين. لا نريد مزيداً من الوَفَيات في المنزل... أرجو أن تكوني قد فهمت.

-٢-

«كل شيء مخيف»!

وجدت رينيسنب هذه الكلمات تندفع إلى شفتيها بتلقائية خلال جلسة المشاورات عند البحيرة، ولكنها لم تبدأ بإدراك حقيقة تلك الكلمات إلا لاحقاً. خرجت لكي تنضم إلى كيت والأطفال حيث كانوا مجتمعين قرب الجناح الصغير، ولكنها وجدت أن قدميها تتعثران، ثم توقفت لاإرادياً.

أدركت أنها كانت خائفة من الانضمام إلى كيت والنظر إلى وجهها العادي والهادئ خوفاً من أن تجد فيه وجه قاتل، وراقبت حينيت وهي تهرع إلى الشرفة وقد ازداد شعورها بالاشمئزاز. ثم دارت بيأس نحو باب الفناء، وبعد لحظة التقت بأيبي يدخل مرفوع الرأس وابتسامة مرحة على وجهه الوقح.

وجدت رينيسنب نفسها تحدق إليه... أيبي، طفل العائلة المدلل، الصبي الوسيم العنيد الذي تذكره عندما غادرت مع خاي.

- ما الأمر يا رينيسنب؟ لماذا تنظرين إليّ بهذه الطريقة الغريبة؟

- هل كنتُ كذلك؟

ضحك أيبي وقال: إنك تبدين غبية مثل حينيت.

هزت رينيسنب رأسها قائلة: حينيت ليست غبية، بل ماكرة جداً.

- إنها تملك كثيراً من المكر، أعلم ذلك. في الحقيقة هي مصدر إزعاج في هذا المنزل... إنني أنوي التخلص منها.

فتحت رينيسنب فمها وأغلقته، وهمست: تتخلص منها؟

- ما الذي أصابك يا أختي العزيزة؟ هل أصبحتِ أيضاً ترين أرواحاً شريرة مثل ذلك الراعي الأسود المسكين الغبي؟

- أنت تظن أن الجميع أغبياء.

- لقد كان ذلك الراعي غبياً بالتأكيد. ولكن ما تقولينه صحيح ؛ أنا لا أتحمل الغباء. لقد شاهدت كثيراً منه، ويمكنني أن أخبرك بأنه ليس أمراً مسلياً أن يجد المرء نفسه مع أخوين بطيئين أكبر منه لا يستطيعان الرؤية أبعد من أنفيهما. والآن وقد ابتعدا عن الطريق ولم يبقَ سوى والدي لأتعامل معه فسوف تلحظين الفرق قريباً. سوف يفعل والدي ما أطلبه.

نظرت رينيسنب إليه. بدا وسيماً ومتغطرساً، وكان متشبياً بتأثير شعور بحياة منتصرة ونشطة، وقد بدا لها ذلك أكثر من المعتاد. يبدو أن وعياً داخلياً يسمح له بهذا الإحساس بالحيوية والرضا.

قالت رينيسنب بحدة: أخواي لم يبتعدا عن الطريق كما قلت، فيحموس ما زال حياً.

نظر إليها آيبي بشيء من التهكم الوقح وقال: وأحسبك تعتقدين أنه سوف يشفى؟

- لم لا؟

ضحك آيبي وردّد: لم لا؟ حسناً، ببساطة أنا لا أتفق معك. لقد انتهى يحموس ؛ ربما يمشي قليلاً ويجلس ويتأوه تحت الشمس، ولكنه لم يعد رجلاً. لقد شُفي من الآثار الأولية للسم، ولكن يمكنك الرؤية بنفسك بأنه لم يتحسن أكثر من ذلك.

- ولِمَ لا يتحسن؟ يقول الطبيب إنه لن يمر وقت طويل قبل أن يعود قوياً كما كان من قبل.

هزّ آيبي كتفيه وقال: الأطباء لا يعرفون كل شيء... إنهم

يتكلمون بحكمة ويستعملون كلمات طويلة. يمكنك أن تلومي الشريرة نوفريت إن أحببت، ولكن يحموس، أخاك العزيز... انتهى.

- ألا تخاف على نفسك يا آيبي؟

- أخاف؟ أنا؟

ضحك آيبي وهو يرجع برأسه إلى الخلف، فقالت رينيسنب: لم تكن نوفريت تحبك كثيراً يا آيبي.

- لا يمكن لشيء أن يؤذيني يا رينيسنب إلاّ إذا سمحت أنا بذلك ؛ إنني لا أزال صغيراً ولكنني من أولئك الذين ولدوا لينجحوا. أما أنت يا رينيسنب فسوف يكون من الأفضل لك أن تنضمي إليّ، أتسمعين؟ إنك غالباً ما تعاملينني على أنني طفل مستهتر، ولكنني أكثر من ذلك. سوف تلحظين تغيراً في كل شهر، وقريباً جداً لن يكون في هذا المكان سوى إرادتي أنا. ربما أعطى والدي الأوامر ولفظها بصوته، ولكن العقل الذي يقررها هو عقلي.

وتقدم خطوة إلى الأمام، ثم توقف وقال بعدم اهتمام: لهذا احذري يا رينيسنب من أن أغضب منك.

وفيما وقفت رينيسنب تنظر خلفه سمعت صوت خطوات ودارت لترى كيت تقف خلفها.

- ماذا كان آيبي يقول يا رينيسنب؟

قالت رينيسنب ببطء: يقول إنه سيكون السيد هنا قريباً.

- هل قال هذا؟ إنني أرى غير ذلك.

-٣-

صعد آبي درجات الشرفة بخفة إلى المنزل. بدا أن منظر يحموس وهو مستلق على الأريكة يسعده، وقال بمرح: حسناً، كيف حالك يا أخي؟ ألن نراك تعود إلى الزراعة؟ لا أفهم لِمَ لم يتوقف العمل بدونك؟

قال يحموس بغضب وصوت ضعيف: لا أستطيع أن أفهم الأمر. لقد زال السم الآن فلماذا لا أستعيد قوتي؟ لقد حاولت المشي هذا الصباح فلم تسندني قدماي. إنني ضعيف... ضعيف، والأسوأ من ذلك أنني أزداد ضعفاً كل يوم!

هزّ آبي رأسه بمواساة زائفة وقال: هذا سيء بالفعل. ألم يساعدك الطبيب؟

- مساعد ميرسو يأتي كل يوم، لكنه لا يستطيع أن يفهم حالتي. إنني أشرب شراباً قوياً مستخلصاً من الأعشاب وتقدَّم القرابين يومياً إلى الآلهة ويقدَّم لي غذاء خاص، والطبيب يؤكد لي أنه ليس من سبب يمنعني من استعادة قواي بسرعة، ولكنني بدلاً من ذلك أضعف يوماً بعد آخر!

- هذا سيء.

ثم مضى آبي وهو يغني بصوت منخفض حتى وصل إلى حيث كان والده وحوري مشغولَين بورقة من الحسابات، وأشرق وجه إمحوتب القلِق المهموم لدى رؤيته أصغر أبنائه وأحبهم إليه وهتف: ها هو آبي ابني. ماذا لديك لتقوله لي عن المزرعة؟

- كل شيء على ما يرام يا والدي. كنا نجني الشعير، والمحصول جيد.

- نعم، والشكر للإله لأن الأمور تجري على ما يرام في الخارج. أتمنى أن تتحسن الأمور في الداخل أيضاً، ولكن ينبغي عليّ أن أثق بأشايت، إنها لن ترفض مساعدتنا في محنتنا. إنني قلق بشأن يحموس ولا أستطيع أن أفهم تعبه، ذلك الضعف غير المبرر.

ابتسم آبي بتهكم وقال: يحموس كان ضعيفاً دائماً.

قال إمحوتب بلطف: هذا ليس صحيحاً، بل كانت صحته جيدة دائماً.

قال آبي بتأكيد: إن الصحة تعتمد على روح الرجل. لم تكن لدى يحموس الروح والحيوية، بل إنه كان يخشى حتى من إعطاء الأوامر.

قال إمحوتب: هذا لا ينطبق عليه مؤخراً. لقد أظهر يحموس في الشهور الأخيرة أنه يملك السلطة والقوة، ولقد دُهشت للأمر، لكن هذا الضعف في أطرافه يقلقني. لقد أكد لي ميرسو أن الشفاء سوف يكون سريعاً بمجرد زوال تأثير السم.

أزاح حوري ورق البردي جانباً، وقال بهدوء: هناك سموم أخرى.

قال إمحوتب: ماذا تعني؟

تحدث حوري بصوت رقيق تأملي: هناك أنواع من السموم

المعروفة التي لا تعطي تأثيراً فورياً عنيفاً... إنها غادرة؛ فإذا أخذ منها القليل في كل يوم فإنها تتراكم في الجسم، وبعد شهور طويلة من الضعف يأتي الموت! هذه معلومات شائعة بين النساء، إنهن يستعملنها أحياناً كي يتخلصن من أزواجهن وليجعلن الأمر يبدو طبيعياً.

شحب وجه إمحوتب وقال: هل تلمح إلى أن هذا... هذا ما يعاني منه يحموس؟

- ألمح إلى أن هذا احتمال وارد بالرغم من أن عبداً يأكل من طعامه قبل أن يقدّم إليه، إلاّ أن مثل هذا الاحتياط لا يعني شيئاً طالما أن الكمية التي توضع في طبق واحد في أي يوم لا تكفي لإحداث أثر ضار.

صرخ آيبي بصوت مرتفع: حماقة، حماقة بالتأكيد! لا أصدّق أن مثل هذه السموم موجودة، أنا لم أسمع بها من قبل.

رفع حوري عينيه وقال: أنت صغير يا آيبي، وهناك أمور لا تزال تجهلها.

هتف إمحوتب: ولكن ما الذي يمكننا فعله؟ لقد ناشدنا آلهتنا وأرسلنا القرابين إلى المعبد... دون أن يعني ذلك أنني كنت أؤمن بالمعابد. النساء هن الساذجات بشأن هذه الأمور. ماذا يمكننا أن نفعل أكثر من هذا؟

فكر حوري وقال: دعوا طعام يحموس يُعَدّ على يد عبد واحد موثوق به، ولتتم مراقبة هذا العبد دائماً.

- ولكن هذا يعني... أن هنا، في هذا المنزل

صرخ آيبي: هراء، هراء!

رفع حوري حاجبيه استغراباً وقال: دعونا نجرب، وسنعرف إن كان هذا هراء.

خرج آيبي غاضباً من الغرفة، وحدق حوري إليه مفكراً وقد علت الحيرة والتجهم وجهه.

-٤-

خرج آيبي من المنزل وهو في غاية الغضب فكاد أن يوقع حينيت أرضاً فصاح بها: ابتعدي عن طريقي يا حينيت، إنك تتسللين دائماً وتقفين في الطريق.

- كم أنت قاسٍ يا آيبي؛ لقد رضضت يدي!

- هذا أمر جيد، لقد مللت منك ومن أساليبك المتباكية. كلما سارعت بمغادرة المنزل كان هذا أفضل، وسوف أتولى طردك من البيت.

لمعت عينا حينيت بحقد وقالت: إذن فأنت سوف تطردني، أليس كذلك؟ بعد كل هذا الاهتمام والحب الذي أوليتكم إياه! لقد كنت مخلصة للعائلة كلها... والدك يعلم هذا جيداً.

- أنا واثق أنه سمع هذا كثيراً، وكذلك نحن، وفي رأيي أنك مجرد امرأة خبيثة اللسان تحبين صنع المكائد. لقد ساعدت نوفريت

في مكائدها... أنا أعرف هذا جيداً. ثم توفيت وعدتِ تتذلّلين إلينا مرة أخرى، ولكنك سوف ترين... في النهاية سوف يستمع والدي إليّ ولبس إلى قصصك الكاذبة.

- أنت غاضب جداً يا آبي، ما الذي أثار غضبك؟

- لا شأن لك.

- ألست خائفاً من شيء يا آبي؟ ثمة أمور غريبة تحدث هنا.

صاح بها: لا تستطيعين إخافتي أيتها العجوز الخبيثة.

ثم اندفع خارجاً من المنزل. ودارت حينيت ببطء إلى الداخل، وأثار تأوّه يحموس انتباهها. كان قد رفع نفسه عن الأريكة وهو يحاول المشي، ولكن قدميه خذلتاه فوراً، ولولا مساعدة حينيت السريعة لوقع على الأرض.

- هنا يا يحموس، هنا. استلقِ مرة أخرى.

- كم أنت قوية يا حينيت! لا يظن المرء ذلك عندما ينظر إليك.

واسترخى مرة أخرى وقد وضع رأسه عند مسند الرأس الخشبي، ثم قال: شكراً لك، ولكن ما الذي أصابني؟ لماذا هذا الشعور كأن عضلاتي تحولت إلى ماء!

- هذا المنزل مسحور. إنه عمل تلك الشيطانة التي أتت إلينا من الشمال... لم يأتِ الخير أبداً من الشمال.

همس يحموس بكآبة مفاجئة: إنني أموت. نعم، إنني أموت!

تجهمت حينيت وقالت: سوف يموت آخرون قبلك.

- ماذا؟ ماذا تعنين؟

رفع نفسه مستنداً إلى مرفقه وحدق إليها فقالت: إنني أعلم ما الذي أقوله.

هزت رأسها عدة مرات ثم قالت: لست أنت الذي سيموت تالياً؛ انتظر وسوف ترى.

- ٥ -

- لماذا تتجنبينني يا رينيسنب؟

اعترض كاميني طريق رينيسنب متعمداً، فاحمرّ وجهها خجلاً ووجدت صعوبة في إعطاء جواب مناسب؛ فقد كان صحيحاً أنها دارت متعمدة عندما رأت كاميني قادماً.

- لماذا يا رينيسنب؟ أخبريني لماذا؟

لم يكن لديها جواب، ولم تستطع سوى أن تهز رأسها بحزن، ثم نظرت إليه وهو يقف مقابلها. كانت تخشى أن يبدو كاميني أيضاً مختلفاً، لكنها وجدته لم يتغير. نظرت عيناه إليها بوقار ولم تظهر على شفتيه هذه المرة أية ابتسامة، وسقطت عيناها قبل أن تلتقي بعينيه. كان كاميني قادراً على أن يثير اهتمامها دائماً، وكان قربه

يحرك مشاعرها. وأخذ قلبها ينبض بسرعة حين قال: أنا أعلم لماذا تتجنبيني يا رينيسنب.

عثرت على صوتها أخيراً: لم أكن أتجنبك، ولم ألاحظك قادماً.

ابتسم كاميني الآن، وشعرت بابتسامته من صوته وهو يقول: هذا كذب. رينيسنب، رينيسنب الجميلة.

شعرت بيده الدافئة القوية تمسك بذراعها فتخلصت منه قائلة: لا تلمسني. لا أحب أن يلامسني أحد.

- لماذا تصديني يا رينيسنب؟ أنت شابة قوية وجميلة، ومن المنافي للطبيعة أن تحزني على زوجك طول حياتك. سوف آخذك بعيداً عن هذا المنزل، فهو مليء بالوفيات والسحر الشرير. سوف تأتين معي وتكونين آمنة.

قالت رينيسنب بحدة: وإن لم أرد أن اذهب معك؟

ضحك كاميني فلمعت أسنانه البيضاء القوية. قال: أنت تريدين أن تأتي ولكنك لن تعترفي بذلك. الحياة رائعة يا رينيسنب عندما تكون الأخت والأخ معاً. إنني سأحبك وسوف أجعلك سعيدة، ولن أغني بعد ذلك لبتاح: «أعطني أختي اللينة»، بل سأذهب إلى إمحوتب وأقول له: «أعطني أختي رينيسنب»... أظن أنك لست آمنة هنا، ولذلك سوف آخذك بعيداً. أنا كاتب جيد ويمكنني العمل مع أحد النبلاء في طيبة إن أردت، رغم أنني أحب حياة الريف هنا... الزراعة والقطيع وأغاني الحصادين والصيد. أحب أن أبحر معك في

النهر يا رينيسنب، وسوف نأخذ تيتي معنا. إنها طفلة جميلة وقوية وسأحبها وأكون أباً عطوفاً عليها. هيا يا رينيسنب، ماذا تقولين؟

وقفت رينيسنب صامتة وكأنها تصغي إلى قلبها الذي أخذ ينبض بسرعة. وشعرت بوهن يتسلل إلى أحاسيسها، ولكن مع هذا الشعور بالرقة والاستسلام كان شعور آخر... شعور بالمعارضة.

قالت في نفسها: إنني أضعُفُ أمامه بسبب قوته وكتفيه العريضين وفمه الضاحك، ولكنني لا أعرف شيئاً عن عقله وأفكاره وقلبه. ليس بيننا أمان ولا انسجام... ما الذي أريده؟ لا أدري، ولكن ليس هذا ما أريده. نعم، ليس هذا.

وسمعت نفسها تقول بكلمات بدت لأذنيها ضعيفة فيها شك: لا أريد زوجاً آخر... أريد أن أكون وحدي، أن أكون نفسي.

- لا يا رينيسنب، أنت مخطئة. أنت لم تخلقي كي تكوني وحيدة. يداك تقولان ذلك عندما ترتجفان بين يدي... أترين؟

سحبت رينيسنب يدها بعيداً بجهد كبير وقالت: لا أحبك يا كاميني، بل أظن أنني أكرهك.

ابتسم وقال: لا أمانع في كراهيتك يا رينيسنب لأن كراهيتك أقرب ما تكون إلى الحب. سوف نتحدث في الموضوع مرة أخرى.

ثم تركها وتحرك بسرعة، ومشت رينيسنب ببطء إلى حيث كانت كيت والأطفال يلعبون قريباً من البحيرة. تحدثت كيت إليها،

لكن رينيسنب أجابت بعشوائية، ورغم ذلك بدا أن كيت لم تلاحظ ذلك أو أن عقلها كان - كالعادة - مشغولاً بالأطفال فلم تولي اهتماماً للأمور الأخرى.

قالت رينيسنب تقطع الصمت: هل يجب أن أتخذ زوجاً جديداً؟ ماذا تظنين يا كيت؟

أجابت كيت بهدوء ولامبالاة: أظن أن ذلك سيكون أفضل؛ إنك قوية وشابة يا رينيسنب، ويمكنك أن تنجبي مزيداً من الأطفال.

- وهل هذا كل ما في حياة المرأة يا كيت؟ أن أشغل نفسي في جناح النساء، وأنجب الأطفال وأقضي الأمسيات معهم قرب البحيرة تحت شجرة الجميز؟

- أجل؛ هذا هو كل ما يهم المرأة. أنت تعلمين هذا بالتأكيد. لا تتحدثي كأنك عبدة. النساء يملكن السلطة في مصر والميراث ينتقل منهن إلى أولادهن. إنهن نَسغ حياة مصر.

نظرت رينيسنب مفكرة إلى تيتي المشغولة بعمل إكليل من الزهور للعبتها، وكانت الطفلة متجهمة قليلاً وهي مستغرقة في عملها. كانت تيتي في وقت سابق تشبه خاي أباها، تحرك شفتها مثله وتدير رأسها قليلاً إلى الجوانب، وكان قلب رينيسنب يقفز عندها حباً وألماً. أما الآن فإن وجه خاي لم يعد واضحاً في مخيلة رينيسنب، وتيتي أيضاً لم تعد تحرك رأسها أو تلوي شفتها. كما كانت رينيسنب تحضن تيتي أحياناً وهي تشعر بأنها جزء منها، بأنها تملكها، ثم تقول لنفسها: إنها أنا، كما أنها خاي!

نظرت تيتي إلى الأعلى وابتسمت وهي ترى أمها، وكانت ابتسامة رزينة ومحبية تملؤها الثقة والسعادة.

فكرت رينيسنب: لا، إنها ليست أنا كما أنها ليست خاي؛ إنها نفسها، إنها تيتي، إنها وحدها، كما أنا وحدي كما هو كل إنسان وحده. وإذا ما توفر الحب بيننا فسوف نكون أصدقاء طول حياتنا، ولكن إذا افتقدنا الحب فإنها سوف تكبر ونكون أنا وهي غريبتين... إنها تيتي وأنا رينيسنب.

كانت كيت تنظر إليها بفضول وقالت: ماذا تريدين يا رينيسنب؟ أنا لا أفهم.

لم تجب رينيسنب. كيف ستعبّر لكيت عن الأشياء التي لا تستطيع هي نفسها فهمها. نظرت حولها، إلى جدران الفناء والشرفة ذات الألوان البهيجة ومياه البحيرة الهادئة والسرادق الممتع الصغير وأحواض الأزهار الأنيقة وأشجار البردي... كل ذلك آمن مغلق، لا شيء يخيف، وحولها الأصوات المنزلية المألوفة وثرثرة الأطفال وضجيج النساء الأجش الحاد والعبيد في المنزل وأصوات المواشي البعيدة...

قالت ببطء: لا يستطيع المرء أن يرى النهر من هنا.

دُهشت كيت وقالت: لماذا يريد المرء رؤيته؟

قالت رينيسنب ببطء: إنني غبية... لا أعلم.

وأمام عينيها رأت بوضوح سلسلة الحقول الخضراء المنتشرة،

غنية وواسعة ووراءها -من بعيد- مساحة رائعة من أزهار البنفسج الفاتحة وهي تغيب في الأفق، ويخترق نهر النيل الأزرق زرقة فاتحة كالفضة.

وحبست أنفاسها، فقد اختفت الصور والمناظر والأصوات المحيطة وحلّ محلها السكون والرضا الخالص. قالت لنفسها: إذا أدرت رأسي فسأرى حوري يرفع نظره عن أوراق البردي ويبتسم لي، ثم تغرب الشمس ويخيم الظلام وأنام... سيكون هذا هو الموت.

- ماذا قلت يا رينيسنب؟

جفلت رينيسنب. لم تكن تعي أنها تحدثت بصوت مرتفع، فرجعت من تخيلاتها إلى الواقع. كانت كيت تنظر إليها بفضول وهي تقول: لقد ذكرتِ «الموت» يا رينيسنب... فيمَ كنت تفكرين؟

هزت رينيسنب رأسها وقالت: لا أعلم، لم أعنِ...

نظرت حولها مرة أخرى. كم كان منظر العائلة هذا ممتعاً: قطرات الماء المتطايرة والأطفال يلعبون... وسحبت نفَساً عميقاً.

- يا للمكان الآمن! لا يستطيع المرء أن يتخيل أن أمراً فظيعاً سوف يحدث هنا.

ولكنهم عثروا على آيبي في البحيرة في صباح اليوم التالي ممدّداً وقد فتح ذراعيه ورجليه ووجهه إلى الأسفل في الماء، حيث أمسكت برأسه يد في الماء حتى اختنق ومات!

* * *

الفصل الثامن عشر

الشهر الثاني من فصل الصيف

اليوم العاشر

-١-

جلس إمحوتب شارد الذهن، يبدو كأنه كبر سنوات عدة... رجل عجوز محطّم تبدو عليه ملامح الفجيعة والدهشة! وأحضرت حينيت له الطعام وجعلت تلاطفه وتحاول إقناعه ليأكل: يجب أن تأكل يا سيدي لتحتفظ بقوتك.

- ولماذا يجب أن أكون قوياً؟ وما هي القوة؟ كان آيبي شاباً قوياً جميلاً، وهو ملقى الآن في الماء المملح! ابني العزيز المحبوب... آخر أبنائي!

- لا، لا يا سيدي. لا يزال لديك يحموس، ابنك الطيب يحموس.

- إلى متى؟ إنه محكوم بالموت هو الآخر، وقد نموت جميعاً. ما هذا الشر الذي لحق بنا؟ وكيف كان لي أن أعرف أن هذه

الأشياء سوف تحصل عندما اتخذت جارية في منزلي؟ إنه أمر مقبول وصحيح يتفق مع قانون البشر والآلهة. لقد عاملتها باحترام، فلماذا إذن تحدث مثل هذه الأمور؟ أم أنها آشايت التي تريد الانتقام مني؟ أهي التي لا تريد أن تغفر؟ إنها لم تستجب لعريضتي بالتأكيد، فإن الشر ما يزال مستمراً!

- لا يا سيدي، يجب ألاّ تقول هذا. لم يمر وقت طويل منذ وضع الوعاء في غرفة القرابين، وما يدرينا كم تحتاج قضايا القانون والعدالة من وقت في ذلك العالم؟ إن قضايا التأجيل لا تنتهي في محكمة نورمانش وتطول أكثر عندما تصل القضية إلى الوزير... العدالة هي العدالة في هذا العالم وفي العالم الآخر: عمل ينفَّذ ببطء، لكنه ينتهي نهاية صحيحة.

هز إمحوتب رأسه في شك، وتابعت حينيت: وبالإضافة إلى ذلك -يا إمحوتب- يجب أن تتذكر أن أيبي لم يكن ابن آشايت. لقد وُلد من أختك أنخ، فلماذا يجب أن تتعب آشايت نفسها من أجله؟ ولكن الأمر مع يحموس مختلف... سوف يشفى يحموس لأن آشايت سوف تتولى ذلك.

- أعترف أن كلماتك تريحني يا حينيت. صحيح أن يحموس يستعيد الآن قواه في كل يوم، فهو ولد مخلص وجيد، ولكن... آه لعزيزي أيبي، تلك الحيوية وذلك الجمال!

تأوه إمحوتب مجدداً، وانتحبت حينيت بتعاطف: واحسرتاه، واحسرتاه!

- تلك الفتاة الملعونة وجمالها... أتمنى لو أنني لم أرَها!

- نعم، بالتأكيد يا سيدي العزيز. لقد تعلّمت السحر الشرير، لا شك في ذلك.

سُمع نقر عصاً على الأرض ودخلت إيزا تعرج إلى القاعة، وضحكت بسخرية: أليس في هذا المنزل أحد يعقل؟ أليس لديكم ما تفعلونه أكثر من لعن فتاة بائسة متوفاة أثارت إعجابك وأشعل كيدها وحقدها التافه تصرفات غبية لزوجات أبنائك؟

- كيدها وحقدها التافه؟ هل هذا ما تصفين به فعلها يا إيزا؟ في وقت مات فيه اثنان من أبنائي والثالث يحتضر! آه، كيف لأمي أن تقول ذلك؟

- يجب أن يقولها لك شخص ما ما دمت لا تستطيع أن تدرك الحقائق. دعك من هذه الخرافات، كيف تفعل روح فتاة ميتة كل هذا الشر؟ إن اليد التي أغرقت أيبي يد حية لا ميتة، وكذلك اليد التي وضعت السم في الشراب الذي شربه يحموس وسوبك. إن لديك عدواً يا إمحوتب؛ نعم، عدواً في هذا المنزل. والدليل عليه أن نصيحة حوري منذ نفذت وأصبحت رينيسنب هي التي تعد بنفسها طعام يحموس أو يقوم أحد العبيد بإعداده فيما هي تراقبه وتحمله هي بنفسها إليه... منذ ذلك الوقت ويحموس يستعيد قوته كل يوم. حاول أن تتوقف عن التصرف بغباء يا إمحوتب والنحيب وضرب الرأس، ودعك من حينيت التي تشجعك على هذا السخف.

- آه يا إيزا، كم تسيئين إليّ!

- حينيت تفعل ذلك إما لأنها غبية أو لسبب آخر.

- فليسامحك الله يا إيزا لقساوتك هذه على امرأة وحيدة مسكينة.

اندفعت إيزا وهي تهز عصاها بإيماءة معبرة: تمالك نفسك يا إمحوتب وفكر، إن زوجتك آشايت (التي كانت -بالمناسبة- امرأة محبوبة وليست حمقاء) يمكن أن تساعدك في ذلك العالم الآخر، ولكن لا تتوقع منها أن تتمكن من التفكير عوضاً عنك في هذه المشكلة. ينبغي أن نفعل شيئاً، لأننا إن لم نفعل فستقع المزيد من الوَفَيات في هذا البيت.

- عدو حي؟ عدو في هذا المنزل؟ هل تؤمنين بذلك حقاً يا أمي؟

- بالطبع أؤمن بذلك؛ هذا هو الأمر الوحيد المعقول.

- إذن فنحن جميعاً في خطر!

- بالتأكيد نحن كذلك. لسنا تحت خطر السحر والأرواح، لكنها قوة بشرية، أصابع حية تضع السم في الطعام والشراب وتتسلل خلف صبي يعود متأخراً في الليل من القرية وتدفع برأسه إلى مياه البحيرة!

- إن من يفعل ذلك يجب أن يكون قوياً.

- نعم، هذا صحيح في ظاهر الأمر، ولكنني غير متأكدة من ذلك؛ فقد عاد آيبي ثملاً من القرية ودخل مترنّحاً إلى البيت، وربما

انحنى على البحيرة ليغسل وجهه دون خوف من الشخص الذي اقترب منه، وفي هذه الحالة لا يحتاج الأمر إلى قوة كبيرة.

- ماذا تحاولين أن تقولي يا إيزا؟ إن امرأة هي التي فعلت ذلك؟ هذا مستحيل... الأمر كله مستحيل. كيف يكون في هذا المنزل عدو ولا نعرفه؟ سأعرفه إن كان في البيت.

- الشر مخفي داخل القلوب ولا يظهر على الوجه يا إمحوتب.

- تعنين أحد خدمنا أو العبيد...

- ليس خادماً ولا عبداً يا إمحوتب.

- تعنين واحداً منا؟ أو ربما حوري أو كاميني؟ لكن حوري أحد أفراد العائلة وقد أثبت أنه مخلص يستحق الثقة، وكاميني... صحيح أنه غريب لكنه من دمي وقد أثبت إخلاصه بحماسة في خدمتي. وقد جاء إليّ هذا الصباح وطلب مني أن أزوجه رينيسنب.

ظهر الاهتمام على وجه إيزا وقالت: وماذا قلت له؟

- ماذا يمكنني أن أقول؟ قلت إننا في حالة سيئة وبحموس مريض، فهل هذا هو وقت الحديث في الزواج؟

- وبماذا أجاب؟

- قال إنه يظن أن هذا هو الوقت المناسب للحديث في الزواج لأن رينيسنب ليست آمنة في هذا المنزل.

- لا أدري هل هي آمنة أم لا؟ ظننت أنها آمنة، وقد ظن حوري كذلك، ولكن الآن...

- وهل يمكن أن يجري المرء مراسيم الزواج والدفن معاً؟ ذلك لا يليق.

- هذا ليس وقت مراعاة التقاليد، خصوصاً أنه يبدو أن رجال التحنيط يقيمون في هذا البيت، وستزدهر مؤسسات منتو وآيبي للدفن وإجراءات الموت.

شرد إمحوتب برهة ثم قال: لقد رفعا أسعارهما بنسبة عشرة بالمئة... هذا ظلم! يقولون إن العمال ارتفعت أجورهم.

قالت إيزا مبتسمة: يجب أن يعطونا خصماً لتعاملنا معهم بالجملة!

نظر إمحوتب إليها برعب وقال: أمي العزيزة، إن الأمر لا يحتمل الدعابة والفكاهة.

- الحياة كلها نكتة، والموت هو الضاحك الأخير. ألا تسمع ذلك في كل عيد؟ «كلْ، واشرب، وكن سعيداً، فإنك سوف تموت في النهاية»... هذا قول يناسبنا تماماً هنا، والسؤال الوحيد هو: مَن سيموت غداً؟

- ما تقولينه مخيف! ماذا يمكن أن نفعل؟

- لا تثق بأحد. هذا أول أمر وأهمه... لا تثق بأحد.

بدأت حينيت بالنحيب وقالت: لماذا تنظرين إليّ؟ أنا واثقة أنه

إذا كان أحدٌ جديراً بالثقة فهو أنا. لقد برهنت على هذا طوال تلك السنين؛ لا تستمع إليها يا إمحوتب.

- اهدئي، اهدئي أيتها العزيزة حينيت... إنني أثق فيك بالطبع وأعرف جيداً قلبك الصادق المخلص.

قالت إيزا: إنك لا تعرف شيئاً. لا أحد منا يعرف شيئاً... وهذا هو الخطر الحقيقي.

انتحبت حينيت: أنت تتهمينني!

- لا أستطيع الاتهام ولا أملك المعرفة أو الدليل، مجرد شك.

نظر إمحوتب إليها وقال بحدة: تشكين؟ فيمن؟

قالت إيزا ببطء: لقد شككت مرة ومرتين ومرة ثالثة... سوف أكون صادقة؛ لقد شككت أول الأمر في آيبي، لكن آيبي مات، إذن كان شكي باطلاً. ثم شككت بشخص آخر، ولكن في يوم وفاة آيبي جاءتني فكرة أخرى...

ثم سكتت قليلاً قبل أن تقول: هل حوري وكاميني في المنزل؟ أرسل في طلبهما هنا... أجل، ورينيسب من المطبخ أيضاً، وكيت ويحموس؛ لدي شيء أقوله على مسمع جميع أهل المنزل.

-٢-

نظرت إيزا إلى العائلة المجتمعة، والتقت عيناها بنظرة يحموس الرزينة الرقيقة وابتسامة كاميني، والتساؤل الخائف في

عيني رينيسنب ونظرة كيت الهادئة اللامبالية، ونظرة حوري المفكرة المبهمة والخوف والانزعاج الظاهر على وجه إمحوتب المرتعش، والفضول، بل السرور، في عيني حينيت.

قالت إيزا في نفسها: "هذه الوجوه لا تخبرني بشيء. إنها تظهر المشاعر الخارجية، ولكن تحدث خيانة هنا بالتأكيد!". ثم رفعت صوتها قائلة: لديّ شيء أقوله لكم جميعاً، لكنني سوف أتحدث أولاً إلى حينيت هنا أمامكم كلكم.

تغيرت ملامح حينيت؛ تلاشت ملامح السرور وبدت خائفة، وارتفع صوتها في احتجاج حاد: أنت تشكّين فيّ يا إيزا... كنت أعرف هذا. سوف تحولين الأمر إلى قضية ضدي. ومن أنا؟ امرأة مسكينة لا أملك ذكاء حاداً لكي أدافع عن نفسي! سوف أدان دون أن تتاح لي فرصة الدفاع عن نفسي.

قالت إيزا بسخرية ورأت حوري يبتسم: ليس دون أن تُتاح لك الفرصة للدفاع عن نفسك.

استمرت حينيت، وقد أخذ صوتها يصبح أكثر هستيرية: لم أرتكب شيئاً، إنني بريئة... إمحوتب، يا سيدي العزيز، أنقذني.

رمت بنفسها إلى الأسفل وأمسكت بقدميه، وبدأ إمحوتب يهمهم، وفي الوقت ذاته كان يربت على رأس حينيت: إنني أحتج يا أمي، هذا مهين.

قاطعته إيزا: أنا لم أصدر اتهاماً، لا أتهم أحداً دون دليل، إنني فقط أسأل حينيت أن توضح لنا معنى بعض الأشياء التي قالتها.

- لم أقل شيئاً، لا شيء على الإطلاق.

- بل قلت كلمات سمعتها بأذني، وأذناي تسمعان جيداً وإن يكن نظري ضعيفاً. لقد قلت إنك تعرفين شيئاً عن حوري. والآن، ما هو الشيء الذي تعرفينه عن حوري؟

بدا حوري دَهِشاً قليلاً وقال: أجل يا حينيت، ما الذي تعلمينه عني؟ دعينا نسمعه.

جلست حينيت على وركيها ومسحت عينيها، بدت متجهمة متحدية وقالت: لا أعرف شيئاً، وماذا أعرف؟

حوري: هذا ما ننتظر سماعه منك.

هزت حينيت كتفيها وقالت: كنت أتحدث فقط، لم أكن أعني شيئاً.

إيزا: سوف أعيد على مسمعك كلماتك أنت. قلت إننا جميعاً نحتقرك، لكنك تعلمين كثيراً عما يدور في هذا المنزل وأنت ترين أكثر مما يراه الأذكياء. ثم قلت: عندما يلقاني حوري فإنه ينظر إليّ كأنني غير موجودة، كأنه يرى شيئاً خلفي، شيئاً غير موجود.

قالت حينيت بكآبة: إنه ينظر إليّ هكذا دائماً؛ كأنني حشرة! عندما ينظر إليّ بتلك الطريقة، شيء لا يهم أبداً.

قالت إيزا ببطء: لقد بقيت هذه العبارة في ذهني: **شيء خلفي، شيء غير موجود.**

قالت حينيت: كان يجب أن ينظر إليّ!

مضت إيزا بالقول: ثم انتقلتِ إلى الحديث عن ساتيبي، نعم، عن ساتيبي وكيف كانت ساتيبي ذكية، وقلت: لكن أين ساتيبي الآن؟

نظرت إيزا حولها وتساءلت: ألا يعني هذا شيئاً لأي منكم؟ فكروا في ساتيبي، ساتيبي التي ماتت، وتذكروا أن المرء يجب أن ينظر إلى المرء، لا إلى شيء غير موجود.

سادت لحظة صمت رهيبة ثم صرخت حينيت، كانت صرخة عالية، صرخة كانت تبدو كأنها تعبر عن الرعب. صرخت بلا توافق في الكلام: لم أفعل... أنقذني يا سيدي... لا تدعها... لم أقل شيئاً... لا شيء!

انفجر إمحوتب غاضباً وقال بحدة: هذا لا يُغفر. لن أسمح باتهام هذه المرأة المسكينة وإرهابها. ماذا لديك ضدها؟ في كلماتك أنت نفسك لا شيء على الإطلاق.

تدخل يحموس بدون خوفه المعتاد: أبي على حق، إن كان لديك اتهام صريح ضد حينيت فقوليه.

قالت إيزا ببطء: أنا لا أتهمها.

وانحنت على عصاها وبدا جسدها كأنه تقلص، والتفت يحموس بسلطة واثقة إلى حينيت فقال: إيزا لا تتهمك بارتكاب الشر الذي حدث. فإذا كنتِ فهمتها جيداً فهي تظن أن لديك معلومات محددة تخفينها. لهذا - يا حينيت - إن كان عندك شيء تعرفينه عن

حوري أو غيره فهذا هو الوقت المناسب للحديث... هنا أمامنا جميعاً. تحدثي، ما المعلومات التي لديك؟

هزت حينيت رأسها وقالت بإصرار: لا شيء.

- تأكدي مما تقولين يا حينيت، فالمعرفة خطيرة.

- لا أعرف شيئاً، أقسم على ذلك.

كانت حينيت ترتجف. لم يكن صوتها يحوي نبرته المتنحية المؤثرة، بل بدا مرتاعاً وصادقاً. وتنهدت إيزا بعمق وانحنى جسدها إلى الأمام وهمست: ساعدوني لأعود إلى غرفتي.

أتى حوري ورينيسنب مسرعَين نحوها، قالت إيزا: ليس أنت يا رينيسنب، أريد حوري.

واتكأت عليه وهو يساعدها حتى وصلت غرفتها، فنظرت إليه ورأت وجهه عابساً وتعساً فقالت: خيراً يا حوري؟

- كنت غير حكيمة يا إيزا، غير حكيمة تماماً.

- كان يجب أن أعرف.

- نعم، ولكنك خاطرتِ مخاطرة رهيبة.

- فهمت؛ إذن فأنت تظن مثلي؟

- لقد ظننت ذلك منذ وقت، ولكن ليس عندي دليل ولا حتى ظل دليل، وحتى الآن يا إيزا ليس لديك دليل، مجرد أفكار واستنتاجات.

- يكفي أنني أعرف.

- ربما كان ذلك أكثر مما ينبغي.

- ماذا تعني؟ آه، نعم، بالطبع.

- احذري يا إيزا، فأنت في خطر من الآن فصاعداً.

- يجب أن نتصرف بسرعة.

- هذا صحيح، فما الذي نستطيع فعله؟ يجب أن يكون لدينا دليل.

- أعرف.

لم يقولا مزيداً، فقد جاءت خادمة إيزا الصغيرة تركض نحو سيدتها، وتركها حوري في رعاية الفتاة وخرج ووجهه يبدو هادئاً تغشاه الحيرة.

تحدثت الفتاة وتجولت حول إيزا، لكن إيزا لم تلاحظها؛ شعرت بالعجز والمرض والبرد، ورأت الدائرة المحكمة من الوجوه مرة أخرى تراقبها وهي تتحدث. مجرد نظرة، وومضة مؤقتة من الخوف والفهم... هل تكون مخطئة؟ هل كانت متأكدة مما رأت؟ فعيناها لا تكادان تبصران.

نعم؛ كانت واثقة. لم يكن ما رأته مجرد تعبير بقدر ما كان توتراً مفاجئاً للجسد كله، بل تصلباً واشتداداً. كان لكلماتها التائهة معنى لشخص واحد فقط، كان لها ذلك المعنى القاتل الذي لا يخطئ، الذي يسمونه الحقيقة.

* * *

الفصل التاسع عشر

الشهر الثاني من فصل الصيف

اليوم الخامس عشر

-١-

- الآن وقد عرضنا الأمر عليك يا رينيسنب، ماذا تقولين؟

نقلت رينيسنب نظرها في شك بين والدها ويحموس، وشعرت بالارتباك والذهول فقالت: لا أعلم.

خرجت هذه الكلمة من فمها بلا إحساس، وقال إمحوتب: لو كانت الظروف عادية فسنجد وقتاً للنقاش. لدي أقرباء كثيرون ويمكنك اختيار من تريدين حتى نتفق على الزوج المناسب لك، لكن الوضع الآن غير مستقر... أجل، إن الحياة غير مستقرة. هذا هو الحال يا رينيسنب: نحن الثلاثة نواجه الموت الآن. يحموس، وأنت، وأنا... من الذي سيقع عليه الدور؟ لذلك يتوجب علي أن أرتب شؤوني. إذا حدث أي شيء ليحموس فسوف تحتاجين - يا ابنتي الوحيدة - إلى

رجل يقف إلى جانبك يشاركك في ميراثك ويشرف على ممتلكاتي التي لا يمكن لامرأة إدارتها. مَن يعلم متى يحين الوقت الذي سوف أبتعد عنك فيه؟ لقد رتبتُ الأمر لتؤول الوصاية على أولاد سوبك إلى حوري إن لم يكن يحموس على قيد الحياة، وكذلك الوصاية على أولاد يحموس طالما أن هذه هي رغبته، أليس كذلك يا يحموس؟

أومأ يحموس قائلاً: كان حوري مقرباً مني دائماً، وهو كأحد أفراد عائلتي.

قال إمحوتب: صحيح، صحيح، ولكن تبقى حقيقة أنه ليس أحد أفراد هذه العائلة. لكن كاميني من العائلة، إذن فإنه يعتبر -من جميع النواحي- الزوج الأفضل لرينيسنب. ماذا تقولين يا رينيسنب؟

كررت رينيسنب مرة أخرى: لا أعلم.

شعرتْ بتعب فظيع وأبوها يردد: إنه وسيم ظريف، ألا توافقين على هذا؟

- بلى.

سألها يحموس بلطف: ولكنك لا تريدين الزواج به؟

رمت رينيسنب أخاها بنظرة امتنان. كان مصمماً ألاّ يتم استعجالها أو مضايقتها لتفعل أمراً لا تريد فعله. قالت: لا أعلم ما أريد، إن ذلك غباء، أنا أعلم لكنني اليوم... إنه، إنه الضغط والقلق الذي نعيش فيه.

قال إمحوتب: سوف تشعرين بالأمان وكاميني إلى جانبك.

يحموس: أبي، هل فكرت في حوري زوجاً لرينيسنب؟

- نعم، هذا جائز.

- لقد توفيت زوجته عندما كان شاباً، ورينيسنب تعرفه جيداً وتحترمه.

جلست رينيسنب كأنها تحلم فيما كان الرجلان يتحدثان ويناقشان أمر زواجها، وكان يحموس يحاول مساعدتها في اختيار ما تريده لكنها شعرت بأنها فقدت حيويتها مثل لعبة تيتي الخشبية. قالت بسرعة وهي تقاطع حديثهما دون أن تسمع ما يقولان: سوف أتزوج كاميني ما دمت تظن أنه أمر جيد.

هتف إمحوتب برضا وأسرع خارج القاعة، وتقدم يحموس نحو أخته فوضع يده على كتفها وقال: أتريدين هذا الزواج يا رينيسنب؟ هل تكونين سعيدة؟

- لِمَ لا أكون سعيدة؟ كاميني وسيم ومرح ولطيف.

بقي يحموس متشككاً غير راضٍ وقال: أعرف ذلك، ولكن سعادتك مهمة يا رينيسنب، يجب ألاّ تدعي والدي يستعجلك في فعل أمر لا تريدينه. أنت تعرفينه جيداً.

- نعم؛ عندما يضع في رأسه فكرة فيجب علينا جميعاً أن ننفذها.

قال يحموس بحزم: ليس بالضرورة، لن أوافق على هذا الأمر إلاّ إذا أردتِ ذلك.

- آه يا يحموس! إنك لم تقف ضد والدي أبداً.

- ولكنني سوف أفعل في هذه القضية. لا يمكنه إجباري على تأييده، وأنا لن أفعل ذلك.

نظرت رينيسنب إليه. وجهه الذي كان غالباً متشككاً بدا الآن حازماً ومصمماً، وقالت بامتنان: أنت لطيف يا يحموس، لكنني لا أخضع للإجبار بالتأكيد. لقد مضت تلك الحياة القديمة هنا، الحياة التي كنت مسرورة بالعودة إليها... وسوف أصنع أنا وكاميني حياة جديدة معاً ونعيش مثلما يجب على الزوج والزوجة أن يفعلا.

- إذا كنت واثقة...

قالت رينيسنب وهي تبتسم له بمحبة وتخرج من القاعة إلى الشرفة: أنا واثقة.

وعبرت من هناك إلى الفناء. كان كاميني يلعب مع تيتي قريباً من حافة البحيرة، فاقتربت رينيسنب بهدوء وأخذت تراقبهما دون أن يشعرا بها. كان كاميني مرحاً كالعادة وبدا مستمتعاً باللعبة بنفس القدر الذي تستمتع به الطفلة. ورقّ قلب رينيسنب له وقالت في نفسها: سيكون أباً مناسباً لتيتي.

ثم التفت كاميني فرآها، فوقف وهو يضحك وقال: لقد جعلنا لعبة تيتي كاهناً يقدم القرابين ويحضر المراسم في المعبد.

قالت تيتي: اسمه ميريتاح.

كانت تتحدث بجدية وتابعت: ولديه طفلان وكاتب مثل حوري.

ضحك كاميني وقال: تيتي ذكية جداً وقوية وجميلة أيضاً.

وانتقلت عيناه من الطفلة إلى رينيسنب، وقرأت رينيسنب في نظراته اللطيفة ما كان يدور في ذهنه... بالأطفال الذين سوف تنجبهم له ذات يوم. وسرت في جسدها رعشة بسيطة، لكنها شعرت في الوقت ذاته ببعض الأسف؛ لقد كانت تحب أن ترى في عينيه في تلك اللحظة صورتها فقط، وفكرت: لِمَ لا يستطيع أن يرى رينيسنب فحسب؟

ثم زال هذا الشعور وابتسمت بلطف وقالت: لقد تحدث والدي معي.

- وهل وافقت؟

ترددت لحظة قبل أن تجيبه: نعم، وافقت.

قيلت الكلمة الأخيرة وانتهى الأمر، وتمنت لو أنها تتخلص من الشعور بمثل هذا التعب والحذر.

- رينيسنب!

- نعم يا كاميني؟

- هل تبحرين معي عبر النهر في أحد القوارب؟ هذا أمر طالما تمنيت فعله معك.

عجباً؛ من الغريب أن يقول هذا! منذ اللحظة الأولى التي رأته فيها فكرت في الشراع الممدود والنهر ووجه خاي الضاحك. والآن نسيت وجه خاي، وسيكون كاميني أمام الشراع والنهر، هو الذي سيجلس ويضحك معها.

هذا هو الموت... أجل، لكن هناك تيتي، هناك الحياة وعودة الحياة مثلما تجتاح مياه الفيضان السنوية التربة القديمة وتهيء التربة لزراعة المحاصيل الجديدة. هل هي أكثر من امرأة في المنزل؟ إذا كانت رينيسنب أو غيرها فماذا يهم؟

ثم سمعت صوت كاميني ملحّاً ومنزعجاً قليلاً: فيمَ تفكرين يا رينيسنب؟ إنك تذهبين بفكرك بعيداً أحياناً... هل ستذهبين معي لنبحر في النهر؟

- أجل يا كاميني، سوف آتي معك.

- سوف نأخذ تيتي أيضاً.

-٢-

فكرت رينيسنب في الأمر كالحلم... القارب والشراع وكاميني وهي وتيتي هربوا من الموت والخوف من الموت ليبدؤوا حياة جديدة. وتحدث كاميني فأجابت وهي شاردة، وقالت في نفسها: هذه هي حياتي ولا مفر... لماذا أقول لنفسي: «مفر»؟ ما المكان الذي أهرب إليه؟

ومرة أخرى برزت أمام عينيها غرفة صخرية صغيرة قرب

الضريح وهي تجلس وقد رفعت إحدى ركبتيها وهي تسند ذقنها على يدها. ولكن تلك الغرفة كانت خارج الحياة... هذه هي الحياة ولا مفر حتى يأتي الموت!

وأرسى كاميني القارب وصعدت إلى الشاطئ. رفع تيتي وتشبثت الطفلة به، فكسرت يدُها التي وضعتها على عنقه عقدَ التعويذة التي يرتديها وسقطت عند قدميّ رينيسنب، فانحنت والتقطتها. كانت تعويذة على شكل الإله آنخ مصنوعة من الذهب والفضة... كانت علامة آنخ من الذهب والفضة.

صرخت باعتذار: لقد التوت، أنا آسفة، كن حذراً.

أخذها كاميني قائلاً: سوف تنكسر.

ولكنه، وبأصابعه القوية، لواها أكثر فقسمها عمداً إلى نصفين فهتفت به: آه! ماذا فعلت؟

خذي نصفاً يا رينيسنب وسآخذ الآخر، ستكون علامة بيننا بأننا نصفان لكيان واحد!

مد نصف التعويذة إليها، وحين مدت يدها لتأخذ نصف التعويذة خطر ببالها فجأة أمر غريب... فشهقت بحدة.

- ما الأمر يا رينيسنب؟

- نوفريت!

- ماذا تعنين بنوفريت؟

تحدثت رينيسنب بسرعة وثقة: التعويذة المكسورة في صندوق

جواهر نوفريت! أنت الذي أعطاها لها... أنت ونوفريت... إنني أرى الآن كل شيء وأعلم سبب شقائها. أنا أعرف مَن وضع صندوق الجواهر في غرفتي... أعلم كل شيء. لا تكذب يا كاميني، أقول لك إنني أعرف!

لم يحتج كاميني، بل وقف بثبات ينظر إليها ولم يُزِحْ نظره، وعندما تحدث كان صوته رزيناً، ولأول مرة لم تكن على وجهه ابتسامة. قال: لن أكذب يا رينيسنب.

انتظر لحظة وتجهم قليلاً كأنه يحاول أن يرتب أفكاره، ثم قال: أنا سعيد نوعاً ما لأنك تعرفين يا رينيسنب، على الرغم من أن الأمر ليس كما تظنين.

- لقد أعطيتَها نصف التعويذة - كما كنت ستعطيني - علامة على أنكما نصفان لكيان واحد، تلك كانت كلماتك.

- أنت غاضبة يا رينيسنب؟ أنا سعيد لأن هذا يعني أنك تحبينني! ولكن يجب أن أجعلك تفهمين؛ أنا لم أعطها التعويذة... نوفريت هي التي أعطتنيها. ربما لا تصدقينني لكن هذه هي الحقيقة، أقسم أن هذه هي الحقيقة.

قالت رينيسنب ببطء: لن أقول إنني لا أصدقك، ربما يكون هذا صحيحاً.

برز وجه نوفريت المكفهرّ التعِس أمام عينيها، وتابع كاميني بحماسة وصبيانية: حاولي أن تفهمي يا رينيسنب. كانت نوفريت

جميلة وقد أسعدتني بالإطراء، ومَن لا يشعر بذلك؟ لكنني لم أحبها حقاً.

شعرت رينيسنب بنوبة غريبة من الشفقة. نعم؛ لم يحب كاميني نوفريت، لكن نوفريت أحبته بيأس ومرارة! كانت هذه هي نفس البقعة عند ضفة النيل التي تحدثت فيها مع نوفريت ذلك الصباح حيث عرضت عليها محبتها وصداقتها. وتذكرت جيداً موجة الكره والتعاسة التي انبعثت من الفتاة في ذلك الحين. سبب ذلك واضح الآن... المسكينة نوفريت، جارية رجل عجوز متأنق يتآكل قلبها لأنها تحب شاباً مرحاً وسيماً لم يكن يهتم بها.

وتابع كاميني متلهفاً: ألا تفهمين يا رينيسنب أنني منذ وصلت هنا رأيتك وأحببتك؟ إنني منذ تلك اللحظة لم أفكر في أحد سواك، وقد رأت نوفريت ذلك بوضوح.

فكرت رينيسنب: نعم، لقد رأت نوفريت ذلك، وقد كرهتني منذ تلك اللحظة.

ولم تجد رينيسنب دافعاً لأن تلومها.

- ولم أكن أريد كتابة الرسالة إلى والدك، لم أردْ أن تكون لي علاقة بمكائد نوفريت. لكن ذلك كان صعباً، يجب أن تدركي أن ذلك كان صعباً جداً.

- أجل، أجل، كل هذا لا يهم. نوفريت وحدها هي المهمة، كانت تعِسة جداً... أظن أنها أحبتك كثيراً.

تحدثت رينيسنب بنفاد صبر، فقال كاميني بضجر: ولكنني لم أحبها.

- أنت قاسٍ.

- لا، أنا رجل؛ هذا كل ما في الأمر. إذا اختارت امرأة أن تعذّب نفسها بسببي فإن ذلك يزعجني، تلك هي الحقيقة ببساطة. لم أكن أريد نوفريت، كنت أريدك أنت. آه يا رينيسنب! لا يمكنك أن تغضبي مني لهذا السبب.

ضحكت رينيسنب رغماً عنها، فقال كاميني: لا تدَعي نوفريت التي ماتت تُحدث المتاعب بيننا نحن الأحياء. أنا أحبك يا رينيسنب وأنت تحبينني، وهذا هو المهم.

قالت رينيسنب في نفسها: نعم، هذا هو المهم. ونظرت إلى كاميني الماثل أمامها ورأسه مائل إلى أحد الجوانب ويشع من وجهه شباب وحيوية ومرح وثقة واستجداء. قالت في نفسها: إنه على حق؛ لقد ماتت نوفريت ونحن أحياء. إنني أفهم كرهها لي الآن، وأنا آسفة لأنها عانت، لكن ذلك لم يكن خطئي ولا خطأ كاميني لأنه يحبني أنا لا هي... هذه الأمور تحدث.

صعدت تيتي التي كانت تلعب عند ضفة النهر وشدت يد أمها قائلة: لنذهب إلى المنزل يا أمي، هيا نذهب!

تنهدت رينيسنب بعمق وقالت: أجل، سوف نذهب إلى المنزل.

ومشوا معاً إلى المنزل وتيتي تركض بعيداً عنهما بمسافة

قصيرة، وتنهد كاميني برضا: أنت رائعة وكريمة يا رينيسنب، هل عادت الأمور إلى ما كانت عليه بيننا؟

- نعم يا كاميني؛ عادت إلى ما كانت عليه.

خفض صوته: كنت سعيداً هناك عند النهر، كنت في غاية السعادة. كنت أنت سعيدة أيضاً رينيسنب، أليس كذلك؟

- بلى، كنت سعيدة.

- كنت تبدين سعيدة لكنك كنت تفكرين في أمر بعيد جداً. أريدك أن تفكري بي.

- كنت أفكر فيك.

أخذ يدها فلم تسحبها بعيداً، وراح يغني بلطف بصوت خفيض.

-٣-

دعت رينيسنب حينيت إلى غرفتها، وتوقفت حينيت التي أتت مسرعة فجأة وهي ترى رينيسنب تقف قرب صندوق الحلي والتعويذة المكسورة بيدها.

كان وجه رينيسنب مكتئباً وغاضباً وقالت: لقد وضعتِ صندوق الجواهر هذا في غرفتي يا حينيت، أليس كذلك؟ كنت تريدين مني أن أعثر على التعويذة. كنت تريدين مني ذات يوم...

- أن تعثري على النصف الآخر؟ أرى أنك كشفت الأمر. حسناً، من الأفضل العلم دائماً، أليس كذلك يا رينيسنب؟

ضحكت حينيت بكيد، فقالت رينيسنب وغضبها لا يزال مكبوتاً: كنت تريدين لهذه المعرفة أن تؤذيني. أنت تحبين إيذاء الناس، أليس كذلك يا حينيت؟ إنك لا تقولين أي شيء مباشرة... تنتظرين وتنتظرين حتى تحين اللحظة المناسبة. أنت تكرهيننا جميعاً، أليس كذلك؟ وقد كرهتِنا دائماً.

- أنا واثقة أنك لا تعنين ما تقولين يا رينيسنب.

لم يكن في صوت حينيت انتحاب، بل انتصار خبيث.

- أردتِ إثارة المشكلات بيني وبين كاميني. حسناً، هذا لم يحصل.

- أنا واثقة أن هذا لطف منك وتسامح يا رينيسنب. إنك تختلفين كثيراً عن نوفريت.

- لا تدعينا نتحدث عن نوفريت.

- نعم، من الأفضل ألاّ نفعل. كاميني وسيم ومحظوظ، أليس كذلك؟ كان من حسن حظه أن نوفريت ماتت آنذاك، فقد كان بوسعها إثارة كثير من المتاعب له مع والدك. لم تكن لتحب زواجه بك. نعم؛ لم تكن لتحب ذلك أبداً، وأظن أنها كانت ستعثر على طريقة لتوقفه... أنا متأكدة أنها كانت ستفعلها.

نظرت رينيسنب إليها بكره شديد وقالت: لسانك يقطر بالسم

دائماً يا حينيت، إنه يلدغ كالعقرب، لكنك لن تجعليني تعسة.

- هذا رائع. لا بد أنك تحبينه بشدة؛ إنه شاب وسيم ويعرف كيف يغني أغاني الحب الجميلة. سوف يحصل دائماً على ما يريده، لا يخاف أبداً، ولا يتخلى عن بساطته وصراحته. أنا معجبة به.

- ماذا تريدين أن تقولي يا حينيت؟

- أنا معجبة بكاميني، كما أنني واثقة أنه بسيط وصريح. هذا ليس تظاهراً، الأمر كله يشبه واحدة من تلك القصص التي يرويها الرواة في الأسواق: "الكاتب الشاب الفقير يتزوج بنت السيد وسوف يشاركها ميراثها ويعيشان بعد ذلك بسعادة"... رائع! كم هم محظوظون الرجال الوسيمون!

- أنا على حق؛ أنت تكرهيننا.

- كيف تقولين هذا يا رينيسنب وأنت تعلمين كيف خدمتكم منذ توفيت والدتك؟

لكن الانتصار الشرير لم يزايل لهجة حينيت بدلاً من انتحابها وتذللها المعهود، فنظرت رينيسنب ثانية إلى صندوق الجواهر وخطرت لعقلها فكرة مؤكدة أخرى، فقالت: أنت مَن وضع قلادة الأسد الذهبية في هذا الصندوق؟ لا تنكري يا حينيت. أقول لك إنني أعلم.

اختفى انتصار حينيت الخبيث، وبدت مرتاعة فجأة وهي تقول: لم يكن الأمر بيدي... كنت خائفة.

- ما معنى خائفة؟

اقتربت منها جينيت وخفضت صوتها: لقد أعطتني إياه... أقصد توفريت. آه! قبل أن تموت ببعض الوقت. لقد أعطتني هدية أو اثنتين، كانت توفريت كريمة كما تعلمين. آه، نعم، كانت دائماً كريمة.

- يمكنني القول إنها دفعت لك كثيراً.

- ليست هذه العبارة المناسبة يا رينيسنب، لكنني أخبرك بالأمر كله. لقد أعطتني قلادة الأسد الذهبية وعقداً من الأحجار الكريمة وبعض الأشياء الأخرى، ثم عندما جاء هذا الصبي بقصته قائلاً إنه رأى امرأة ترتدي تلك القلادة... حسناً، شعرت بالخوف، فربما يظنون أنني أنا التي سممت شراب يحموس، فوضعت تلك القلادة في الصندوق.

- أهذه هي الحقيقة يا جينيت؟ هل تقولين الحقيقة أبداً؟

- أقسم أنها الحقيقة يا رينيسنب. كنت خائفة!

نظرت رينيسنب إليها بفضول وقالت: إنك ترتجفين يا جينيت كأنك خائفة الآن.

- نعم، أنا خائفة، ولديّ سبب لذلك.

- لماذا؟ أخبريني.

لعقت جينيت شفتيها ونظرت حولها وخلفها، وبدت عيناها كالحيوان المطارَد. قالت رينيسنب: أخبريني.

هزت جينيت رأسها وقالت بصوت مهزوز: لا شيء عندي لأخبرك به.

- أنت تعرفين كثيراً يا جينيت، تعرفين كثيراً دائماً. لقد استمتعت بذلك، ولكنه خطير الآن. هذا هو الأمر، أليس كذلك؟

هزت جينيت رأسها مرة أخرى ثم ضحكت بحقد وقالت: انتظري يا رينيسنب. سوف أحمل السوط في هذا المنزل ذات يوم وأضرب به، انتظري وسترين.

نهضت رينيسنب وقالت: لن تؤذيني يا جينيت، لن تدعك أمي تؤذيني.

تغير وجه جينيت ولمعت عيناها وقالت: لقد كرهت أمك... كرهتها دائماً! وأنت تملكين عينيها وصوتها وجمالها وعجرفتها... إنني أكرهك يا رينيسنب.

ضحكت رينيسنب وقالت: وأخيراً جعلتك تقولينها.

* * *

الفصل العشرون

الشهر الثاني من فصل الصيف

اليوم الخامس عشر

-١-

دخلت العجوز إيزا غرفتها تعرج وتشعر بالتعب. كانت محتارة وتعبة جداً، وأحست بالعجز أكثر من ذي قبل. لم تكن تشعر بتعب ذهني بل أحست بتعب جسدها بعض الأحيان. لكنها الآن مضطرة للاعتراف بأن الضغط الناتج من بقاء عقلها يقظاً قد استنفد قواها الجسدية.

ورغم معرفتها أو اعتقادها بمعرفة المصدر الذي يُحدق منه الخطر إلا أن هذه المعرفة لم تسمح لذهنها بالراحة، بل كان عليها - بالمقابل - أن تبقى يقظة، إذ أنها جذبت الانتباه لنفسها عن عمد. الدليل... الدليل؛ ينبغي أن تحصل على الدليل. ولكن كيف؟ في هذه النقطة بالذات أدركت أن شيخوختها تخونها. كانت متعبة إلى الحد الذي لا يسمح لها بالتخيل، بالقيام بالجهد الفكري الخلاّق.

كان الدفاع هو كل ما تستطيعه، أن تبقى يقظة منتبهة تحرس نفسها، لأن القاتل على استعداد لأن يضرب ثانية. ولم تكن لديها أية أوهام حول ذلك.

حسناً، إنها لا تنوي أن تكون الضحية التالية. كانت متأكدة أن السم هو الوسيلة التي يمكن أن تُستخدم ضدها، فالعنف مستبعد على اعتبار أنها محاطة دوماً بالخدم، إذن لا شك أنه السم. حسناً، بإمكانها إبطال ذلك، إذ ستقوم رينيسنب بطهي الطعام وإحضاره لها، كما أن لديها آنية للشراب جعلت الخادم يشرب منها وانتظرت يوماً كاملاً للتأكد من عدم حدوث عواقب شريرة من الشراب. ثم جعلت رينيسنب تقاسمها أكلها وشربها مع أن الوقت لم يحن بعد للخوف على رينيسنب، وربما لا خوف عليها أبداً، ولكن أحداً لا يستطيع الجزم بذلك.

كانت تجلس بين الحين والآخر ساكنة تحاول حث عقلها المتعب على إثبات الحقيقة، أو تراقب خادمتها الصغيرة وهي تعبث بالثياب والحلي. كانت تحس هذه الليلة بالإرهاق الشديد، وكانت قد انضمت إلى إمحوتب بطلب منه لمناقشة قضية زواج رينيسنب قبل أن يقوم هو بالحديث مع ابنته.

كان إمحوتب الخائف قد تضاءل جسمه وأصبح ظلاً لإمحوتب السابق. وفقد تلك الثقة والتباهي في سلوكه وأصبح يعتمد الآن على إرادة أمه وتصميمها الذي لا يلين. أما بالنسبة لإيزا فإنها كانت خائفة، بل خائفة جداً من التفوه بأية كلمة في غير مكانها؛ فالحياة الآن ربما كانت معلقة بأية كلمة طائشة.

قالت أخيراً إن فكرة الزواج كانت فكرة حكيمة وإنه لا وقت للذهاب بعيداً بحثاً عن زوج أكثر أهمية بين أفراد القبيلة، إذ أن السلالة المنحدرة من الأنثى هو المهم في الأمر، ولن يعدو زوجها أن يكون قيماً على الإرث الذي سيؤول لرينيسنب وأطفالها.

ثم وصل الأمر إلى مسألة حوري: رجلٌ كريم وصديق قديم والجميع راضون عنه وابن مالك أرض صغيرة ضُمّت أرضه إلى أرضهم، أو كاميني صاحب صلة القرابة؟

فكرت إيزا في الأمر جيداً قبل أن تتحدث، فكلمة خطأ الآن سينتج عنها مصيبة. ثم أجابت وهي تؤكد الأمر بشخصيتها القوية، قالت إن كاميني هو الزوج المناسب لرينيسنب بلا شك، ويمكن أن تعلَّق العهود والاحتفالات المختصَرة بسبب الوفيات الأخيرة بعد أسبوع. هذا إن وافقت رينيسنب، فكاميني فتى مناسب وسوف ينجبان معاً أبناء أقوياء، كما أنهما متفاهمان.

فكرت إيزا بأنها قد ألقت كلمتها الآن ورمت النرد على الطاولة دون رجعة، وسيبحث الأمر جيداً الآن على رقعة اللعب. لقد خرج الأمر من يدها، لقد قامت بما تحسبه أمراً مفيداً، فإن كان في ذلك مخاطرة... حسناً، تمنّت إيزا أن يكون أمامها خصم متكافئ خلف رقعة اللعب، تماماً كما تمنى آيبي؛ فالحياة ليست دائماً مسألة أمن، إذ لا بد من المخاطرة فيها حتى يكسب المرء اللعبة.

* * *

نظرت إيزا حولها في الغرفة بشك عندما عادت إليها وفحصت

آنية الشراب خصوصاً. كانت الآنية مغطاة ومختومة مقفلة كما تركتها؛ كانت تقفلها دائماً حين تغادر الغرفة، وكان المفتاح يتدلى حول عنقها بأمان.

لم تكن لتحتمل مخاطرة من هذا النوع. ضحكت إيزا باطمئنان ماكر إذ ليس من السهل قتل امرأة عجوز، فالعجائز يقدّرن الحياة جيداً ويعلمن حيلها أيضاً. غداً...

ونادت خادمتها الصغيرة: أين حوري؟ هل تعلمين؟

- لعله عند الضريح في الغرفة الصخرية.

أومأت إيزا برضا: اصعدي إليه هناك وقولي له أن يأتي إلى هنا صباح غدٍ حين يخرج إمحوتب ويحموس إلى المزرعة ويأخذان كاميني معهما، وعندما تخرج كيت إلى البحيرة مع الأطفال، هل فهمت؟ أعيدي على مسمعي.

فعلت الخادمة الصغيرة ذلك، وأرسلتها إيزا.

نعم، كانت خطتها تسير بشكل مرضٍ. سوف يكون التشاور مع حوري سرياً ما دامت سوف ترسل حينيت في مهمة إلى غرف الحياكة، وسوف تحذّر حوري مما سيحدث وسوف يتحدثان بحرية معاً.

وتنهدت إيزا بارتياح عندما عادت الفتاة بالرسالة: إن حوري سيلبي طلبها.

الآن - وقد رُتّبت الأمور واجتاحها التعب كالطوفان - طلبت

من الفتاة أن تحضر لها آنية من مرهم طيب الرائحة وأن تدلك جسمها.

أراح المرهم وإيقاع التدليك عظامها المتألمة، وتمددت أخيراً وأسندت رأسها إلى المسند الخشبي ونامت وقد سكنت مخاوفها.

ثم أفاقت بعد مدة طويلة يراودها شعور غريب بالبرد؛ كانت قدماها ويداها متخدرة ميتة وكأن الانقباض يتسلل إلى جسمها كله مخدّراً عقلها شالاً إرادتها مخفّفاً ضربات قلبها!

قالت في نفسها: هذا هو الموت!

موت غريب... موت غير متوقَّع... لا علامات تحذير!

فكرت: أهكذا تموت العجائز؟ ثم راودتها فكرة أكثر واقعية: لم يكن هذا موتاً طبيعياً، بل العدو يضرب ضربته في الظلام. السم... ولكن كيف؟ كل ما أكلته وما شربته تم اختباره، ولم تكن هناك ثغرات أو أخطاء. كيف إذن، ومتى؟

وحاولت إيزا بآخر ومضة ضعيفة لها من الذكاء أن تحل اللغز. يجب أن تعرف... يجب، قبل أن تموت. شعرت بالضغط يزداد على قلبها، البرودة القاتلة والانقباض المؤلم في أنفاسها. كيف فعل العدو ذلك؟

وفجأة عاودتها من الماضي ذكرى ساعدتها على الفهم، فكرة قديمة... جلد الخروف المحلوق، ورم دهني ذو رائحة... تجربة لوالدها تُظهر أن الجلد ربما يمتص بعض السموم. دهن الصوف، مراهم تُعَدّ من دهن الصوف... هكذا توصل العدو إليها. آنية المرهم

طيب الرائحة الضرورية لكل امرأة مصرية... لقد كان السم فيها!

وغداً حوري لن يعلم؛ لن تستطيع إخباره... كان الوقت قد فات.

وفي الصباح ركضت خادمة صغيرة خائفة في المنزل وهي تصيح أن سيدتها توفيت في نومها!

-٢-

وقف إمحوتب ينظر إلى جسد إيزا. كان وجهه حزيناً لكنه غير متشكك، وقال إن أمه ماتت ميتة طبيعية من كبر سنها. قال: كانت متقدمة في العمر؛ نعم، كانت متقدمة في العمر. لا شك أن الوقت قد حان لتذهب إلى أوزيريس، وقد عجّلت متاعبُها وأحزانُها في تقريب نهايتها، لكنها كانت نهاية هادئة، وفاة لم تسببها يد إنسان أو روح شريرة. لا عنف أبداً، فهي تبدو هادئة.

بكت رينيسنب وحاول يحموس تهدئتها، وأظهرت حينيت حزنها وفجيعتها وتحدثت عن إخلاصها لها، وأوقف كاميني غناءه وأظهر الحداد الملائم.

جاء حوري ووقف ينظر إلى المرأة الميتة. كان هذا هو الوقت الذي طلبت منه فيه الحضور، وتساءل عما كانت تريد أن تقول بالضبط. كان لديها شيء محدد كي تقوله.

لن يعرفه أبداً. لكنه فكر... ربما استطاع تخمينه.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

الشهر الثاني من فصل الصيف

اليوم السادس عشر

-١-

- حوري، هل قُتلت؟

- أظن ذلك يا رينيسنب.

- كيف؟

- لا أعلم.

قالت رينيسنب بحزن وفجيعة: لكنها كانت حَذِرة؛ كانت حذرة دائماً واتخذت كل الاحتياطات... كل شيء أكلته وشربته كان يجرَّب.

- أعلم يا رينيسنب، ورغم هذا فأظن أنها قُتلت.

- كانت أكثرنا حكمة وذكاء، وكانت واثقة أنها لن يصيبها

اذى. حوري، لا بد أن في الأمر سحراً. إنه سحر شديد، سحر روح شريرة.

- تظنين هذا لأنه أسهل شيء يمكننا تصديقه. الناس هكذا، لكن إيزا نفسها لم تكن لتصدق ذلك. لقد عرفت قبل أن تموت ولم تمت في منامها... كانت تعلم أن هذا فعل إنسان حي.

- وعرفت من هو؟

- نعم؛ لقد أظهرت شكها بوضوح فأصبحت مصدر خطر لهذا العدو. وحقيقةُ موتها تثبت أن شكها كان صحيحاً.

- وهل أخبرتك من هو؟

- لا؛ لم تذكر أي اسم أبداً، ورغم ذلك فقد كانت فكرتها مثل فكرتي، وأنا مقتنع بهذا.

- إذن فيجب أن تخبرني لآخذ حذري يا حوري.

- لا يا رينيسنب، إنني أهتم كثيراً بسلامتك ولذلك لن أخبرك.

- هل أنا آمنة إلى هذا الحد؟

تجهم حوري وقال: لا يا رينيسنب، لست آمنة؛ لا أحد آمن، لكنك ستكونين أكثر أماناً إذا لم تعرفي لأن معرفتك ستجعلك مصدر خطر مؤكَّد يجب إزالته مهما كلف الثمن.

- ماذا بشأنك يا حوري؟ أنت تعرف.

- أظن أنني أعرف، لكنني لم أقل شيئاً ولم أُظهر شيئاً. كانت إيزا غير حكيمة؛ لقد تحدثت في الأمر وأظهرت الاتجاه الذي تسير أفكارها فيه. كان يجب ألاّ تفعل ذلك. لقد أخبرتها بذلك لاحقاً.

- ولكنك يا حوري... إن أصابك شيء...

وسكتت. كانت تشعر بعينَي حوري وهما تنظران إليها، نظرته الهادئة تخترق عقلها وقلبها. ثم أخذ يدها بيده وقال: لا تخافي عليَّ يا رينيسنب؛ سوف تسير الأمور على ما يرام.

قالت في نفسها: نعم، كل شيء سيكون على ما يرام إذا قال حوري ذلك. غريب هذا الشعور بالرضا والسلام والسعادة. جميل وبعيد مثل المسافة البعيدة التي تراها من الضريح، ذلك المكان الذي تسمع فيه ضجيج البشر ومطالبهم وشروطهم.

وفجأة وبسرعة سمعت نفسها تقول: سوف أتزوج كاميني.

ترك حوري يدها بهدوء وعفوية قائلاً: أعلم يا رينيسنب.

- إنهم... والدي... إنهم يظنون أن ذلك أفضل شيء.

- أعلم.

ابتعد حوري. وبدت جدران الفناء كأنها تقترب بعضها من بعض، وبدت الأصوات في المنزل وفي مخازن الحنطة في الخارج أعلى وأكثر ضجيجاً. كانت تراود رينيسنب فكرة واحدة فقط... أن حوري ذاهب. نادته بخوف: حوري، أين تذهب؟

- إلى الحقول مع يحموس؛ لدينا كثير من الأمور يجب عملها وتسجيلها. لقد انتهى موسم الحصاد تقريباً.

- وكاميني؟

- سوف يأتي كاميني معنا.

صرخت رينيسنب: أنا هنا خائفة. نعم، خصوصاً في النهار ومع جميع الخدم حولنا... إنني خائفة!

عاد بسرعة وقال: لا تخافي يا رينيسنب، أقسم لك أنه لا داعي للخوف؛ ليس اليوم.

- ولكن بعد اليوم؟

- يكفينا عيش يومنا، وأقسم لك أنك لست في خطر اليوم.

نظرت إليه رينيسنب وتجهمت قائلة: ولكننا في خطر... يحموس، والدي، وأنا! وربما لست أنا أول من سيتعرض للخطر، أهذا ما تعتقده؟

- حاولي ألا تفكري في الأمر يا رينيسنب، إنني أفعل كل ما أستطيع وإن كنت أبدو كأنني لا أفعل شيئاً.

نظرت إليه مفكرة وقالت: فهمت، سوف يكون يحموس الأول... لقد حاول العدو أن يسممه مرتين وفشل، وسوف تكون محاولة ثالثة. لهذا سوف تكون إلى جانبه لتحميه، ثم بعد ذلك يحين دور والدي ودوري... من يكرهنا بهذا القدر؟

- اصمتي، سوف تفعلين خيراً إن لم تتكلمي في هذه الأمور. ثقي بي يا رينيسنب، حاولي أن تبعدي الخوف عن ذهنك.

ردت رينيسنب رأسها إلى الخلف وقالت بفخر: أنا أثق بك يا حوري؛ لن تدعني أموت، إنني أحب الحياة كثيراً ولا أريد تركها.

- لن تتركيها يا رينيسنب.

- ولن تتركها أنت أيضاً يا حوري؟

- لن أتركها أنا أيضاً.

ابتسمت له فابتسم لها، ثم ابتعد للبحث عن يحموس.

-٢-

جلست رينيسنب تراقب كيت التي كانت تساعد الأطفال في صنع نماذج لعب من الطين باستعمال ماء البحيرة. كانت أصابعها مشغولة في العجن والتشكيل، وكانت تشجع الطفلين الجادّين فيما يفعلانه بصوتها ووجهها -كعادته- محب عادي يخلو من التعبير. ولم يبدُ أن الجو المحيط من الموت والعنف والخوف الدائم يؤثر فيها أو يعنيها.

كان حوري قد منع رينيسنب من التفكير، لكن رينيسنب لم تستطع أن تطيعه حتى لو كانت تملك أقوى إرادة في العالم. لئن كان حوري يعرف العدو ولئن كانت إيزا قد عرفته فما من سبب يمنعها من

معرفته هي أيضاً. ربما كانت أكثر أمناً بجهلها، لكن أحداً لا يرضى بقبول الأمر بهذه الطريقة... لا بد أن تعرف.

ولا بد أن الأمر في غاية السهولة. من المؤكد أن والدها لم يكن ليتمنى قتل أولاده، وبذلك لا يبقى إلا... مَن؟ نعم، لا يبقى - كما هو واضح ومحسوم - إلا شخصان: كيت وحينيت.

كلتاهما من النسوة، وكلتاهما لا دافع لهما للقتل. ومع ذلك فقد كانت حينيت تكرههم جميعاً؛ لقد اعترفت أنها تكره رينيسب، إذن فلماذا لا تكره الجميع بدرجة واحدة؟

حاولت رينيسب أن ترى صورتها في عقل حينيت المعتم المعذّب الراكد: العيش هنا كل هذه السنوات، تعمل وتؤكد إخلاصها وتفانيها، تكذب وتتجسس وتحيك المكائد... لقد أتت إلى هنا منذ زمن طويل كإحدى القريبات الفقيرات لسيدة عظيمة وجميلة، فترى تلك السيدة الرائعة سعيدة مع زوجها وأولادها فيما هجرها زوجها ومات طفلها الوحيد... حالة كهذه، أشبه بالجرح الناتج عن اختراق الرمح، الجرح الذي رأته ذات مرة. لقد شُفي بسرعة عند السطح أما في الباطن فقد تفشى وتقيح شراً وأذى، وانتفخت الذراع وأصبح ملمسها قاسياً، ثم جاء الطبيب واستعمل التعويذة المناسبة؛ أدخل سكيناً صغيرة في العضو المنفوخ القاسي المشوه فانفجر الجرح كما لو هدمت سداً، مطلقاً دفقاً هائلاً من المواد الشريرة المنتنة.

لعل عقل حينيت هكذا: زال الحزن والجرح الظاهر سريعاً وتخثر السم في الباطن والتقيح من الكره والحقد.

ولكن هل كانت حينيت تكره إمحوتب أيضاً؟ بالتأكيد لا. كانت تحوم حوله سنين عديدة تتذلل إليه وتطريه... وكان يؤمن بها تماماً. لا يمكن أن يكون كل هذا التفاني زائفاً بالتأكيد.

ولكن إذا كانت مخلصة له هل يمكنها أن تقوم متعمدة بإحداث كل هذا الحزن والخسارة له؟ ولكن لنفترض أنها تكرهه أيضاً وأنها كانت تكرهه دوماً، وأنها كانت تطريه متعمدة لتظهر نقاط ضعفه... لنفترض أن كرهها تركز على إمحوتب أكثر من غيره، وما الذي يسبب السرور لعقل منحرف شرير أكثر من هذا؟ أن تدعه يرى أولاده يموتون واحداً تلو الآخر.

- ما الأمر يا رينيسب؟ إنك تبدين غريبة.

كانت كيت تحدق إليها. نهضت رينيسب وقالت: أشعر كأنني أوشك أن أتقيأ.

كان ذلك صحيحاً إلى حد ما، فقد أثارت الصورة التي تخيلتها شعوراً قوياً بالغثيان، وتقبلت كيت كلماتها بمعناها الظاهر فقالت: لقد أكلتِ كثيراً من البلح الأخضر، أو لعله السمك.

- لا، لا، لم يكن ذلك بسبب شيء أكلته. إنه ذلك الأمر الفظيع الذي نعيش فيه.

- آه، هذا؟

كانت لامبالاة كيت واضحة مما دفع رينيسب إلى أن تحدق إليها وتقول: كيت، ألست خائفة؟

فكرت كيت قليلاً قبل أن تجيب: نعم، لا أظن أنني خائفة. إذا حدث أي شيء لإمحوتب فسوف يحمي حوري الأطفال. حوري أمين، وسوف يحافظ على ميراثهم.

- سوف يفعل يحموس ذلك.

- سيموت يحموس أيضاً.

- كيت، إنك تقولين هذا بهدوء! ألا تهتمين أبداً؟ أعني ألا تهتمين بموت والدي ويحموس؟

فكرت كيت لحظات ثم هزت كتفيها قائلة: إننا امرأتان معاً. دعينا نكن صادقتين؛ لقد نظرت إلى إمحوتب دوماً كطاغية وظالم، تصرف ببشاعة عندما غضبت جاريته وأقنعته بحرمان أولاده الذين هم من لحمه ودمه من الميراث. لم أحب إمحوتب أبداً، أما يحموس فإنه نكرة... كانت ساتيبي تسيطر عليه، وأخيراً ومنذ وفاتها أعطى نفسه السلطة وبدأ يعطي الأوامر. سوف يفضّل أولاده دائماً على أولادي، وهذا طبيعي، لذلك فإذا مات فهو أفضل لأولادي... هكذا أرى الأمر. أما حوري فليس لديه أطفال وهو عادل. كل الأمور التي حدثت مزعجة، لكنني بدأت أفكر - مؤخراً - بأنها ربما كانت تحمل في طياتها خيراً.

- كيف تقولين هذا يا كيت بهدوء وبرود، وقد كان زوجك الذي أحببته أول من قُتل؟

لاح على وجه كيت تعبير غامض؛ نظرت إلى رينيسنب نظرة فيها شيء من السخرية المزرية وقالت: إنك تشبهين تيتي يا رينيسنب

في بعض الأحيان... حقاً يمكن للمرء أن يقسم أنك لست أكبر منها.

تحدثت رينيسنب ببطء: أنت لا تحزنين على سوبك؛ لقد لاحظت ذلك.

- دعك من ذلك يا رينيسنب. لقد وفيت بكل العهود، وأعرف كيف يجب على أرملة حديثة العهد أن تتصرف.

- نعم، وهذا هو كل ما فعلته تجاه موته. إذن فهذا يعني أنك لم تكوني تحبين سوبك؟

هزت كيت كتفيها وقالت: ولماذا أحبه؟

- كيت! لقد كان زوجك، لقد أعطاك أطفالاً!

رقّت ملامح كيت ونظرت إلى الصبيين الصغيرين المنهمكين في اللعب بالطين، ثم نظرت حيث كانت أنخ تتدحرج وتنشد وتلوح بقدميها. قالت: أجل، لقد منحني أطفالي، وأنا شاكرة له لهذا السبب. لكن، ماذا كان هو؟ رجلاً وسيماً متبجحاً يلهث دوماً خلف النساء. إنه لم يتخذ زوجة بطريقة شريفة ويحضرها إلى بيته، زوجة متواضعة كان يمكن لها أن تنفعنا جميعاً، بل كان يذهب إلى البيوت سيئة السمعة ويصرف الكثير من الذهب والنحاس هناك ويشرب ويطلب أغلى الراقصات... لقد كان من حسن الحظ أن إمحوتب تركه محتاجاً وكان يحاسبه جيداً عن كل الصفقات التي أجراها للمزرعة. أي حبٍّ واحترام يجب أن أكنّه لرجل مثل هذا؟ وما هم الرجال بأي حال؟ إنهم ضرورة لإنجاب الأطفال، هذا كل شيء، لكن قوة العِرق

في النساء. نحن يا رينيسب اللاتي نورث لأبنائنا كل ما لدينا، وأما الرجال فدعهم ينحبون ثم يموتون مبكراً!

زاد الازدراء والاحتقار في صوت كيت تدريجياً وقد تغير وجهها القوي البشع. وفكرت رينيسب باستياء: كيت قوية، وإذا كانت غبية فإنه غباء بسبب لها الرضا. إنها تكره الرجال وتحتقرهم. كان يجب أن أعرف... لقد لاحظت ذات مرة ميزة الكره هذه. نعم، إن كيت قوية.

وبلا تفكير وقعت عينا رينيسب على يدي كيت. كانتا تضغطان وتعجنان الطين، وفكرت رينيسب: يدان قويتان، رجوليتان!

وفكرت رينيسب - وهي تراقبهما تضغطان الطين - في أبيي واليدين القويتين اللتين تدفعان رأسه إلى الماء وتبقيان عليه هناك بلا رحمة، أجل، تستطيع يدا كيت فعل ذلك.

تدحرجت الفتاة الصغيرة آنخ إلى نبتة شوكية وأطلقت صرخة باكية. فأسرعت كيت إليها ورفعتها وقربتها إلى صدرها وهي تدندن لها، وامتلأ وجهها بالحب والعطف.

وأسرعت حينيت تركض من الشرفة تنادي: هل حدث شيء؟ إن صراخ الطفلة مرتفع. لقد ظننت، ربما...

ثم سكتت وهي تشعر بخيبة الأمل، وتراجع وجهها المتلهف اللئيم الحاقد الذي كان يأمل حدوث كارثة.

ونظرت رينيسب إلى المرأتين: الكره في وجه الأولى والحب في وجه الأخرى، وتساءلت: أيهما أكثر فظاعة؟

-٣-

- يحموس، احذر، احذر كيت!

- كيت؟ كيت؟!

بدت الدهشة على يحموس وقال: عزيزتي رينيسب...

- أقول لك إنها خطيرة.

- كيت الهادئة؟ كانت دائماً امرأة خانعة وخاضعة وغير ذكية.

قاطعته رينيسب: إنها ليست خنوعة، وأنا أخاف منها يا يحموس. أريد منك أن تأخذ حذرك.

أجابها غير مصدق: من كيت؟ لا أستطيع أن أرى كيت تنشر الموت هنا! ليس لديها الذكاء الكافي لذلك.

- لا أظن أن العقل هو المطلوب. كل ما يحتاجه الأمر هو معرفة في السموم، وأنت تعلم أن مثل هذه المعرفة تكون بين بعض العائلات. إنهم يتناقلونها من الأمهات حتى البنات، يحضرون هذه السموم بأنفسهم من أعشاب فعالة؛ نوع من المعارف الشعبية ربما تكون كيت حصلت عليه بسهولة... إنها تحضر الدواء لأولادها حين يمرضون كما تعلم.

تحدث يحموس وهو يفكر: نعم، هذا صحيح.

- وحينيت أيضاً امرأة شريرة.

- حينيت؟ نعم، لم نحبها أبداً. وفي الحقيقة لولا حماية والدي...

- والدي مخدوع بها.

- لعل هذا صحيح، إنها تخادعه.

نظرت إليه رينيسنب لحظة باندهاش. للمرة الأولى تسمع يحموس يتفوّه بجملة فيها انتقاد لإمحوتب؛ فقد بدا خائفاً من والده دائماً من قبل. ولكنها أدركت الآن أن يحموس يتولى القيادة تدريجياً. لقد هرم إمحوتب عدة سنوات خلال الأسابيع القليلة الماضية ولم يعد قادراً على إعطاء الأوامر أو اتخاذ القرارات، حتى نشاطه الجسدي ضعف فصار يُمضي ساعات طويلة محدّقاً أمامه وعيناه ذاهلتان تعلوهما الغشاوة، ويبدو أحياناً كأنه لا يفهم الكلام الذي يوجّه إليه.

- أتظن أنها...

سكتت ونظرت حولها، ثم عادت تقول: أتظن أنها هي التي... التي...

أمسك يحموس بذراعها وقال: اهدئي يا رينيسنب؛ من الأفضل لهذه الأمور ألاّ تُقال، بل ينبغي أن يُهمَس بها.

- إذن فأنت أيضاً تظن...؟

قال يحموس بلطف وإلحاح: لا تقولي الآن أي شيء؛ فلدينا خططنا.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

الشهر الثاني من فصل الصيف

اليوم السابع عشر

-١-

كان اليوم التالي هو يوم الاحتفال بالقمر الجديد، واضطر إمحوتب أن يصعد إلى الضريح لكي يقدم القرابين. رجا يحموس والده أن يدَعه يقوم بالأمر في هذه المناسبة لكن إمحوتب كان مصمّماً، وقال هامساً فيما بدا الآن محاكاة ضعيفة مضحكة لأسلوبه القديم: إذا لم أهتم بالأمور بنفسي فكيف أتأكد أنها نفذت بدقة؟ هل تهربت يوماً من واجباتي؟ ألم أنفق عليكم جميعاً وأعلتكم جميعاً؟

وتوقف صوته وهو يقول: جميعكم؟ الجميع... آه! لقد نسيت... أبنائي الشجعان، سوبك الوسيم وآيبي الذكي المحبوب، ذهبا مني! يحموس وابنتي رينيسنب، بُنيّ وابنتي العزيزين، إنكما لا تزالان معي، ولكن حتى متى؟ حتى متى؟

قال يحموس: لسنوات طويلة عديدة كما نأمل.

تحدث يحموس بصوت مرتفع كأنه يتحدث إلى رجل أصم، فهتف أبوه: آه! ماذا؟

بدا إمحوتب وكأنه قد دخل في غيبوبة، وقال فجأة: الأمر يعتمد على حينيت، أليس كذلك؟ بلى، يعتمد على حينيت.

تبادل يحموس و رينيسنب النظرات، وقالت رينيسنب برقة ووضوح: لا أفهمك يا أبي.

همس إمحوتب بحديث لم يفهمه يحموس ورينيسنب، ثم قال وقد رفع صوته قليلاً وعيناه ما تزالان معتمتين وفارغتين: حينيت تفهمني وتعرف كم هي كبيرة المسؤوليات الملقاة على عاتقي. نعم، كم هي ضخمة! ودائماً الجحود. إذن فلا بد من التوبيخ. أظن أن هذا تقليد مُتبع؛ لا بد من معاقبة الوقاحة. كانت حينيت متواضعة دائماً ومخلصة، سوف تُكافأ...

ثم استقام وقال بتفاخر: هل تفهم يا يحموس؟ يجب أن تحصل حينيت على كل ما تريد، يجب أن تطاع أوامرها!

- لكن لماذا يا والدي؟

- لأنني أقول ذلك؛ لأن حينيت إذا حصلت على ما تريد فلن تحصل مزيد من الوفيات.

أومأ برأسه بحكمة ثم ابتعد تاركاً يحموس ورينيسنب يحدقان بعضهما إلى بعض بدهشة وذعر.

- ما معنى هذا يا يحموس؟

- لا أعلم يا رينيسنب. أحياناً أظن أن والدي لم يعد يدري ما يفعله أو يقوله.

- لا، لا أعتقد ذلك، ولكني أظن - يا يحموس - أن حينيت تعلم جيداً ما تقوله وتفعله. لقد قالت لي بالأمس إنها هي التي ستلوح بالسوط ذات يوم في هذا المنزل.

نظر إليها، ثم وضع يده على ذراعها وقال: لا تغضبيها، إنك تظهرين عواطفك بوضوح يا رينيسنب، وقد سمعت ما الذي قاله والدي: إذا حصلت حينيت على ما تريده فلن يكون مزيد من الوفيات.

-٢-

جلست حينيت في أحد المخازن تعد كوماً من الملاءات. كانت ملاءات قديمة، وأمسكت بالعلامة الظاهرة عند زاوية إحداها وأغمضت عينيها وهمست: آشايت... ملاءات آشايت، ومكتوب عليها السنة التي قدمت فيها هنا، هي وأنا معاً. كان ذلك منذ زمن بعيد، أتعلمين لماذا تُستعمل ملاءاتك الآن يا آشايت؟

قاطعتها ضحكة فجفلت، وجعلها الصوت تنظر وراءها...

كان يحموس، وسألها قائلاً: ماذا تفعلين يا حينيت؟

- المحنّطون بحاجة إلى مزيد من الملاءات... لقد استعملوا أربعمئة ذراع أمس فقط. إن هذه الجنازات تستهلك الملاءات بشكل

فظيع! يجب أن تُستعمل القديمة هذه، فنوعها جيد ولم تهترئ: إنها ملاءات أمك يا يحموس... نعم، ملاءات أمك!

- مَن قال إن بإمكانك أن تأخذيها؟

ضحكت حينيت وقالت: إمحوتب ترك كل شيء تحت تصرفي، ولذا فلست مضطرة لأن أستأذن. إنه يثق بحينيت المسكينة العجوز، وهو يعلم أنها تدير الأمور إدارة صحيحة. لقد اهتممت بمعظم الأمور في هذا المنزل فترة طويلة، وأظن أنه يجب أن أحصل على مكافأتي.

- يبدو كذلك يا حينيت، لقد قال والدي إن كل شيء يعتمد عليك.

- هل قال ذلك أخيراً؟ من اللطيف سماع ذلك، ولكن ربما لا تعتقد أنت ذلك يا يحموس.

قال يحموس وهو يراقبها باهتمام ولهجته ما زالت معتدلة: لست واثقاً تماماً.

- أرى أن من الأفضل أن تتفق مع رأي والدك يا يحموس؛ فنحن لا نريد مزيداً من المتاعب، أليس كذلك؟

- لا أفهم جيداً، أتعنين أننا لا نريد مزيداً من الوَفَيات؟

- ستكون مزيد من الوفيات يا يحموس. آه، نعم!

- ومَن سيموت تالياً يا حينيت؟

- لماذا تظن أنني يجب أن أعرف ذلك؟

- لأنك تعرفين كثيراً. عرفت في ذلك اليوم - مثلاً - أن آيبي سيموت! أنت ذكية جداً يا حينيت، أليس كذلك؟

شمخت حينيت بأنفها وقالت: إذن فقد بدأت تدرك ذلك الآن؟ إنني لست حينيت الغبية المسكينة بعد الآن، أنا الشخص الذي يعرف.

- ما الذي تعرفينه يا حينيت؟

تغير صوت حينيت الذي كان خافتاً وحاداً وهي تقول: أعرف أنني أستطيع أخيراً أن أفعل ما أريد في هذا المنزل. لن يوقفني أحد... إمحوتب يعتمد عليّ فعلاً، وأنت سوف تفعل الشيء نفسه يا يحموس. أليس كذلك؟

- ورينيسنب؟

ضحكت حينيت ضحكة سعيدة خبيثة وقالت: لن تكون رينيسنب هنا.

- أتظنين أن رينيسنب هي التي سوف تموت أولاً إذن؟

- ماذا تعتقد أنت يا يحموس؟

- إنني أنتظر سماع ما ستقولينه.

- ربما عنيتُ فقط أن رينيسنب سوف تتزوج وتذهب بعيداً.

- ولكن ما الذي عنيته فعلاً يا حينيت؟

ضحكت حينيت وقالت: قالت إيزا ذات يوم إن لساني خطير، ولعله كذلك.

ثم ضحكت بشدة وقالت: حسناً يا بحموس، ماذا تقول؟ هل سأفعل أخيراً ما أريد في هذا المنزل؟

تأملها بحموس لحظة قبل أن يقول: نعم يا حينيت؛ إنك ذكية، وسوف تفعلين ما تريدين.

ثم استدار ليلتقي بحوري الذي جاء من الصالة الرئيسية قائلاً: ها أنت يا بحموس. إمحوتب ينتظرك، حان الوقت لكي نصعد إلى الضريح.

أومأ بحموس قائلاً: أنا قادم.

ثم خفض صوته وهو يقول: حوري، أظن أن حينيت جُنت؛ لقد تأثرت بالشياطين بلا شك، وقد بدأتُ أظن أنها هي المسؤولة عن كل ما حدث.

سكت حوري لحظة قبل أن يقول بصوته الهادئ اللامبالي: إنها امرأة غريبة، وأظنها امرأة شريرة.

خفض بحموس صوته أكثر وقال: حوري، أظن أن رينيسنب في خطر.

- من حينيت؟

- نعم، لقد ألمحت الآن إلى أن رينيسنب ربما تكون التالية.

ثم سُمع صوت إمحوتب يقول باستياء: هل أنتظر طوال اليوم؟ ما هذا التصرف؟ لا أحد يهتم بي بعد الآن، لا أحد يعلم ما الذي أعانيه. أين حينيت؟ حينيت تفهم.

ومن غرفة المخازن جاءت ضحكة حينيت الحادة المعبرة عن الانتصار: هل تسمع هذا يا بحموس؟ حينيت هي الشخص المطلوب.

قال بحموس بهدوء: نعم يا حينيت؛ أفهم. أنت الشخص القوي، أنت ووالدي وأنا، نحن الثلاثة معاً.

ذهب حوري للبحث عن إمحوتب، وتحدث بحموس مع حينيت بضع كلمات وهي تهز رأسها موافقةً ووجهها يلمع بانتصار خبيث، ثم انضم بحموس إلى حوري وإمحوتب وهو يعتذر عن التأخير وصعد الرجال الثلاثة إلى الضريح معاً.

-٣-

مر اليوم بطيئاً على رينيسنب. كانت قلقة تروح وتجيء من الشرفة وإليها، ثم إلى البحيرة، ثم تعود مرة أخرى إلى المنزل.

وعاد إمحوتب في منتصف النهار، وبعد أن قُدّمت له وجبة الطعام خرج إلى الشرفة، وانضمت رينيسنب إليه وجلست وقد أمسكت بركبتيها وهي تنظر إلى وجه والدها بين الحين والآخر.

ما زال يعتريه ذلك التعبير من الذهول والدهشة. تحدث إمحوتب قليلاً وتنهد أكثر من مرة بعمق، ونهض في إحدى المرات وطلب حينيت، لكن حينيت كانت قد ذهبت في ذلك الوقت بالذات لتقدم الملاءات الكتانية إلى المحنطين.

سألت رينيسنب والدها عن مكان حوري وبحموس، فقال:

حوري خرج إلى حقول الكتان من أجل حسابات تجب مراجعتها هناك. وبحموس في المزرعة، فجميع الأعداء منقادة على كاهله. وانحسرتاه على سوبك وآبيي! ولدي الوسيمين!

حاولت رينيسنب إشغاله بسرعة: ألا يستطيع كاميني الاهتمام بالعمال؟

- كاميني؟ من هو كاميني؟ ليس لدي ابن بهذا الاسم.

- كاميني الكاتب، كاميني الذي سيكون زوجي.

حدق إليها وقال بدهشة: أنت يا رينيسنب؟ لكنك سوف تتزوجين خاي.

تنهدت ولم تضف شيئاً بدا من القسوة محاولة إرجاعه إلى الحاضر، ورغم ذلك فقد نهض بعد لحظات وهتف فجأة: بالطبع، كاميني! لقد ذهب يعطي التعليمات للمراقب في المعصرة. ويجب أن أذهب وأنضم إليه.

مشى مبتعداً وهو يهمس لنفسه وقد استعاد سلوكه الأول، فشعرت رينيسنب ببعض الابتهاج. ربما كانت هذه الغمامة التي خيمت على عقله مجرد أمر طارئ.

ونظرت رينيسنب حولها، وأحست بشيء مشؤوم يكتنف هذا الصمت الذي يلف المنزل والفناء؛ كان الأطفال عند الجانب البعيد من البحيرة ولم تكن تيت معهم، وتساءلت رينيسنب عن مكانها.

ثم خرجت حينيت إلى الشرفة فنظرت حولها، ثم أتت وقد

انحرفت بسيرها نحو رينيسنب. كانت قد استعادت سلوكها المتملق المتذلل وهي تقول: كنت أنتظر حتى أستطيع أن أجدك وحدك يا رينيسنب.

- لماذا يا حينيت؟

خفضت حينيت صوتها: لدي رسالة لك من حوري.

تلهفت رينيسنب وقالت: ماذا يقول؟

يطلب منك الصعود إلى الضريح.

- الآن؟

- لا، لكن كوني هناك قبل ساعة من غروب الشمس. هذه هي الرسالة، وإذا لم يكن هو هناك فإنه يطلب إليك أن تنتظريه حتى يأتي... إنه يقول إن الأمر مهم.

وسكتت حينيت ثم أضافت: كان علي أن أنتظر حتى أجدك وحدك لأقول لك هذا، إذ لم يكن ينبغي لأحد أن يسمعنا.

وانصرفت حينيت مبتعدة، فارتفعت معنويات رينيسنب قليلاً وشعرت بالسرور من فكرة الصعود إلى حيث السلام والهدوء المتوفران في الضريح، ولأنها سترى حوري وتتحدث معه بحرية. لكن أدهشها قليلاً أنه عهد بهذه الرسالة إلى حينيت... ورغم كراهية حينيت وخبثها فقد أوصلت إليها الرسالة بأمانة.

قالت رينيسنب في نفسها: ولماذا يجب أن أخاف من حينيت في أي وقت؟ أنا أقوى منها.

ثم نهضت بفخر، وقد شعرت بالشباب والثقة والحيوية الفائقة.

-٤-

بعد أن سلمت جينيت الرسالة إلى رينيسنب عادت إلى مخزن الكتان مرة أخرى، وكانت تضحك سراً مع نفسها.

انحنت فوق كومة الملاءات المبعثرة وقالت لها بسرور: سوف نحتاج إليك مرة أخرى قريباً. أتسمعين يا آشايت؟ أنا السيدة هنا، وأنا أقول لك إن ملاءتك الكتانية سوف تحتضن جسداً آخر. ومَن تظنين أن هذا الجسد سيكون؟ أنت لم تستطيعي فعل أي شيء بشأن هذا الموضوع، أليس كذلك؟ أنت وشقيق أمك النومارتش حامي العدالة؟ أية عدالة يمكن لك تحقيقها في هذا العالم؟ أجيبيني عن ذلك.

بدت حركة من خلف رُزَم الكتان، واستدار رأس جينيت نصف استدارة.

عندها أُلقيت فوقها ملاءة عريضة من الكتان كتمت فمها وأنفها، ولفّت يدٌ لا ترحم القماشَ حول جسمها عدة مرات وعصبتها كجثة حتى توقفت مقاومتها.

* * *

الفصل الثالث والعشرون
الشهر الثاني من فصل الصيف
اليوم السابع عشر

-١-

جلست رينيسنب عند مدخل الغرفة الصخرية تحدق إلى النيل واستغرقت في حلمها وخيالاتها. بدا لها كأن زمناً طويلاً قد مضى منذ جلست هنا أول مرة بعد عودتها إلى منزل والدها... كان ذلك يوم أعلنت بمرح أن كل شيء كان على حاله وأن كل ما في المنزل هو تماماً كما كان عندما غادرته قبل ثمانية أعوام!

تذكرت الآن أن حوري أخبرها أنها هي نفسها لم تعد رينيسنب التي ذهبت مع خاي، وتذكرت أنها أجابت بثقة بأنها سرعان ما ستصبح كذلك. ثم تحدث حوري عن التغيرات التي تحدث من الداخل والعفن الذي لا يترك أية آثار ظاهرة.

عرفت الآن شيئاً مما كان يدور في عقله عندما قال تلك الكلمات؛ كان يحاول أن يعدّها للأمر. لقد كانت واثقة جداً وعمياء،

تتقبل بسهولة المظاهر الخارجية لعائلتها. واحتاج الأمر إلى قدوم نوفريت لكي تفتح عينيها... أجل، قدوم نوفريت.

كان ذلك هو العامل الحاسم، ومع نوفريت جاء الموت.

سواء أكانت نوفريت شريرة أم لم تكن فإنها قد جلبت الشر معها بالتأكيد، وما زال الشر بين ظهرانيهم. ولآخر مرة حاولت رينيسنب تصديق أن روح نوفريت هي التي سببت كل شيء. نوفريت الخبيثة الميتة... أم حينبت الخبيثة الحية، حينبت المحتقرة الذليلة المتمسحة.

ارتجفت رينيسنب وتقلقلت، ثم نهضت. لم تعد تستطيع انتظار حوري أطول من ذلك، فقد كانت الشمس في طريقها إلى مغيبها. وتساءلت: لماذا لم يأت؟

نهضت ونظرت حولها، ثم بدأت تنزل عبر الممر إلى الوادي في الأسفل. وكان الجو هادئاً في مثل هذه الساعة، هادئاً وجميلاً. وفكرت: ما الذي أخر حوري؟ لو أنه أتى لكانا أمضيا هذه الساعة معاً على الأقل؛ فلن يكون هناك الكثير من هذه الساعات في المستقبل القريب حين تصبح زوجة كاميني...

هل كانت ستتزوج كاميني حقاً؟

وحررت رينيسنب نفسها - وهي تشعر فجأة بنوع من الصدمة - من حالة الإذعان والكسل الذي سيطر عليها مدة طويلة، وشعرت بأنها نائمة أفاقت من حلم محموم. لقد كانت تحت تأثير ذلك الخوف السخيف وعدم الثقة فوافقت على كل شيء، عُرِضَ عليها. لكنها الآن

عادت رينيسنب مرة أخرى، وإذا تزوجها كاميني فسوف يكون لأنها أرادت الزواج به لا لأن عائلتها رتبت لذلك. كاميني بوجهه الوسيم الضاحك. لقد أحبته، أليس كذلك؟ ولهذا فإنها ستتزوجه.

في مثل هذه الساعة المسائية، وهنا قرب الضريح، يتجلى الوضوح والحقيقة... لا ارتباك ولا تشويش. لقد كانت رينيسنب تمشي فوق العالم هادئة غير خائفة، إنها هي نفسها أخيراً.

ألم تقل هي نفسها مرة لحوري بأن عليها أن تنزل هذا الممر وحدها في الساعة التي توفيت فيها نوفريت، وأنها ينبغي أن تفعل ذلك بمفردها سواء كانت خائفة أو لا؟

حسناً، كانت تفعل ذلك الآن. كانت هذه تقريباً الساعة نفسها عندما إنحنت هي وساتيبي فوق جثة نوفريت، وكانت تقريباً الساعة نفسها حين نزلت ساتيبي هي الأخرى عبر الممر ونظرت فجأة خلفها لكي ترى نهايتها وقدرها. وكان هذا هو المكان نفسه أيضاً. ما الذي سمعته ساتيبي فجعلها تنظر فجأة؟ خطوات أقدام؟

خطوات أقدام؟ لكن رينيسنب سمعت الآن صوت خطوات أقدام تلحق بها عبر الممر. خفق قلبها بحدة من الخوف، فقد كان صحيحاً إذن! كانت نوفريت خلفها تلحق بها!

اعتراها الخوف، لكن خطواتها لم تبطئ من سرعتها، وفي الوقت ذاته لم تتسارع. لا بد أن تتغلب على خوفها طالما لم يكن في عقلها أي عمل شرير تندم عليه.

ثبتت نفسها واستجمعت شجاعتها وأدارت رأسها وهي لا تزال

تمشي، ثم شعرت بموجة كبيرة من الارتياح؛ فقد كان يحموس هو الذي يلحق بها... ليست روح أحد الموتى بل أخاها... لا بد أنه كان مشغولاً في غرفة القرابين التابعة للضريح وقد خرج منها بعد أن مرت هي بها.

وقفت وهي تصرخ بسعادة: يحموس، أنا سعيدة لأنه أنت!

كان يقترب منها بسرعة، وكانت على وشك أن تبدأ بجملة جديدة تروي له فيها مخاوفها الغبية عندما تجمدت الكلمات فوق شفتيها... لم يكن هذا هو يحموس الذي تعرفه، الأخ اللطيف الحنون... كانت عيناه تلمعان بشدة وكان يلعق شفتيه الجافتين بلسانه، وكانت يداه محنيتين قليلاً أمام جسمه وأصابعه متقوسة كالمخالب.

كان ينظر إليها وكانت نظرة عينيه واضحة تماماً، نظرة رجل مارس القتل من قبل ويوشك أن يقتل مرة أخرى... وكان في وجهه نوع من القسوة المتوهجة والرضا الشرير!

يحموس... العدو الذي لا يرحم هو يحموس! خلف قناع الرقة والعطف الذي يلبسه هذا؟! كانت تظن أن أخاها يحبها، ولكن لم يكن في هذا الوجه الشرير المتوهج أي حب.

صرخت رينيسنب صرخة خافتة بائسة، وأدركت أن هذا هو الموت. لم تكن تملك قوة تماثل قوة يحموس. هنا، حيث وقعت نوفريت، كان الممر ضيقاً، وسوف تقع هي الأخرى وتموت.

- يحموس!

كان هذا استجداءً أخيراً، كان في نطقها لاسمه ذلك الحب الذي كانت تكنه لأخيها الأكبر. لكن نداءها كان بلا طائل؛ إذ ضحك يحموس ضحكة قصيرة رقيقة شريرة سعيدة، ثم أسرع إلى الأمام ويداه القاسيتان بمخالبها تلتويان كأنهما تتوقان لأن تمسكا بعنقها.

واستندت رينيسنب إلى الصخرة ويداها ممتدتان في محاولة يائسة لكي تبعده، كان هذا هو الرعب... الموت. ثم سمعت صوتاً، صوتاً موسيقياً خافتاً ذا رنة... شيئاً يئز في الهواء.

توقف يحموس، تمايل، ثم انطرح على الأرض عند قدميها وهو يصرخ صرخة مرتفعة.

وحدقت إلى الأسفل كالبلهاء في نصل سهم يكسوه الريش، ثم نظرت إلى الحافة حيث كان يقف حوري والقوس ما زال على كتفه.

-٢-

- يحموس... يحموس!

كررت رينيسنب الاسم وقد شلتها الصدمة فكأنها لا تستطيع أن تصدق الأمر.

كانت خارج الغرفة الصخرية الصغيرة وذراع حوري تلتف حولها، ولم تستطع أن تتذكر بوضوح كيف قادها عبر الممر. لم يكن بمقدورها إلا أن تكرر اسم أخيها بنبرة ذاهلة من الرعب والعجب،

وأخيراً قال حوري بلطف: نعم، يحموس. كان هو الفاعل، طوال الوقت.

- ولكن كيف؟ لماذا؟ وكيف يكون هو؟ لماذا؟ لقد تسمم هو أيضاً وكاد يموت!

- لا، لم يخاطر إلى هذا الحد، كان حذراً في كمية الشراب التي شربها. لقد تناول كمية تكفي أن تجعله مريضاً، وقد بالغ في أعراضه وآلامه وعرف أن هذه الطريقة التي تبعد الشكوك عنه.

- ولكن من المستحيل أن يكون قد قتل آيبي! كان ضعيفاً جداً بحيث لا يستطيع الوقوف على قدميه.

- كان هذا كذباً أيضاً. ألا تذكرين أن ميرسو قال إنه ما أن يزول السم فسوف يستعيد قوته بسرعة؟ وهذا ما حصل بالفعل.

- ولكن لماذا يا حوري؟ هذا ما لا أفهمه... لماذا؟

تنهد حوري وقال: ألا تذكرين - يا رينيسنب - أنني حدثتك ذات مرة عن العفن الذي يأتي من الداخل؟

- أذكر، كنت أفكر في الموضوع هذا المساء.

- قلت مرة إن قدوم نوفريت جلب معه الشر. لم يكن ذلك صحيحاً، فقد كان الشر موجوداً بالأساس مخفياً في قلوب أفراد العائلة. وكل ما فعله قدوم نوفريت هو أنه أخرجه من مخبئه إلى النور. لقد أزاح وجودها الستار، فتحولت أمومة كيت الرقيقة إلى أنانية قاسية لا ترى إلا نفسها وأولادها، ولم يعد سوبك ذلك الشاب

المرح والساحر بل أصبح متفاخراً أحمق مبذراً ضعيفاً، ولم يعد آيبي طفلاً مدللاً وجذاباً بل أصبح صبياً خبيثاً أنانياً... وأخذ الحقد يظهر خلف ادّعاء حينيت التفاني والإخلاص، وأظهرت ساتيبي نفسها كامرأة خانعة وجبانة... حتى إمحوتب نفسه انحطّ إلى طاغية متبجح مُتصابٍ.

حجبت رينيسنب عينيها بيديها وقالت: أعرف ذلك، لا داعي لأن تخبرني. لقد كشفتُ هذه الأمور بنفسي شيئاً فشيئاً. لماذا تحدث مثل هذه الأمور؟ لماذا يحدث مثل هذا العفن الذي يأتي - كما تقول - من الداخل؟

هز حوري كتفيه وقال: من يعرف؟ ربما كان سبب ذلك أن النمو ينبغي أن يتم في كل الأحوال، فإن لم ينمُ المرء ليصبح أكثر لطفاً وحكمة وتفوقاً كان النمو في الاتجاه المعاكس بحيث تنمو المشاعر والنزعات الشريرة، وربما كانت الحياة التي عاشها هؤلاء حياة مغلقة جداً تدور حول ذاتها دون سعة أفق... وربما كان الأمر أشبه بأمراض المحاصيل: مرضاً معدياً يصيب الأول وينتقل إلى الآخرين.

- ولكن يحموس... يحموس بدا دائماً كعهده لم يتغير.

- نعم، وهذا هو أحد الأسباب التي دفعتني للشك يا رينيسنب، لأن الآخرين كانوا ينفسون عن مشاعرهم بأمزجتهم الحادة، أما يحموس فكان دائماً خنوعاً تسهل السيطرة عليه ولا يملك الشجاعة الكافية للتمرد. لقد أحب إمحوتب وعمل جاهداً لكي يرضيه واعتبره إمحوتب غبياً بليداً رغم نواياه الحسنة. كان يحتقره، وكانت ساتيبي أيضاً تعامل يحموس باحتقار وسيطرة... وشيئاً فشيئاً تنامى شعوره

بالاستياء الذي كان يخفيه، لكنه كان يشعر به. وكلما ازداد تظاهره بالخضوع ازداد غضبه المستَعِر في داخله. وبعد ذلك أتت نوفريت في الوقت الذي كان يحموس يأمل أن يقطف -أخيراً- ثمرة كده واجتهاده ويشارك والده في أملاكه. وكانت نوفريت، وربما جمالها، هو الذي أطلق الشرارة الأخيرة. لقد هاجمت الرجال الثلاثة في رجولتهم؛ فجرحت مشاعر سوبك باحتقاره ووصفه بالغبي، وأثارت غضب أبيي بمعاملته كطفل شرس ليس فيه شيء من الرجولة، وأرت يحموس أنه شيء أقل من رجل في نظرها! ولم يفقد يحموس احتماله للسان ساتيبي إلاّ بعد أن جاءت نوفريت، وقد كانت سخريتها وتوبيخها وزعمها أنها رجل أكثر منه هو الذي جعل سيطرته على نفسه تفلت أخيراً، ثم التقى بنوفريت في هذا الممر وقد فقَدَ سيطرته على نفسه فدفعها إلى الأسفل.

- ولكن ساتيبي هي التي...

- لا، لا يا رينيسنب. **هذا هو ما أخطأتم جميعكم به؛ فساتيبي رأت فقط ما حصل من الأسفل.** هل فهمت الآن يا رينيسنب؟

- لكن يحموس كان معك في المزرعة؟

- نعم، حتى اللحظة الأخيرة، ولكنك لا تدركين يا رينيسنب أن جثة نوفريت كانت باردة. لقد جسست خدها بنفسك، وكنت تظنين أنها سقطت قبل بضع دقائق، لكن ذلك كان مستحيلاً. كانت قد ماتت منذ ساعتين على الأقل، وإلاّ فإن وجهها المعرّض للشمس الحارقة لم يكن ليبدو بارداً عندما لمستِه. لقد رأت ساتيبي الأمر وهو

يحدث، وبقيت ساتيبي هناك خائفة لا تعرف ما الذي ستفعله، ثم رأتك تأتين وحاولت إبعادك.

- متى عرفت هذا كله يا حوري؟

- لقد خمنتُ ذلك مبكراً تماماً. كان تصرف ساتيبي هو الذي أخبرني؛ كانت تتجول وهي تشعر بخوف واضح مميت من شخص ما أو شيء ما، وقد أصبحتُ مقتنعاً بعد فترة بسيطة أن الذي كانت تخشاه هو يحموس. لقد توقفت عن معاملته بصورة سيئة وأصبحت -بدلاً من ذلك- متلهفة على طاعته بكل طريقة ممكنة. كان الأمر -كما ترين- صدمة قاسية عليها؛ فيحموس الذي كانت تحتقره لأنه أكثر الرجال خنوعاً هو الذي قتل نوفريت حقاً. لقد قُلب عالم ساتيبي رأساً على عقب، وكانت جبانة كمعظم النساء المتسلطات. لقد أخافها يحموس الجديد هذا، ومن خوفها بدأت بالحديث في نومها، وسرعان ما أدرك يحموس أنها أصبحت مصدر خطر عليه.

والآن -يا رينيسنب- يمكنك أن تدركي حقيقة ما رأيته ذلك اليوم بأم عينيك؛ فلم تكن روحاً تلك التي رأتها ساتيبي وأدت إلى وقوعها. لقد رأت ما رأيته أنت اليوم: رأت في وجه الرجل الذي لحق بها، زوجها، نية رميها كما رمى المرأة الأخرى. ومن خوفها ابتعدت عنه فوقعت، **وحين لفظت من بين شفتيها المحتضرتين اسم نوفريت كانت تحاول أن تخبرك بأن يحموس قتل نوفريت!**

سكت حوري ثم تابع: إيزا عرفت الحقيقة بسبب ملاحظة لا علاقة لها قط قالتها حينئذ؛ فقد تذمرت حينئذ لأنني لا أنظر إليها بل كأنني أرى شيئاً خلفها، شيئاً غير موجود... ثم انتقلت إلى

الحديث عن ساتيبي. وبومضة أدركت إيزا أن الأمر كله كان أسهل مما ظننا؛ لم تنظر ساتيبي إلى شيء خلف يحموس... **كان يحموس ذاته هو الذي رأته.**

ولكي تجرب فكرتها قدمت الموضوع بطريقة عشوائية بحيث لا تعني لأي شخص شيئاً إلا يحموس نفسه إن صحت شكوكها. وقد أدهشته كلماتها وظهر عليه رد فعل فوري كان كافياً لتتأكد إيزا من حقيقة شكوكها، لكن يحموس عرف آنذاك أنها تشك وعلم أن مجرد إثارة الشكوك من شأنه أن يوصل إلى تفسير كل الأمور بشكل جيد، وحتى القصة التي رواها الراعي... صبي مغفل في خدمته قد يفعل أي شيء يطلبه سيده يحموس، بما في ذلك تناول دواء في تلك الليلة ضَمِنَ أنه لن يستيقظ بعده قط.

- آه يا حوري! صعب أن أصدق أن يحموس فعل كل ذلك. بالنسبة لقتل نوفريت... أجل، أستطيع أن أفهم، ولكن لماذا تلك الجرائم الأخرى؟

- من الصعب أن أوضح لك يا رينيسنب، لكن القلب إذا انفتح للشر فإن الشر يزدهر فيه مثل زهر الخشخاش بين الذرة. ربما كان يحموس يتوق إلى العنف الذي لم يكن قادراً على تحقيقه طوال حياته. كان يحتقر دوره المتميز بالخضوع والخنوع، وأظن أن قتله نوفريت أعطاه شعوراً كبيراً بالقوة. لقد أدرك ذلك أول مرة بتحول ساتيبي التي كانت تسيء معاملته فأصبحت خاضعة مذعورة... كل المظالم التي دفنها في قلبه مدة طويلة رفعت رؤوسها مثلما رفعت تلك الأفعى رأسها في الممر ذات يوم. وكان سوبك وآيبي، الأول

أوسم منه والثاني أذكى منه، فكان لا بد أن يذهبا. كان هو، يحموس، هو من يُفترض أن يحكم البيت وأن يكون المصدر الوحيد الباقي لراحة أبيه. وزاد موت ساتيبي من استمتاعه بالقتل وشعر بازدياد قوته نتيجة ذلك، وبدأ عقله يذوي واستحوذ عليه الشر كلياً.

أنت لم تكوني خصماً له يا رينيسنب. كان يحموس يحبك ما دام يستطيع فعل ذلك، لكنه لم يكن ليتقبل فكرة أن زوجك سوف يشاركه في الممتلكات. أظن أن إيزا وافقت على اقتراح قبول كاميني وبرأسها فكرتان: الأولى أن يحموس إذا ضرب ضربته مرة أخرى فسوف تكون موجّهة إلى كاميني أكثر منك، وفي أية حال فقد كانت إيزا على ثقة من أنني سأهتم بسلامتك. أما الفكرة الثانية (ولأن إيزا كانت شجاعة) فقد أرادت أن تدفع الأمور إلى نهايتها، حيث يمكن الإمساك بيحموس بالجرم المشهود إذ كنت أراقبه وهو لا يدري أنني أشك به.

- كما أمسكتَ به الآن. آه يا حوري! لقد كنت خائفة جداً عندما استدرت فرأيته!

- أعلم يا رينيسنب، ولكن لم يكن بدٌّ من ذلك. ما دمت أنا قد بقيت إلى جانب يحموس فسوف تكونين آمنة. ولكن هذا لم يكن ليستمر طويلاً. عرفت أنه إذا سنحت له الفرصة ليلقي بك من الممر في الوقت نفسه فإنه سوف ينتهزها، وسوف يحيي التفسير الخرافي للوفيات التي حصلت.

- إذن فالرسالة التي جاءتني بها حينبت لم تكن منك؟

هز حوري رأسه قائلاً: أنا لم أرسل لك أية رسالة.

- ولكن لماذا حينيت؟

توقفت رينيسنب وهزت رأسها وقالت: لا أفهم دور حينيت في كل هذا.

فكر حوري ثم قال: لعل حينيت تعرف الحقيقة، وقد أوشكت أن تخبره بذلك هذا الصباح. وهذا أمر خطير، وقد استخدمها كي تغريك بالصعود هنا، وهو أمر تفعله بكل سرور ما دامت تكرهك يا رينيسنب.

- نعم، أعلم.

- بعد ذلك، إني لأعجب! كانت حينيت تظن أن معرفتها ستمنحها القوة، ولكنني لا أظن أن يحموس كان سيتركها تعيش طويلاً. بل ربما كان الآن...

ارتجفت رينيسنب وقالت: لقد جن يحموس! استحوذت عليه الأرواح الشريرة. لكنه لم يكن دائماً هكذا.

- نعم، ورغم ذلك فأنت تذكرين - يا رينيسنب - أنني أخبرتك بقصة سوبك ويحموس وهما طفلان، وكيف أن سوبك ضرب رأس يحموس بالأرض وكيف أنت والدتك شاحبة خائفة وقالت لسوبك: "إن هذا خطير". أظنها - يا رينيسنب - كانت تعني أن فعل هذا الأمر بيحموس أمر خطير. تذكري كيف مرض سوبك في اليوم التالي فظنوا أنه تسمم غذائي؟ أظن أن أمك كانت تعلم بالغضب الغريب

الذي كان يتراكم خفية في صدر ابنها الرقيق الخانع وخشيت أن يظهر ويثور ذات يوم.

تنهدت رينيسنب وقالت: ألا يوجد أحدٌ ظاهره كباطنه؟

ابتسم حوري وقال: بلى، أحياناً. كاميني وأنا يا رينيسنب... أظن أن كلينا كما تظنين، كاميني وأنا.

قال كلمته الأخيرة بتركيز، وأدركت - فجأة - أنها تقف عند منعطف الاختيار لحياتها. وتابع حوري: **كلانا يحبك يا رينيسنب**، يجب أن تعرفي ذلك.

- لكنك سمحت بإعداد ترتيبات زواجي رغم ذلك ولم تقل شيئاً، ولا كلمة!

- كان صمتي لحمايتك، وإيزا كانت تراودها الفكرة نفسها. كان يجب أن أبقى بعيداً غير مهتم حتى أستطيع مراقبة يحموس عن قرب ولا أثير عداءه... يجب أن تفهمي يا رينيسنب (وقالها حوري بمحبة) أن يحموس كان صديقي لسنوات عديدة. كنت أحبه، وقد حاولت أن أدفع والدك لأن يعطيه المنزلة والسلطة اللتين يريدهما ففشلت، ثم جاء ذلك متأخراً. ورغم أنني كنت مقتنعاً في قلبي بأن يحموس هو الذي قتل نوفريت فقد حاولت ألا أصدق ذلك، فأخذت أختلق له الأعذار. كان يحموس، صديقي العزيز المعذَّب، عزيزاً على قلبي! ثم جاءت وفاة سوبك ثم آيبي، وأخيراً إيزا... وعلمت وقتها أن الشر في يحموس قد غلب الخير أخيراً، وهكذا فقد لاقى يحموس مصرعه على يدي، وكانت ميتة سريعة غير مؤلمة تقريباً.

- الموت.. دائماً الموت!

- لا يا رينيسنب؛ ليس الموت هو ما تواجهين اليوم، بل الحياة. فمع من ستشتركين في هذه الحياة؟ مع كاميني أم معي؟

حدقت رينيسنب أمامها إلى الوادي في الأسفل وخط النيل الفضي، وبرزت أمامها وبوضوح تام صورة كاميني الضاحك كما كان يجلس في القارب في ذلك اليوم وسيماً قوياً مرحاً. ومرة أخرى شعرت بتسارع الخفقان والنشاط في دمها.

لقد أحبت كاميني في تلك اللحظة، وقد أحبته الآن. يستطيع كاميني أن يحتل مكان خاي في حياتها. فكرت: سوف نكون سعيدين معاً، نعم؛ سوف نكون سعيدين. سوف نعيش معاً ونستمتع وننجب أبناء أقوياء وسيمين، وسوف تكون أيام مليئة بالعمل وأيام مملوءة بالسرور عندما نبحر عبر النهر، وتعود الحياة مثلما كانت مع خاي... ماذا أطلب أكثر من هذا؟

وببطء، ببطء شديد، دارت نحو حوري كأنما تسأله سؤالاً صامتاً. وكأنه قد فهم هو أيضاً، فأجابها: لقد أحببتك وأنت طفلة، أحببت وجهك الهادئ والثقة التي كنت تأتين إليّ بها تطلبين مني أن أصلح دُماكِ المكسورة، ثم بعد ثمانية أعوام من الغياب عدتِ مرة أخرى وجلستِ هنا وأتيتني بالأفكار التي كانت تدور في ذهنك. إن عقلك ليس مثل بقية أفراد عائلتك يا رينيسنب؛ إنه عقل لا يدور حول نفسه ضمن أطر ضيقة. عقلك مثل عقلي، ينظر إلى ما وراء النهر، يرى العالم المتغير وأفكاره الجديدة، يرى عالماً كل ما فيه ممكن لأولئك الذين يتحلّون بالشجاعة ووضوح الرؤية.

- أعلم يا حوري، أعلم. لقد شعرت بهذه الأشياء معك، لكن ليس طوال الوقت. سوف تكون أوقات لا أستطيع اللحاق بك وأكون وحدي!

ثم سكتت وقد عجزت عن نطق الكلمات التي تعبر عن أفكارها المتصارعة. لم تعرف رينيسنب كيف ستكون الحياة مع حوري، فهو -رغم رقته وحبه- سيبقى من بعض النواحي إنساناً لا يُسبَر غوره ولا يمكن فهمه. سوف يتقاسمان معاً لحظات من الجمال والغنى، ولكن ماذا عن حياتهما اليومية المشتركة؟

مدت يدها نحوه فجأة وقالت: آه يا حوري، قرر لي... أخبرني ماذا أصنع!

ابتسم لها، للطفلة رينيسنب التي تتحدث، ربما للمرة الأخيرة. لكنه لم يأخذ يديها بل قال: لا يمكنني أن أخبرك ماذا تفعلين بحياتك. إنها حياتك أنت، وأنت وحدك التي تقررين.

أدركت رينيسنب -عندها- أنه ليس هناك مساعدة وليس هناك استثارة لعواطفها من شأنها التسريع باتخاذ القرار كما فعل كاميني معها.

وفجأة فرض الخيار نفسه عليها بأسهل الشروط: إما الحياة السهلة أو الصعبة.

كانت تتعرض لإغراء لكي تستدير وتنزل عبر الممر الملتف إلى الحياة السعيدة التي كانت تعرفها والتي جربتها من قبل مع خاي؛

حيث الأمان وتقاسم المسرات والأحزان اليومية دون خوف إلا من الشيخوخة والموت.

الموت...

ها قد دارت من أفكار الحياة في دورة كاملة حتى وصلت ثانية إلى الموت. لقد مات خاي، وكاميني أيضاً ربما يموت، وسوف تختفي صورته -مثل وجه خاي- من ذاكرتها. نظرت آنذاك إلى حوري وهو يقف بهدوء إلى جانبها، وفكرت أن من الغريب ألا تعرف كيف يبدو حوري تماماً؟ لم تكن بحاجة أن تعرف.

ثم تكلمت، وكانت نبرة صوتها كنبرته يوم أعلنت منذ زمن طويل أنها ستمشي وحدها في ذلك الممر عند غروب الشمس: لقد اخترت يا حوري؛ سوف أمضي حياتي معك في السراء والضراء حتى يأتينا الموت.

وشعرت بالبهجة وحلاوة الحياة وذراعاه تلتفان حولها وعذوبة مفاجئة جديدة تعلو وجهه، وفكرت: لو أن حوري مات فلن أنساه؛ إنه أغنية في قلبي للأبد، وهذا يعني أن لا مزيد من الموت.

* * *